إيلينا فيرانتي

الحُبُّ المُقلِق

ترجمة:
مُعاوية عبد المجيد

رواية

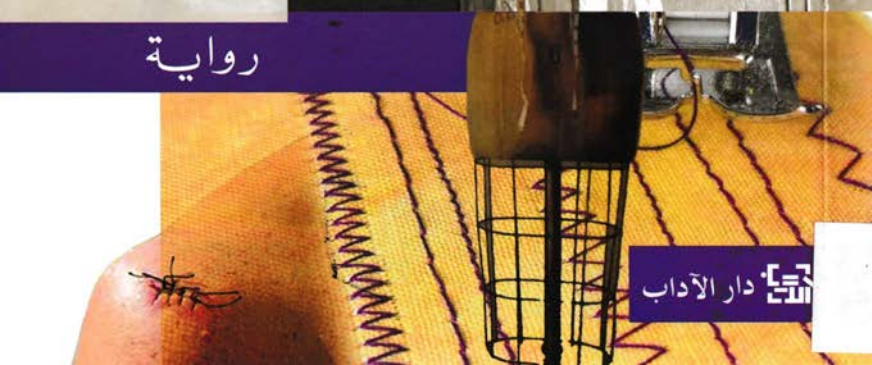

دار الآداب

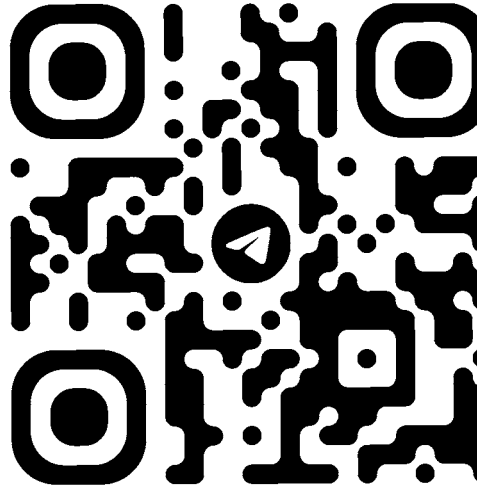

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

الحبُّ المُقلِق

الحبُّ المُقلِق

إيلينا فيرّانتي / مؤلِّفة إيطاليَّة
الطبعة الأولى عام 2025
ترجمة: معاوية عبد المجيد
© L'amore molesto
Elena Ferrante 1992
ISBN 978-9953-89-777-6

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار الآداب للطباعة والنشر والتوزيع

للمزيد من المعلومات عن دار الآداب الرجاء زيارة
موقعنا www.daraladab.net
يمكنكم التواصل معنا على البريد الإلكترونيّ:
info@daraladab.net
rana.adab@gmail.com

Facebook: Dar Al Adab Instagram: @daraladab Twitter: @DarAlAdab

إيلينا فيرّانتي

مكتبة
t.me/soramnqraa

الحبُّ المُقلِق

ترجمة: معاوية عبد المجيد

رواية

دار الآداب

إلى أمّي

مكتبة
t.me/soramnqraa

I

غرقت أُمِّي في ليلة الثالث والعشرين من شهر مايو، يوم عيد ميلادي، في الجون البحريّ قبالة الموقع المسمَّى سباكّافنتو، على بُعد كيلومتراتٍ قليلة عن بلدة مينتورنو. ففي تلك المنطقة تحديدًا، وفي أواخر الخمسينيَّات، عندما كان أبي ما يزال يعيش معنا، كنَّا نستأجر غرفةً في منزل أحدِ الفلَّاحين ونُمضي شهر يوليو: ننام نحن الخمسة في بضعة أمتارٍ مربَّعة ومتردِّية الحال. وكنَّا نحن البنات في كلِّ صباحٍ نشرب البيض الطازج، ونتوغَّل بين أعواد القصب الطويلة نحو البحر عبْرَ دروبٍ ترابيَّةٍ ورمليَّةٍ لنذهب للسباحة. وفي الليلة التي ماتت فيها أُمِّي، سمعتْ صاحبةُ ذلك المنزل، التي تُدعى روزا وقد تجاوزت السبعين من عمرها، سمعتْ طَرْقًا على الباب لكنَّها لم تفتح خوفًا من اللصوص والمجرمين.

كانت أُمِّي قد استقلَّت القطار المتَّجه إلى روما قبل ذلك

التاريخ بيوميْن اثنيْن، في الحادي والعشرين من مايو، لكنَّها لم تصل. إذ كانت في الآونة الأخيرة تجيء لتمكث عندي عدَّة أيَّام مرَّةً واحدةً في الشهر على الأقلّ. لم أكن مسرورةً بوجودها في بيتي. كانت تستيقظ فجرًا، وكعادتها تُلمِّعُ المطبخَ وغرفةَ المعيشة من الأرض إلى السقف. وكنتُ أحاول أن أغفو ثانيةً ولكنْ عبثًا: أتحجَّرُ تحت الملاءات، ويراودني انطباعٌ بأنَّها بانغماسها في الأعمال المنزليَّة قد تُحوِّلُ جسدي إلى جسد طفلةٍ لها تجاعيد. وعندما كانت تأتيني بالقهوة، كنتُ أنكمش على جنبي لئلَّا تمسَّني وهي تجلس على حافَّة السرير. كان انفتاحُها الاجتماعيّ يُزعجني: تخرج للتسوُّق فتؤانس باعةً لم أتبادل معهم أكثر من كلمتيْن طوال عشرة أعوام؛ تذهب للتجوُّل في المدينة مع بعضٍ من معارفها العَرَضيّين؛ تصبح صديقةً لأصدقائي، فتروي عليهم حكاياتٍ من حياتها، الحكايات نفسها دومًا. لم أكن في صحبتها إلَّا مُتحفِّظة ومُتصنِّعة.

ثم كانت تعود إلى نابولي حالما يتبدَّى نفادُ صبري. تجمع أغراضها، تُرتِّب المنزل للمرَّة الأخيرة، وتَعِدُني بأنَّها سترجع قريبًا. ثم أجوب الغرف لأُعيد ترتيب كلَّ شيءٍ على هواي بعد أن رتَّبتْهُ على هواها. أُعيد المملحة إلى القسم الذي أودعتُها فيه لأعوام، أُرجِعُ للمنظِّفات مكانَها الذي لطالما بدا لي مناسبًا، أزعزع نظامها الذي أرستْهُ في أدراجي، أردُّ للفوضى غرفتي المخصَّصة للعمل. بل حتى رائحةُ حضورها ـ عطرٌ يترك في البيت شعورًا باللاطمأنينة ـ تتلاشى بعد قليلٍ كرائحة المطر الصيفيّ العابر.

وغالبًا ما كانت تتخلَّف عن القطار. كانت تركب الذي يليه عادةً أو تُؤجِّل السفر إلى اليوم التالي، لكنَّني لم أستطع أن أتكيَّف مع ذلك ولطالما انشغل بالي. فكنتُ أتَّصل بها على قلق. وعندما أسمع صوتها أخيرًا، أوبِّخها بقسوة: ما الذي أعاق رحلتها، لماذا لم تُبلِّغني؟ وكانت تُسوِّغُ الأمر بلا اكتراث، تتساءل ساخرةً عمَّا قد يقع لها وهي في تلك السنّ. «كلُّ شيءٍ وارد» أُجيبها. لطالما تخيَّلتُ حبكةً من الدسائس المُدبَّرة عمدًا لإخفائها عن وجه الأرض. عندما كنتُ صغيرةً كنتُ أُمضي وقت غياباتها وأنا أنتظرها في المطبخ، خلف زجاج النافذة. أتلهَّف لظهورها من آخِرِ الشارع مثل صورةٍ في كرةٍ بلُّوريَّة. أزفر على الزجاج فيتغبَّش، كي لا أرى الشارع من دونها. وإذا تأخَّرت انفلتَ جماحُ القلقِ حتى طفح من جسمي على شكل رعشات. فألوذ بحُجرة المهملات حيث لا نوافذ ولا أضواء كهربائيَّة، بجانب غرفتها هي وأبي تمامًا. أغلق الباب على نفسي وأبقى في الظلام، أبكي في صمت. كانت الحُجرة ترياقًا فعَّالًا. توحي إليَّ برهبةٍ تلجم قلقي على مصير أُمِّي. وفي حلكة الظلام، وتأثير المبيد الحشريّ الخانق (د.د.ت.)، تعتدي عليَّ أشكالٌ ملوَّنةٌ تمسُّ حدقتيَّ فتنقطع أنفاسي. «عندما تعودين سأقتلكِ» كنتُ أقول في نفسي، كما لو أنَّها هي التي حبستني هناك في الداخل. ولكن فيما بعد، ما إنْ يتناهى إليَّ صوتها من الممرّ، كنتُ أثب إلى الخارج بسرعةٍ لأذهب وأدور حولها بلامبالاة. عادت إلى ذهني حُجرة المهملات تلك حينما اكتشفتُ أنَّها سافرت بطريقةٍ اعتياديَّة لكنَّها لم تصل إلى وجهتها على الإطلاق.

تلقَّيتُ المكالمة الأولى في المساء. قالت لي أُمِّي بنبرةٍ هادئةٍ إنَّها لن تستطيع أن تروي عليَّ ما حدث: كان معها رجلٌ يمنعها عن ذلك. ثم أخذت تضحك وأغلقت الخطّ. طغت عليَّ الدهشة حينئذٍ. ظننتُ أنَّها تريد أن تمازحني فانتظرتُ مكالمةً ثانية. وبالفعل أمضيتُ الساعات في التكهُّنات، بلا جدوى، جالسةً بجانب الهاتف. ثم بعد مرور منتصف الليل قرَّرتُ الاتِّصال بصديقٍ شرطيّ، كان لطيفًا جدًّا: أراد منِّي أن أتمالك أعصابي، وقال إنَّه سيتولَّى الأمر بنفسه. لكنَّ الليلة انقضت من دون أن أحصل على خبرٍ عن أُمِّي. لم يكن لديَّ من شيءٍ مؤكَّدٍ سوى مغادرتها: الأرملة دي ريزو، امرأة وحيدة،في مثل عمرها، تتناوبان على فترات التقارب وفترات الجفاء منذ خمسة عشر عامًا، قالت لي على الهاتف أنَّها رافقتْها إلى المحطَّة. وبينما كانت أُمِّي في طابور التذاكر، اشترت لها الأرملة قنِّينة مياهٍ معدنيَّة ومجلَّة. كان القطار مزدحمًا لكنَّ أُمِّي وجدت بكلِّ الأحوال مقعدًا شاغرًا بجوار النافذة في مقصورةٍ مكتظَّةٍ بعساكر حاصلين على إجازة. تودَّعتا وتواصتا على توخِّي الحذر. كيف كانت ثيابها؟ على الطريقة المعتادة، ارتدت ملابس موجودة لديها منذ سنوات: تنُّورة وسترة زرقاء، حقيبة يد من جلدٍ أسود، حذاء قديم متوسِّط الكعب، وحقيبة سفر تالفة.

اتَّصلت أُمِّي من جديد في السابعة صباحًا. وعلى الرَّغم من أنَّني أمطرتُها بالأسئلة («أين أنتِ؟ من أين تتَّصلين؟ مَن يرافقكِ؟»)، اقتصرتْ على التلفُّظ بسلسلةٍ من تعابير عامِّيَّة مشينة، بصوتٍ مرتفعٍ للغاية، تتلذَّذُ بتهجئتها. ثم أغلقت الخطّ. سبَّبت لي

تلك العبارات البذيئة انتكاسةً وشتاتًا. اتَّصلتُ بصديقي ثانيةً، وأذهلتُهُ بمزيجٍ مشوَّشٍ من اللغة الإيطاليَّة والتعابير العامِّيَّة. أراد أن يعرف ما إذا كانت أُمِّي مكتئبةً على نحوٍ بالغٍ في الفترة الأخيرة. لم أكن على دراية. اعترفتُ أنَّها لم تعد مثلما كانت في السابق هادئةً ومرحةً ورصينة. صارت تضحك من غير سبب، وتتكلَّم أكثر من المُحتَمل، لكنَّ المتقدِّمين في السنِّ غالبًا ما يتصرَّفون هكذا. حتى صديقي وافقني على ذلك: يحدث باستمرارٍ أن يفعل العجزة أشياء غريبة عند أوَّل ارتفاعٍ لدرجات الحرارة، لا داعي للقلق. سوى أنَّ قلقي لم يفارقني، فقطعتُ المدينة طولًا وعرضًا في البحث لا سيَّما عن الأماكن التي أعرف أنَّها تحبُّ التنزُّه فيها.

تلقَّيتُ المكالمة الثالثة في العاشرة مساء. تحدَّثت أُمِّي باضطرابٍ عن رجلٍ يلاحقها ليلفَّها بسجَّادةٍ ويأخذها بعيدًا. طلبت منِّي أن أُهرَعَ لنجدتها. توسَّلتُ إليها أن تدلَّني على مكانها. فغيَّرت نبرتها، وأجابت أنَّه من الأفضل ألَّا آتي. «اقفلي الباب عليكِ، لا تفتحي لأحد» أوصتني. فذلك الرجل كان ينوي إيذائي أنا أيضًا. ثم أضافت: «نامي. سأغتسل الآن». ولم أسمع شيئًا بعدئذ.

في اليوم التالي رأى شابَّان جسدَها يطفو على بُعد أمتارٍ عن الشطّ. كانت عاريةً إلَّا من حمَّالة الصدر. لم يعثروا حتى على السروال، الجوارب، الحذاء، حقيبة اليد وما فيها من وثائق. إلَّا أنَّ خاتم الخطوبة والزواج ما يزالان في إصبعها. وعلى أذنيْها الأقراطُ التي أهداها لها أبي قبل نصف قرن.

رأيتُ جسدَها، وشعرتُ أمام ذلك الشيء الممتقع أنَّني ربَّما مضطرَّةٌ إلى التشبُّث به كي لا ينتهي بي المطاف لستُ أدري أين. لم يتعرَّض جسدُها لأيِّ انتهاك. كانت تبدو عليه بعض الكدمات لا غير، جرَّاء الأمواج التي كانت طفيفةً في الواقع، إنَّما تلاطمتْ بها طوال الليل نحو الصخور الشاطئيَّة الناتئة عن سطح الماء. بدا لي أنَّ ما حول عينيْها آثارَ كحلٍ لا بدَّ أنَّه كان ثقيلًا. أمعنتُ النظر بانزعاجٍ إلى ساقيْها المائلتيْن إلى اللون الأخضر الزيتونيّ، ساقيْن فتيَّتيْن بشكلٍ استثنائيٍّ على امرأةٍ في الثالثة والستِّين من العمر. وبانزعاجٍ مماثلٍ انتبهتُ أنَّ حمَّالة الصدر لا تشبه تلك الحمَّالات البالية التي اعتادت وضعها. القبَّتان مصنوعتان من الدانتيل المشغول بدقَّةٍ، تتراءى الحلمتان من خلالهما. وموصولتان بتطريزة من حرف V مكرَّرًا ثلاث مرَّاتٍ، وهذه ماركة متجرٍ نابوليتانيٍّ للألبسة الداخليَّة النسائيَّة الباهظة الثمن، ماركة الأخوات ڤوسّي. تشمَّمتُ الحمَّالة عندما تسلَّمتُها مع الأقراط والخواتم. كانت تفوح برائحةٍ ثاقبةٍ تتميَّز بها الأقمشة الجديدة.

II

في أثناء الجنازة فوجئتُ بفكرة أنَّني لم أعد مُلزَمةً بالقلق عليها. وسرعان ما شعرتُ بدفقةٍ دافئة وأحسستُ بالبلل بين ساقيّ.

كنتُ على رأس موكبٍ طويلٍ من الأقارب والأصدقاء والمعارف، أتوسَّط شقيقتيَّ اللتين تشدُّني كلٌّ منهما إلى جانب. فكنتُ أسند إحداهما بذراعي خشية أن يُغمى عليها، أمَّا الأخرى فكانت تتَّكئ عليَّ بما يبدو أنَّ عينيْها المنتفختيْن تُصعِّبان عليها الرؤية. أفزعني هذا السيلانُ الجسمانيُّ اللاإراديُّ كأنَّه وعيدٌ بالعقاب. لم أتمكَّن من ذرف دمعةٍ واحدة: لم يتبادر إليَّ البكاء أو ربَّما لم أشأ. فضلًا عن أنَّني كنتُ الوحيدة التي تفوَّهت ببضع كلماتٍ لتبرير غياب والدي، إذ لم يرسل الأزهار ولم يأتِ إلى الجنَّاز. لم تُخفِ شقيقتاي استنكارهما، وبدتا منهمكتيْن في إثباتٍ علنيٍّ بأنَّ لديهما دموعًا كافيةً للبكاء لم تكن لدينا أنا وأبي.

شعرتُ أنِّي في قفص اتِّهام. حاذى الموكبُ رجلًا أسود البشرة يحمل على كتفيْه لوحات رسم مُركَّبةً على قاعدة، كانت الأولى (التي تُرَى على ظهره) تُجسِّدُ غجريَّةً شبه عارية بشكلٍ فاضح، فأملتُ ألَّا ينتبه إليها أحدٌ من شقيقتيَّ أو أقاربي. فتلك اللوحات من صنع والدي. وربَّما كان يعمل على قشورها في تلك اللحظة أيضًا. فكم استنسخ وما يزال من هذه الغجريَّة المقيتة، لتباع على الأرصفة وفي معارض الضواحي منذ عقود، من أجل حفنة ليرات كالعادة، رضوخًا لمطالباتٍ برسوم متدنِّية الذوق تليق بصالات البرجوازيَّة الصغيرة. فمن سخرية التَّشابكات التي تربط الساعات باللقاءات والفراقات والأحقاد القديمة، أنَّها لم ترسل أبي إلى جنازة أمِّي، إنَّما لوحته البدائيَّة تلك التي أكرهها أنا وشقيقتاي أكثر ممَّا نكره رسَّامَها.

شعرتُ أنِّي متعبةٌ من كلِّ شيء. لم ألتقط أنفاسي منذ أن وصلتُ إلى المدينة. رافقتُ خالي فيليبو على مدى أيَّام في جولةٍ على فوضى المكاتب، عبْر وسطاء صغار قادرين علَى تسريع الإجراءات والمعاملات البيروقراطيَّة، أو بالوقوف بأنفسنا في طوابير طويلة على نوافذ الموظَّفين لنختبر جاهزيَّتهم في تخطِّي العوائق التعجيزيَّة مقابل إكراميَّاتٍ معتبرة. وحصل خالي أحيانًا على تأثيراتٍ جيِّدة من خلال التباهي بكُمِّ سترته الفارغ. إذ كان قد فَقَدَ ذراعه اليمنى في سنٍّ متقدِّمة، في السادسة والستِّين عامًا، أثناء عمله على مخرطة في إحدى الورش بالضاحية، وراح يستخدم إعاقته هذه منذئذٍ لطلب الخدمات أو للدعاء على الرافضين بأن يُبتَلوا بلعنته نفسها. لكنَّنا حصلنا على النتائج

الأفضل بإنفاق أموالٍ كثيرةٍ ما كان إنفاقُها لزامًا علينا. تدبَّرنا الوثائق الضروريّة سريعًا بتلك الطريقة: تصاريح من عددٍ لا أذكره من سلطاتٍ مختصّةٍ حقيقيَّةٍ أو مصطنعة، جنَّازٌ من النخب الأوَّل، والأمر الأصعب: مكانٌ في المقبرة.

وفي الأثناء أصبح جثمان أماليا، أمِّي، بعد مجزرة التشريح، يزداد ثقلًا لكثرة ما أُلْحِقَ بالاسم والكنية، وتاريخ الولادة وتاريخ الوفاة، أمام موظَّفيْن جلفيْن تارةً ودمثيْن تارةً أخرى. كنتُ أشعر بضرورة التخلُّص من هذا كلِّه، ولكنْ بما أنِّي لم أبلغ حدودَ الإنهاك بعد، أردتُ أن أحمل النعش على كتفي. سمحوا لي بذلك بعد أن تمنَّعوا كثيرًا: النساء لا يحملن النعوش على أكتافهنّ. وكانت الفكرة غير موفَّقة. فنظرًا إلى أنَّ حَمَلَةَ النعش (ابنُ خالٍ لي ونسيباي) كانوا أطول قامةً منِّي، خشيتُ طوال المسير أن يدخل الخشبُ فيَّ بين ترقوتي وعنقي بالجسد الذي يحتويه. وحين أُودِعَ النعشُ في العربة، وتحرَّكت هذه، كان كافيًا أن أخطو بضع خطوات وأشعرَ بارتياحٍ آثمٍ لكي ينهال التوتُّرُ على ذلك التدفُّق السرِّيّ في جوفي.

أشعرني السائلُ الدافئُ المتسرِّبُ منِّي رغمًا عن إرادتي بأنَّه إشارةٌ متَّفقٌ عليها بين غرباء في داخل جسدي. كان الموكبُ الجنائزيُّ يتقدَّم باتِّجاه ساحة كارلو الثالث. بدت لي واجهة السجن المصفرَّة تحتمل بالكاد ضغوطَ حيّ إنتشيس الرابض فوقها. بدت لي شوارع الذاكرة الطبوغرافيَّة مُتقلِّبةً مثل مشروبٍ فوَّار، يفيض برغوته إذا تعرَّضَ للخضّ. كنتُ أشعر أنَّ المدينة تسيل في القيظ، تحت ضوءٍ رماديٍّ ومُغبرّ، وكنتُ أراجع حكايةَ

الطفولة والمراهقة ذهنيًّا، فتجعلني أجول بخيالي من المدرسة البيطريَّة وحتى الحديقة البيئيَّة، أو على أرصفة سوق سانت أنطونيو آباتي المبلَّلة دائمًا، والممتلئة بالخضروات العفنة. تولَّدَ لديَّ انطباعٌ بأنَّ أمِّي كانت تأخذ معها الأماكن أيضًا، وأسماء الشوارع أيضًا. وكنتُ أُحدِّق إلى صورتي أنا وشقيقتيَّ على الزجاج، وسط تيجان الورود، كأنَّها صورةٌ فوتوغرافيَّةٌ ملتَقَطة بإضاءةٍ منخفضة، فلا نفع منها للذاكرة في المستقبل. كنتُ أغرس نعل حذائي في أرضيَّة الساحة، وأنبذ رائحة الورود المرفوعة على العربة، إذ كانت تصلني عفنة. وفي لحظةٍ ما خشيتُ أن يسيل الدم حتى كاحليَّ فحاولتُ أن أتفلَّتَ من شقيقتيَّ. وكان ذلك مستحيلًا. اضطررتُ إلى الانتظار حتى ينعطف الموكب في الساحة ليصعد نحو شارع الدون بوسكو ويذوب أخيرًا في زحام من سيَّاراتٍ وحشدٍ بشريّ. أعمام، أعمام أخوال، أنساب، أبناء أعمام، راحوا يتعانقون واحدًا تلو الآخر: أُناسٌ أذكرهم بشكلٍ ضبابيٍّ، غيَّرَهُم الزمان، لم أعاشرهم إلَّا خلال الطفولة، وربَّما لم أرهم من قبل. أمَّا الأشخاص القلَّة الذين أذكرهم بوضوحٍ فلم يُسجِّلوا حضورهم. أو لعلَّهم كانوا هناك، لكنِّي لم أتذكَّرهم لأنَّه لم يبقَ لديَّ منهم، من مرحلة الطفولة، سوى تفاصيل: عيْنٌ ملتوية، ساقٌ عرجاء، بشرةٌ مشرقيَّة. وبالمقابل، سحبني أشخاصٌ على انفراد، وكنتُ أجهل حتى أسماءهم، وأخذوا يُحدِّثونني عن مظالم قديمة سبَّبَها أبي بحقِّهم. كما أنَّ شبَّانًا لا أعرفهم، لكنَّهم كانوا ودودين وبارعين في المحادثات الظرفيَّة، سألوني عن حالي، وعن أموري، وعن عملي. فأجبتُ أنِّي بخير، أموري على

ما يرام، وأعمل في تصميم القصص المصوَّرة؛ وسألتُهم بالمثل عن أحوالهم. وكثيرٌ من النساء المتجعِّدات، وقد طغى عليهنَّ السوادُ باستثناء وجوههنَّ الشاحبة، امتدحن جمال وطيبة أماليا المنقطعة النظير. ضمَّتني بعضهنَّ بعزم وسكبن دموعًا غزيرة، حتى إنَّني تراوحتُ بين إحساسٍ بالاختناقِ وشعورٍ بالرطوبة لا يطاق يمتدُّ نحوي من عرقهنَّ ودمعهنَّ إلى مغبني، عند مفاصل فخذيَّ. سررتُ للمرَّة الأولى من الطقم الداكن الذي ارتديتُه. وكنتُ أوشك على الابتعاد فإذا بخالي يؤدِّي واحدةً من مسرحيَّاته المعهودة. لا بدَّ أنَّ تفصيلًا معيَّنًا حطَّمَ حواجز ضعيفة الأساس، في رأسه السبعينيَّة التي غالبًا ما تخلط الماضي بالحاضر. أخذ يُجدِّفُ باللهجة العامِّيَّة بأعلى صوت، وسط ذهول الجميع، مُلوِّحًا بذراعه الوحيدة بأسلوبٍ أهوج.

«هل رأيتنَّ كازيرتا؟» سأل متوجِّهًا إليَّ وإلى شقيقتيَّ، بنَفَسٍ يضيق. كرَّرَ أكثر من مرَّةٍ تلك الكنية المعروفة، كأنَّها صوتٌ مخيفٌ آتٍ من الطفولة ليشعرني بالإعياء. ثم أضاف مُتفحِّمَ الوجه: «بلا خجل. في جنازة أماليا. لو كان أبوكِ هنا لقتله».

لم أشأ سماع أيّ حديثٍ عن كازيرتا، الذي كان ركامَ قلق الطفولة المحض. تجاهلتُ الأمر وحاولتُ أن أهدِّئه، لكنَّه حتى لم يسمعني. لا بل احتضنني بذراعه الوحيدة محتدًّا كما لو أراد مؤاساتي على عار ذلك الاسم. أقصيتُهُ عنِّي بفجاجةٍ عندئذٍ، ووعدتُ شقيقتيَّ بأنِّي سأصل إلى المقبرة على موعد مراسم الدفن، ورجعتُ إلى الساحة. بحثتُ بخطواتٍ مُتعجِّلةٍ عن مقهى. سألتُ عن الحمَّام وسارعتُ إلى المستودع الخلفيّ، إلى حُجرةٍ

نتنة بمرحاضٍ قذرٍ ومغسلةٍ مصفرَّة.

كان تدفُّق الدم غزيرًا. انتابني شعورٌ بالغثيان ودوخةٌ طفيفة. رأيتُ أمِّي متباعدة الساقيْن، في العتمة، تفكُّ دبُّوسًا مشبكًا، وتنزع خرقةَ كُتَّانٍ ملطَّخةً بالدماء عن فرجها كما لو كانت ملتحمةً به، وتستدير بلا استغراب وتقول لي بكلِّ هدوء: «اخرجي، ما الذي تفعلينه هنا؟». فانفجرتُ في البكاء، للمرَّة الأولى منذ أعوامٍ طويلة. بكيتُ وأنا أخبط المغسلة بيدي على فواصل موزونةٍ تقريبًا، كأنِّي أفرض إيقاعًا للدموع. وعندما انتبهتُ إلى ما كنتُ فيه توقَّفتُ، نظَّفتُ وجهي بالمناديل قدر المستطاع وخرجتُ بحثًا عن صيدليَّة.

رأيتُه حينذاك للمرَّة الأولى. «هل لي أن أساعدكِ يا سيِّدة؟» سألني عندما اصطدمتُ به: أقلّ من ثانيتيْن، ما يكفي لأتحسَّس قماشَ قميصه بوجهي، وألاحظ غطاء القلم الأزرق الناتئ من جيب سترته، وأسجِّلُ نبرة صوته المتردِّدة، وعطره الزكيّ، وجلدة عنقه الملساء، وكثافة شعره الأبيض في أحسن تصفيف.

«هلَّا دلَّيتَني على صيدليَّة؟» سألتُه ولكنْ دون أن أنظر إليه، مُتطلِّعةً إلى افتراقٍ سريعٍ يُبطِلُ التواصل أيًّا كان.

«في شارع غاريبالدي» أجابني بينما كنتُ أرسِّخُ ما أقدر عليه من مسافةٍ بيني وبين جسده النحيف ككتلةٍ مضغوطة. وبدا آنذاك كأنَّه ملتصقٌ بواجهة فندق الفقراء بقميصه الأبيض وسترته الداكنة. رأيتُه شاحبًا، حليقًا، لا دهشةً في نظرته التي لم تَرُقْني. شكرتُه بصوتٍ خافتٍ وسارعتُ إلى الجهة التي دلَّني عليها.

لاحقني بصوته، الذي تحوَّلَ من لبقٍ إلى فحيحٍ مُتعقِّبٍ يزداد سوقيَّةً. جُرِفتُ بفيضٍ من كلامٍ بذيءٍ بالعامِّيَّة، مثل سيلٍ من أصواتٍ يُغرِقني أنا وشقيقتيَّ وأُمّي، بخليطٍ من المني واللعاب والغائط والبول، في فتحاتٍ من كلّ نوع.

التفتُّ بغتةً، مذهولةً بقدر ما كانت الشتائمُ بلا سبب. لكنَّ الرجل لم يعد هناك. ربَّما قطع الشارع وغاب بين السيَّارات، ربَّما انعطف عند الزاوية نحو سانت أنطونيو آباتي. تمهَّلتُ ريثما تستعيد نبضاتُ قلبي انتظامَها وتتبخَّر غريزةٌ بغيضةٌ قاتلة. دخلتُ إلى الصيدليَّة، اشتريتُ علبة سدَّادات قطنيَّة وعدتُ إلى المقهى.

III

وصلتُ إلى المقبرة بسيّارة أجرة، تمامًا في لحظة إنزال التابوت في حوضٍ حجريٍّ رماديّ، ليُردَمَ بالتراب فيما بعد. غادرت شقيقتاي بعد مراسم الدفن فورًا، بالسيَّارة، كلٌّ مع زوجها وأبنائها. كانتا تتوقان إلى العودة كلٌّ إلى منزلها ونسيان ما حدث. تعانقنا وتعاهدنا على اللقاء في أقرب وقت، لكنَّنا كنَّا نعلم أنَّ هذا لن يحدث. كنَّا سنتداول بضع مكالماتٍ حدًّا أقصى لنعاين المعدَّلَ المتصاعدَ للغرابة المتبادلة مرَّةً تلو أخرى. إذ كنَّا نحن الثلاثة نعيش في مدنٍ مختلفة، لكلٍّ منَّا حياتُها الخاصَّة وماضٍ مشترك لا يروقنا. وفي الحالات النادرة التي كنَّا نلتقي فيها، كنَّا نُفضِّلُ السكوت إزاء ما ينبغي النقاش فيه.

وعندما بقيتُ وحدي، ظننتُ أنَّ الخال فيليبو سيدعوني إلى بيته حيث استضافني في الأيَّام الفائتة. لكنَّه لم يفعل. كنتُ قد أبلغتُهُ في الصباح بضرورة ذهابي إلى بيت أمِّي، لآخذ أغراضها

الحميمة القليلة، وأنهي عقد الإيجار، والكهرباء، والغاز، والهاتف؛ فظنَّ على الأرجح أنَّ لا لزوم لأن يدعوني. ابتعد من دون أن يُودِّعني، منحني الظهر، يجرجر خطاه، بعد أن استنزفه تصلُّبُ الشرايين والاحتقانُ المباغتُ للضغائن القديمة التي جعلتْهُ يتقيَّأ شتائمَ خياليَّة.

وهكذا نُسِيتُ على قارعة الطريق. انسحب حشد الأقارب نحو الضواحي التي قدموا منها. وكانت أمِّي قد دُفِنَتْ على يد حفَّاري قبور غير مهذَّبين، في قاعِ لحدٍ عَطِنٍ بالشمع والأزهار الذابلة. وكنتُ أُعاني ألمًا في الكليتَيْن وتشنُّجًا في البطن. فقرَّرتُ بهمَّةٍ فاترة: مشيتُ بمحاذاة الجدار الحارّ للحديقة البيئيَّة حتى ساحة كافور، وقد صار الهواءُ أثقلَ بفعل أدخنة السيَّارات وهمهمة الأصوات العامِّيَّة التي كنتُ أفكُّ رموزها على مضض.

حاولتُ نسيان لغة أمِّي مع أشيائها الأخرى بلا جدوى. فعندما كنّا نتلاقى في بيتي، أو عندما كنتُ آتي إلى نابولي بزياراتٍ خاطفةٍ لا تزيد على نصف يوم، كانت تبذل جهدًا عسيرًا للتكلُّم بالإيطاليَّة، في حين كنتُ أنزلق إلى اللهجة مستاءةً، لمجرَّد مساعدتها. ولم تكن اللهجةُ مرحةً أو نوستالجيَّة، إنَّما غير عفويَّة، لا جدارة في استخدامي لها، أنطقها بمشقَّةٍ كأنَّها لغةٌ أجنبيَّة بالكاد أعرفها. وكانت الأصوات التي ألفظها بامتعاضٍ تحتوي على صدى المشاجرات العنيفة بين أماليا وأبي، بين أبي وأهلها، بين أماليا وأهل أبي. كنتُ أضيق ذرعًا، وسرعان ما أعود إلى إيطاليَّتي وتستريح هي في لجهتها المحكيَّة. والآن وقد ماتت وبتُّ قادرةً على محو لغتها إلى الأبد مع الذكرى التي تنقلها، صار

سماعُها في أذنيَّ يُسبِّبُ لي القلق. استعنتُ بهذه اللهجة العامِّيَّة لشراء بيتزا مقليَّة ومحشوَّة بجبن الريكوتا. أكلتُها بشهيَّةٍ بعد أيَّام ممَّا يشبه الصوم، أجول على قدميَّ في الحدائق المهملة وأجمات الدفلى الهزيلة وأتفرَّسُ كبار السنّ الكثيرين المُتجمِّعين في حلقات. حتى دفعني الإزعاج من ضجيج الناس والسيَّارات ما وراء الحدائق إلى الصعود إلى بيت أمِّي.

تقع شقَّة أماليا في الطابق الثالث من مبنًى قديم مُدعَّم بحدائد سقَّالات من ماركة إنّوشنتي. وكانت البناية محسوبةً علَى أبنية المركز التاريخيّ شبه الخاوية في الليل والمأهولة في النهار من قِبَلِ موظَّفين يُجدِّدون الرُخَص، ويُصدِرون شهادات الميلاد أو الإقامة، ويستجوبون الحواسيب للحجوزات أو قطع تذاكر طائرات وقطارات وسفن، ويختمون بوليصات تأمين من السرقات والحرائق والأمراض والوفاة، ويُحرِّرون تصاريح ضريبيَّة مُعقَّدة. وكان المستأجرون العاديُّون قلَّة، ولكنْ بعد أن طَرَدَنا والدي نحن الأربعةَ قبل أكثر من عشرين عامًا ـ عندما أبلغتْهُ أماليا نيَّتَها بالانفصال ودعمناها نحن البنات بقوَّةٍ في خيارها هذا ـ وجدنا لحسن الحظّ شقَّةً للإيجار هناك. لم يعجبنيْ المبنى إطلاقًا. كان يجعلني قلقةً كأنَّه سجن، محكمة، أو مستشفى. أمَّا أمِّي فكانت مسرورةً به: كانت تراه فخمًا. وفي الواقع كان بشعًا ومتَّسخًا حتى بوَّابته الضخمة التي كانت تُخلَعُ بانتظام كلَّما صلَّحَ البوَّابُ القفلَ. المطارق مُغبرَّة، اسودَّت جرَّاء دخان العوادم، ومقابضها النحاسيَّة لم تُلمَّع منذ بداية القرن. وفي الممرّ الكهفيّ الطويل المؤدِّي إلى فِناءٍ داخليّ، كان ثمَّة مَن يرابط دومًا: طلبة، مارَّةٌ ينتظرون

الحافلة التي تتوقَّف على بُعد أمتار، باعة ولَّاعات، مناديل ورقيَّة، عرانيس ذرة مشويَّة أو كستناء مُحمَّصة، سوَّاحٌ مُرهَقون من الحرارة أو المطر، ذكورٌ مُتجهِّمون من شتَّى الأعراق في تأمُّلٍ دائم للواجهات الزجاجيَّة الممتدَّة على الجدارَيْن. كان هؤلاء يتظاهرون عمومًا بأنَّهم ينتظرون لستُ أدري ماذا ويُمعِنون النظر في صورٍ إبداعيَّةٍ لمصوِّرٍ مُتقدِّم في السنّ لديه استديو في البناية: عرسان بملابس الزفاف، فتيات مبتسمات ومشرقات، شبَّان بزيٍّ رسميٍّ وملامح صفيقة. وقد عُرِضَت صورةٌ شخصيَّةٌ لأماليا أيضًا منذ أعوام. لم تبقَ أكثر من يومَيْن، إذ أوصيتُ المصوِّر بنزعها، قبل أن يمرَّ أبي من هناك ويُحدِثَ فضيحةً ويُهشِّمَ الزجاج.

قطعتُ الفِناء الداخليّ وعيناي إلى الأرض، وصعدتُ العتبة الصغيرة التي تفضي إلى الباب الزجاجيّ للسلَّم ب. كان البوَّاب غائبًا، وهذا ما أسعدني. دخلتُ المصعد بعجالة. فهو المكان الوحيد الذي يعجبني في هذه البناية الكبيرة. لم أكن في العموم أحبُّ تلك النواويس الحديديَّة التي تصعد بسرعة أو تتهاوى إلى الأسفل بمجرَّد كبسة زرّ، وتفتح فجوةً في المعدة. لكنَّ هذا جوانبه خشبيَّة، وبابه من زجاجٍ مُعشَّقٍ بالأرابيسك الرماديّ عند الحوافّ، ومقابضه من نحاسٍ مشغول، وفيه مقعدان راقيان متقابلان، ومرآةٌ، وإضاءةٌ خافتة؛ ويعمل متثاقلًا ومصحوبًا بكونشرتو من قرقعةٍ متواصلة، مضبوطٌ بتباطؤٍ يبعث على الاسترخاء. وفيه حصَّالةٌ من عقد الخمسينيَّات، واسعة الجوف وفتحتُها مُقوَّسةٌ باتِّجاه السقف، مُستعدَّةً لابتلاع النقود، تُصدِرُ حزقةً معدنيَّةً عند كلّ طابق. وكان المصعد يعمل بضغطة الزرّ منذ

زمن، فظلَّت الحصَّالة مُثبَّتةً على الجانب الأيمن بلا أيّ فائدة. لم يكن خواؤها الزاهد يزعجني، على الرَّغم من أنَّها كانت تُفسِدُ على ذلك المجال شيخوخته الهادئة.

جلستُ على مقعد وفعلتُ ما كنتُ أفعله في صغري كلَّما احتجتُ إلى سكينة: عوضًا عن كبس الزرّ رقم ثلاثة، تركتُني أتسنَّمُ حتى الطابق الخامس. كان ذلك المكان مقفرًا قبل أعوام طويلة، منذ أن رحل عنه المحامي الذي كان مكتبه هناك وحمل معه حتى المصباح الذي يضيء المستراح. عندما توقَّف المصعد، تركتُ نفَسَي يهوي إلى بطني ويعود إلى حلقي ببطء. وكالعادة، بعد بضع ثواني، انطفأ ضوء المصعد أيضًا. فكَّرتُ أن أمدَّ يدي نحو مقبض إحدى الدفَّتيْن: كان يكفي أن أسحبه ليعود الضوء. لكنِّي لم أتحرَّك وتابعتُ إرسال النَّفَس إلى عمق جسمي. لا نأمة تصدر إلَّا من العثّ وهو ينهش خشب المصعد.

قبل عدَّة أشهر فقط (خمسة، ستَّة؟)، وبدافعٍ مباغتٍ، بُحتُ لأمِّي خلال إحدى زياراتي الخاطفة، أنِّي في فترة المراهقة كنتُ ألجأ إلى هذا المكان السرِّيّ، ثم سحبتُها معي إلى الأعلى. ربَّما أردتُ أن أحاول توطيد ألفةٍ بيننا لم يكن لها وجود، ربَّما أردتُ أن أُخبرها بطريقةٍ مرتبكة أنِّي لطالما كنتُ تعيسة. بيد أنَّها بدت لي مستمتعةً برؤيتي مُعلَّقةً في الفراغ، داخل مصعدٍ متخلخل.

«ألم يكن لديكِ رجلٌ طيلة تلك الأعوام؟» سألتُها بغتةً. كنتُ أقصد: ألم يكن لديها عشيق، بعد أن تركتْ والدي؟ كان السؤال شاذًّا للغاية، بالنسبة إلى الأسئلة المحتملة ما بيننا مذ كنتُ صغيرة. لكنَّ جسدها، جالسًا على المقعد الخشبيّ على بُعد

سنتمترات عن جسدي، لم يُظْهِرْ أيَّ استياء. ولا صوتُها، الذي كان واثقًا وصافيًا: لا. لم ترسل أيَّ إشارةٍ تقودني إلى الظنِّ بأنَّها تكذب. لذا لم يكن لديَّ أدنى شكّ. كانت تكذب.

«لديكِ عشيق» قلتُ لها بنبرةٍ جامدة.

كانت ردَّة فعلها مبالغًا فيها مقارنةً بسلوكها المتحفِّظ دومًا. رفعت ثوبها حتى خصرها، لتكشف عن سروالها الورديّ العالي والواسع. قهقهت وقالت شيئًا مرتبكًا عن لحمها الرخو، وبطنها المترهِّل، وردَّدت: «تلمَّسي هنا» مُحاوِلةً أن تأخذ يدي لتضعها على بطنها الأبيض والمنتفخ.

سحبتُ يدي وأسندتُها على قلبي لأهدِّئ نبضاته المتسارعة. أسقَطَتْ أهدابَ الثوب لكنَّها تركتْ ساقيْها منكشفتيْن، صفراويْن تحت ضوء المصعد. ندمتُ لأنِّي صحبتُها إلى الأعلى إلى ملجأي. وأردتُ أن تغطِّي نفسها على وجه الخصوص. «اخرجي» قلتُ لها. وخرجت فعلًا: لم تكن ترفض لي طلبًا. وما إن خَطَتْ بعد الباب المفتوح حتى اختفت في الظلام. وإذ شعرتُ أنِّي وحيدة في المصعد، راودني سرورٌ وديع. أغلقتُ الباب بلا تفكير. وانطفأ ضوء المصعد بعد ثواني.

«ديليا» غمغمت أمِّي ولكنْ بلا جزع. لم تكن تجزع قطّ في حضوري، وحتى في تلك المناسبة بدا لي أنَّها ولعادةٍ قديمة، عوضًا عن البحث عن طمأنينة، كانت تحاول أن تطمئنني.

مكثتُ قليلًا أتلذَّذ باسمي كصدًى للذاكرة، كصورةٍ مُجرَّدة ترنُّ دونما رنين في رأسي. بدا لي ذاكَ صوتُها، منذ زمنٍ غير

ملموس، حين كانت تبحث عنِّي في البيت ولا تجدني.

وحينئذٍ كنتُ هناك أحاول على وجه السرعة أن أمحو استحضار ذلك الصدى. ولكنْ تبقَّى لديَّ انطباعٌ بأنِّي لم أكن وحيدة. كنتُ تحت المراقبة، لا من أماليا التي تذكَّرتُها قبل عدَّة أشهر وقد ماتت للتوّ، إنَّما من نفسي أنا التي خرجت إلى المستراح وما زالت تنظر إليَّ وأنا جالسة هناك. كنتُ أكره نفسي، عندما يحدث ذلك. أحسستُ بالخجل قليلًا إذ رأيتُني بكماء في مصعدٍ خارجٍ عن الاستعمال، مُعلَّقةً بين الفراغ والظلمة، مختبئةً كأنَّني في عشٍّ على غصن شجرة، كرتل الحبال الفولاذيَّة الذي كان طويلًا ويتدلَّى مُتعَبًا من هيكل المصعد. مددتُ يدي نحو الباب وتحسَّستُ قليلًا قبل أن أجد المقبض. تراجع الظلام ما وراء الزجاج المعشَّق بالأرابيسك.

كنتُ أعلم هذا منذ أمدٍ بعيد: ثمَّة خطٌّ لا أتمكَّن من تجاوزه عندما أفكِّر بأماليا. ربَّما كنتُ هناك للتمكُّن من تجاوزه. ذُعِرتُ من الأمر، كبستُ الزرّ رقم ثلاثة فاختضَّ المصعد وضجَّ. وبدأ بالهبوط وهو يصرصر نحو شقَّة أُمِّي.

IV

طلبتُ المفاتيح من الجارة، الأرملة دي ريزو. أعطتها لي لكنَّها رفضت أن تدخل معي رفضًا قاطعًا. كانت مفلطحةً ومُتشكِّكة، لها شامةٌ كبيرةٌ على خدِّها الأيمن تستوطنها شعرتان رماديَّتان طويلتان، وشعرُها ملمومٌ بشريطتيْن على رقبتها ليُشكِّلَ ضفائر متداخلة. كانت ترتدي الأسود، ربّما بشكلٍ اعتياديٍّ، وربَّما لأنَّها ما زالت في ثوب الحِداد. ظلَّت واقفةً عند عتبة بيتها تنظر إليَّ وأنا أختار المفاتيح الأنسب. لكنَّ الباب لم يكن مقفلًا بعناية. فقد أغلقت أماليا واحدًا من القفليْن، على غير عادتها، ذلك الذي يُقفَلُ على دورتيْن. أمَّا الآخر، الذي يستوجب خمس دورات، لم تغلقه.

«ما السبب يا تُرى؟» سألتُ الجارةَ وأنا أفتح الباب على مصراعيْه.

تردَّدت دي ريزو. «كان عقلها في مكانٍ آخر» قالت، لكنَّها

أدركت سماجة التعبير، فاستدركت: «كانت سعيدة». ثم تردَّدت مرَّةً أخرى: كان من الواضح أنَّها تودُّ الاغتياب بكلِّ سرور لولا أنَّها خشيت شبح أمِّي الذي يحوم على السلالم، في الشقَّة، وفي بيتها أيضًا بالتأكيد. دعوتُها ثانيةً للدخول على أمل أن تؤانسني بثرثرتها. رفضت بشدَّة وارتعدت واحمرَّت عيناها.

«ولماذا كانت سعيدة؟» سألتُها.

تردَّدت مرَّةً ثالثة ثم حسمت أمرها.

«منذ مدَّةٍ كان يأتي إليها رجلٌ طويل، ومحترمٌ جدًّا...».

رميتُها بنظرة عداء. قرَّرتُ أنَّه لن يروقني أن تواصل كلامَها.

«كان شقيقها» قلتُ.

ضيَّقت دي ريزو حدقتيْها وتبرَّمت: كانت وأُمِّي صديقتيْن منذ زمن، وكانت تعرف الخال فيليبو جيِّدًا. لم يكن طويلًا، ولا محترمًا إلى تلك الدرجة.

«شقيقها» هجَّأت الكلمة بما ينمُّ عن موافقةٍ زائفة.

«أليس هو؟» سألتُها منزعجةً من تلك النبرة. حيَّتني بفتورٍ وأغلقت الباب.

يصعب على مَن يدخل إلى بيت شخصٍ ميِّتٍ حديثًا أن يحسَبه خاويًا. البيوت لا تحتفظ بالأرواح إنَّما تستبقي آثار البوادر الأخيرة للحياة. كان أوَّل شيء سمعتُهُ هو جريان الماء في المطبخ، خلتُ لجزءٍ من الثانية ـ على إثر التواءات الواقع والوهم الحادَّة ـ خلتُ أنَّ أُمِّي لم تكن ميِّتة، وأنَّ موتها ليس إلَّا موضوعَ نزوةٍ طويلة وموجعة لا أحد يدري متى بدأت. كنتُ واثقةً من أنَّها

في البيت، على قيد الحياة، واقفةً عند المغسلة، تغسل الأطباق وتتمتم في سرِّها. لكنَّ دفَّات النوافذ كانت مغلقة، والشقَّة في ظلمةٍ دامسة. أنرتُ الضوء ورأيتُ الصنبور النحاسيّ القديم يدفق الماء في المغسلة الفارغة بغزارة.

أغلقتُه. كانت أمِّي تنتمي إلى ثقافةٍ منحسرة لا تطيق الهدر. فكانت لا ترمي الخبز اليابس، وتستخدم حتى قشرة الجبن بحيث تطهيها في الحساء لتُنكِّهُه، ولا تشتري اللحم أبدًا تقريبًا إنَّما تطلب من اللحَّام فضالة العظام لتستخرج منها المرق وتمصُّها كما لو أنَّها تحتوي على خلاصاتٍ عجيبة. ما كانت لتنسى الصنبور مفتوحًا. كانت تستخدم المياه بتقتيرٍ صار تلقائيًّا في إيمائها، وسَمْعِها، وصوتها. فإذا كنتُ في صباي أغفل عن مجرَّد خيط ماءٍ ينساب بصمتٍ نحو قعر المغسلة مثل إبرة حياكة، كانت تصيح عليَّ مباشرةً دونما توبيخ: «ديليا، الصنبور». أحسستُ بالقلق: كانت قد أهدرت من الماء بسبب شرودها في ساعاتها الأخيرة أكثر ممَّا أهدرتْه خلال حياتها كلِّها. رأيتُها عائمةً ووجها إلى الأسفل، عالقةً في وسط المطبخ، وخلفها تتراءى القيشانيَّاتُ الزرقاء.

خرجتُ بسرعة من المكان. جلتُ في غرفة النوم وبيدي كيسٌ بلاستيكيٌّ أجمع فيه أغراضها القليلة الأحَبَّ إليها: ألبوم العائلة، سوار، طقمٌ شتويٌّ قديمٌ يعود إلى الخمسينيَّات وكان يعجبني أنا أيضًا. وما تبقَّى عبارةٌ عن أغراضٍ ما كان حتى بائع المستعملات ليرغب فيها. الأثاث قليل فضلًا عن أنَّه بالٍ وقبيح، سريرها مُكوَّنٌ من فراشٍ وشبكةٍ واحدة، الملاءات والأغطية مُرقَّعة بعنايةٍ

لا تستحقُّها، نظرًا إلى قِدَمِها. لكنّي ذُهِلتُ بأنَّ الدُّرج الذي عادةً ما تضع فيه ملابسها الداخليَّة كان فارغًا. بحثتُ عن سلَّة الثياب الوسخة ونظرتُ ما فيها. لا شيء سوى قميصٍ رجَّاليٍّ ذي جودةٍ عالية.

تفحَّصتُهُ. كان قميصًا أزرق، من مقاسٍ مُتوسِّط، مُقتَنى حديثًا ومن اختيار رجلٍ شابّ أو أذواقه شبابيَّة. عنق القميص متَّسخ، لكنَّ رائحة القماش ليست سيِّئة: كان العرق قد امتزج بمزيل روائح من ماركةٍ جيِّدة. طويتُه ثانيةً ووضعتُهُ في الكيس البلاستيكيّ مع الأشياء الأخرى. إذ لم يكن هذا من نوع الملابس التي يرتديها الخال فيليبو.

مررتُ إلى الحمَّام. لم يكن فيه فرشاة أسنان ولا معجون. كان برنُسُها الأزرق القديم مُعلَّقًا على الباب. وورق المرحاض في نهاياته. وعلى جانب مقعدة المرحاض ثمَّة كيس قمامة شبه ممتلئ. ولكنْ ليس فيه قمامة؛ إنّما عفونة الجسد المنهَك التي تختزنها الثياب الوسخة أو المصنوعة من نسيجٍ رثّ، والمشبَّعة في كلِّ ليفةٍ منها بأمزجة السنين. بدأتُ أستخرج ملابس أمّي الداخليَّة كلّها، لباسًا بعد لباس، باشمئزازٍ طفيف: سراويل بيضاء ووورديَّة قديمة، مليئة بالرتوق والأربطة المطّاطيَّة البائدة التي تظهر في ثنايا القماش المفتَّق، مثل سككٍ في المسافات الفاصلة بين نفقٍ وآخر؛ حمَّالات صدر معوجَّة وهالكة؛ قمصان داخليَّة مُثقَّبة؛ شيَّالات لشدِّ الجوارب المستخدمة قبل أربعين عامًا وقد احتفظت بها أمّي بلا جدوى؛ كولون في حالٍ يُرثى لها؛ تنانير داخليَّة ولَّت موضتها، وبهتت ألوانها، واصفرَّت تطريزتها.

أماليا التي لطالما ارتدت ثيابًا بالية دومًا بسبب الفقر، ولأنَّها أيضًا اكتسبت عادةَ العزوف عن الإغراء، وذلك منذ عقودٍ طويلةٍ لكي تخمد غيرة أبي، بدت أنَّها قرَّرت التخلُّص فجأةً من كلّ خزانة ملابسها. تذكَّرتُ الرداء الوحيد الذي كان عليها عندما انتشلوها من البحر: حمَّالة الصدر الراقية والجديدة، ذات القبَّتيْن الموصولتيْن بماركة VVV. أذكت صورةُ ثدييها المضمومَيْن في ذلك الدانتيل القلقَ الذي كان يعتريني. تركتُ الثياب مبعثرةً على الأرض، بلا قوَّةٍ للعودة إلى تلمُّسها، أغلقتُ الباب واستندتُ إليه.

ولكنْ عبثًا: قفزت غرفةُ الحمَّام برمَّتها من فوقي وعادت لتتشكَّلَ أمامي، في الممرّ: أماليا الآن جالسةٌ على مقعدة المرحاض وتنظر إليَّ بإمعانٍ وأنا أُزيل شعر جسمي. كنتُ أغطّي كاحليَّ بقشرةٍ من الشمع الساخن الذي سأنتفه عن جلدي وأنا أتأوَّه. كانت في الأثناء تروي عليَّ أنَّها في صباها أزالت زغبَ كاحليْها بالمقصّ. لكنَّه سرعان ما نَبَتَ من جديد قاسيًا مثل عُقَد سلكٍ شائك. وحتى خلال الاصطياف، كانت قبل أن ترتدي لباس البحر تُقصِّرُ شعر عانتها بالمقصّ.

فرضتُ عليها طريقتي رغم تمنُّعها. دهنتُ الشمع بعنايةٍ على كاحليْها، والجانب الداخليّ من فخذيْها النحيلتيْن والمتماسكتيْن، ومغبنها، ووبَّختُها بقسوةٍ لا مُسوِّغَ لها على تنوُّرتها الداخليَّة المرقَّعة. ثم نَتَفْتُهُ بعزم بينما كانت تنظر إليَّ دون أن يرفَّ لها رمش. فعلتُها بلا تحرُّز، كما لو أنَّني أردتُ إخضاعها لتجربة ألم، وكان منها أن تجاوبت بلا نقاش كأنَّما قبلت خوض

التجربة. لكنَّ الجلد لم يقاوم. صار أحمر فاقعًا في البداية ثم بنفسجيًّا على الفور ليكشف عن شبكةٍ من شعيراتٍ مهشَّمة. «لا يهمُّ. سوف يزول» قالت في حين تأسَّفتُ بعض الشيء على ما أوصلتُها إليه.

وها أنا أتأسَّف على ذلك أكثر بينما كنتُ أستجمع إرادتي لإعادة غرفة الحمَّام إلى ما وراء الباب الذي كنت أستند إليه. ابتعدتُ عن الباب لهذا السبب، وفعلتُ بحيث تتبدَّد في الممرِّ صورةُ فخذيْها الشاحبتيْن، وذهبتُ إلى المطبخ لآخذ حقيبتي. وعندما عدتُ إلى الحمَّام، اخترتُ ما بين السراويل الراقدة على الأرض ذاك الذي بدا لي أقلَّها تردِّيًا. اغتسلتُ وغيَّرتُ السدَّادة القطنيَّة. تركتُ سروالي على الأرض، بين سراويل أماليا. وحين مررتُ قبالة المرآة ابتسمتُ لاإراديًّا لأطمئن نفسي.

أمضيتُ لا أدري كم من الوقت بجانب نافذة المطبخ، أصغي إلى همهمة الزقاق، وضجيج الدرَّاجات الناريَّة، والدوس على البلاط. كان الشارع يفوح برائحة ماءٍ راكدٍ تتسلَّق على حدائد السقَّالات. كنتُ مرهقةً إلى أبعد حدٍّ لكنِّي لم أشأ أن أستلقي على سرير أماليا أو أن أطلب العون من خالي فيليبو أو أن أتَّصل بوالدي أو أن أعود ثانيةً إلى دي ريزو. كنتُ أشعر بالشفقة على عالم العجزة الهائمين، الضائعين ما بين صورهم الراجعة إلى حقبٍ منقضية، تارةً متفاهمين وتارةً متشاجرين مع أطياف أشياء وأشخاص من زمنٍ ولَّى. ورغم هذا استصعبتُ البقاء على الهامش. أغرتني فكرة وصل صوتٍ بصوت، شيءٍ بشيء، حدثٍ بحدث. آنذاك وقد بتُّ أشعر بعودة أماليا التي تريد أن تنظر إليَّ

كيف أدهن جسمي بمرطبَّات البشرة، وكيف أضع الماكياج وكيف أزيله. آنذاك وقد بتُّ أتخيَّلها بنفورٍ تعيش شيخوخةً سرِّيَّةً حيث تلعب بجسمها طوال اليوم، ربَّما مثلما كانت ستفعل في شبابها، لو أنَّ أبي لم يرَ في تلك الألعاب رغبةً في إمتاع الآخرين واستعدادًا للخيانة.

V

نمتُ ما لا يزيد على ساعتيْن، بلا أحلام. وعندما فتحتُ عينيَّ، كانت الغرفة مظلمة إلَّا من ضياءٍ ضبابيٍّ مصدرُهُ أعمدة الإنارة، يدخل من النافذة المفتوحة ويتفشَّى على جانبٍ من السقف. كانت أماليا هناك في الأعلى مثل فراشةٍ ليليَّة، شابَّةً، ربَّما في العشرينيَّات من العمر، عالقةً في منامةٍ خضراء، بطنها منتفخٌ بحَمْلٍ مُتقدِّم. ورغم الصفاء البادي على وجهها، كانت تزحف على ظهرها ويتلوَّى جسمُها مُتشنِّجًا في ألمٍ مبرَّح. أغمضتُ عينيَّ لأمنحها الوقت لتبتعد عن السقف وتعود إلى الموت؛ ثم فتحتُهما ونظرتُ إلى الساعة. كانت الثانية وعشر دقائق. غفوتُ من جديد ولكن لوقتٍ قصير. ثم انتقلتُ إلى خمولٍ مشبعٍ بالصور، حيث بدأتُ أروي على نفسي عن أمِّي عن غير قصد.

كانت أماليا، بين يقظتي ومنامي، امرأةً سمراء ومشعرة.

وكان شعرها يلتمع مثل جلد فهد، حتى عندما باتت عجوزًا، حتى عندما أذبلَتْهُ ملوحة البحر، وكان كثيفًا، تنمو الشعرة واحدةً بجانب الأخرى فلا تقوى الريح على اختراقه. يتضوَّع برائحة صابون الغسيل، ليس الصابون المجفَّف، الذي يوجد سُلَّمٌ مطبوعٌ على سطح علبته، إنَّما رائحة الصابون السائل، ذي اللون البنِّيّ الذي كنَّا نشتريه من قبوٍ لا أذكر منه سوى الحساسيَّة الناجمة عن الغبار بمنخاري وحلقي.

ذلك الصابون، كان يبيعه رجلٌ سمينٌ وأمرد. يغترف منه بمجرفةٍ صغيرةٍ ويسكبه في ورقةٍ صفراء وسميكة، واضعًا فيه نفحةً من عَرَقِهِ ومبيدِ الـ د. د. ت. وكنتُ أركض إلى أماليا مقطوعة الأنفاس، حاملةً الورقة المخروطيَّة، أنفخ عليها بملء وجنتيَّ لأُزيل روائح القبو وذلك الرجل؛ أركض بالطريقة نفسها الآن، ووجنتي على المخدَّة التي نامت عليها أمِّي، على الرَّغم من مرور وقتٍ طويل. وما إن ترى قدومي، حتى تفرد شعرها الذي يتفكَّكُ كأنَّها نقشتْهُ بتسريحة اللفائف على جبينها، وكأنَّ صبغة الأبنوس تتحوَّر صيغتُها الكيميائيَّةُ تحت يديْها.

كان شعرها طويلًا. لم تكن أماليا تنتهي مطلقًا من فرده، ولا يكفي الصابون لغسله، كان يتطلَّبُ كلَّ الحاوية التي يبيع منها الرجل في القبو، تحت العتبات المُبيضَّة جرَّاء مساحيق الغسيل المتناثرة. كنتُ أشكُّ فيما إذا كانت أمِّي تتفلَّتُ من مراقبتي لتذهب وتغمر شعرها في البرميل مباشرةً، بعد حصولها على موافقة صاحب الدكَّانة. ثم كانت تلتفت نحوي مبتهجةً بوجهها المبلَّل، بالماء الذي ينهمر من صنبور بيتنا على رقبتها، رموشها

وحدقتيْها السوداويْن، وحاجبيْها المرسوميْن بالفحم، وقد صارا رماديَّيْن للتوّ بفعل الرغوةِ التي تتفتَّتُ على قوس جبينها إلى قطراتٍ من ماءٍ وصابون. وكانت القطرات تنزلق إلى أنفها، نحو فمها، حتى تلتقطها بلسانها الأحمر وتبدو لي أنَّها تقول: «لذيذة».

لم أفهم كيف كانت تستطيع أن تتواجد في مجاليْن مختلفيْن بالوقت ذاته، أن تدخل كلِّيًا في برميل الصابون، هناك في القبو، بتنُّورةٍ داخليَّةٍ زرقاء، وخيوطُ بطانة الأكتاف تتدلَّى من منكبيْها إلى ذراعيْها؛ وفي الآن نفسه تُسلِّمُ أمرها لمياه مطبخنا، التي ما انفكَّت تغمر شعرها كافَّةً بطبقةٍ سائلة. لقد حلمتُ بها هكذا بعينيْن مفتوحتيْن بالتأكيد، مثلما أفعل الآن للمرَّة الألف، وللمرَّة الألف تراودني حيرةٌ أليمة.

لم يرتضِ الرجل السمين بالمشاهدة. كان يُخرِجُ البرميل إلى الهواء الطلق في الصيف. وكان عاري الصدر، سفعتْهُ الشمسُ، وقد لفَّ جبينَهُ بمنديلٍ أبيض وضيِّق. وكان يُقلِّبُ الصابون في الحاوية بعصا طويلة ويبرم شعر أماليا اللامع وهو يتصبَّبُ عرقًا. وفي الأثناء كانت المحدلة تفرقع هنا وهناك، وتتقدَّم ببطءٍ بأسطوانتها الحجريَّة الرماديَّة الكبيرة. كان يقودها رجلٌ آخر، مكتنزٌ ومفتول العضلات، عاري الصدر هو أيضًا، وشعر إبطه مجعَّدٌ من كثرة التعرُّق. كان يرتدي بنطلونًا ذا لونٍ بنِّيٍّ باهت، مفكوك الأزرار بحيث يبرز تجويفٌ مخيف على مستوى بطنه وهو جالس، مستريحًا على مقعد آلته ليراقب كيف ينزلق شعر أماليا من البرميل المائل كالقطران الكثيف واللامع، الذي يُنهِضُ أبخرةً

ويُموِّجُ الهواءَ عند تفشِّيهِ على الحصى. كان شعر أمِّي من الزفت ويتناثر زغبًا ووبرًا نضرًا ليتكثَّفَ في الأماكن المحرَّمة من جسمها. مُحرَّمةٌ عليَّ: لم تكن تسمح لي بلمسها. كانت تخفي وجهها بحيث تقلب شعرها عليه برمَّته وتهب رقبتها للشمس كي تُنشِّفها.

عندما رنَّ الهاتف، رفعتْ رأسها على حين غرَّة، حتى إنَّ شعرها المبلَّل طار من الأرض إلى الهواء، ولامس السقفَ ليهبط من جديد على ظهرها بوقْعٍ شديدٍ أيقظني كلِّيًّا. أنرتُ الضوء. لم أذكر أين كان الهاتف، الَّذي ما زال يرنّ. وجدتُهُ في الممرّ، هاتفٌ قديمٌ من الستِّينيَّات أعرفه جيِّدًا، مُثبَّتًا على الحائط. وما إنْ قلتُ «ألو» حتى ناداني صوتٌ ذكريٌّ باسم أماليا.

«لستُ أماليا» قلتُ«مَن معي؟»

أحسستُ بأنَّ الرجل على الخطِّ يكتم ضحكته بصعوبة.

«لستُ أماليا» ردَّدَ بصوتٍ مستعار، واستأنف بعامِّيَّةٍ محلِّيَّةٍ ضيِّقة: «اتركي لي كيس الثياب الوسخة في الطابق الأخير. لقد وعدتِني بذلك. وفتِّشي جيِّدًا: ستجدين الحقيبة التي فيها أغراضكِ. وضعتُها لكِ هناك».

«أماليا ماتت» قلتُ بنبرةٍ هادئة «مَن أنت؟»

«كازيرتا» قال الرجل.

دوَّت الكنيةُ مثلما يدوِّي اسمُ الغول في الحكايات.

«أنا أدعى ديليا» أجبتُ «ما الذي في الطابق الأخير؟ ماذا لديك من أغراضها؟»

«أنا لا شيء. بل أنتِ التي لديكِ من أغراضي» قال الرجل

بصوتٍ مستعار ثانيةً، بنبرةٍ مُتكلِّفة ليُشوِّهَ إيطاليَّتي.

«تعال إلى هنا» قلتُ له بإغواء «لنتحدَّثَ في الأمر وتأخذَ ما ينفعك».

ساد صمتٌ طويل. انتظرتُ الإجابة لكنَّها لم تصل. لم يغلق الرجل الخطّ: كان قد ترك السمَّاعة بكلِّ بساطةٍ وانصرف.

ذهبتُ إلى المطبخ وشربتُ كأس ماء، ماء ثقيل، كريه المذاق. ثم عدتُ إلى الهاتف واتَّصلتُ بخالي فيليبو. ردَّ بعد خمس رنَّات، لم يعطني الفرصة لأقول «ألو»، فإذا هو يصرخ فيَّ على الهاتف بشتائم من كلِّ نوع.

«أنا ديليا» قلتُ بحزم. شعرتُ أنَّه كان يستصعب تحديد مَن أكون. وعندما تذكَّرني، بدأ يهذي بأعذارٍ وينادي «يا ابنتي» ويسألني مرارًا إن كنتُ بخير، وأين أنا، وما الذي حدث.

«اتَّصلَ بي كازيرتا» قلتُ. وقبل أن يعاود فرط مسبحةِ هجائه أمرتُهُ: «اهدأ».

VI

عدتُ إلى الحمَّام بعد ذلك. ركلتُ سروالي المتَّسخ خلف الشطَّافة، وجمعتُ ألبسة أماليا الداخليَّة التي كنتُ قد بعثرتُها على الأرض، ووضعتُها في كيس القمامة. ثم خرجتُ إلى المستراح. لم أعد مكتئبةً ولا قلقة. أغلقتُ باب البيت بعناية، مستعينةً بكلا القفلين ثم طلبتُ المصعد.

وما إنْ دخلتُهُ حتى كبستُ الزرّ رقم خمسة. خرجتُ إلى الطابق الأخير، وتركتُ باب المصعد مفتوحًا بحيث يُضاء الجانبُ المظلمُ جزئيًّا على الأقلّ. فاكتشفتُ أنَّ الرجل كذب: لم أجد حقيبة أمِّي هناك. فكَّرتُ أن أعود إلى الأسفل لكنِّي غيَّرتُ الفكرة. وضعتُ كيس القمامة في مثلَّث الضوء الذي خلَّفَهُ المصعدُ ثم أغلقتُ بابه. اخترتُ زاويةً في المستراح تحت الظلام بحيث يمكنني رؤية مَن يخرج من المصعد أو مَن يأتي من جهة السلَّم. جلستُ على الأرض.

كان اسم كازيرتا منذ عقود يُمثِّلُ بالنسبة إليَّ مدينة كازيرتا، مدينة السرعة، ومكان اللاطمأنينة حيث يجري كلُّ شيء بسرعةٍ تضاهي الأماكن الأخرى. ليست المدينةَ الملكيَّةَ حيث المنتزهُ العائدُ إلى القرن الثامن عشر والوفيرُ بالمياه المنحدرة من شلَّالات، الذي زرتُهُ في صغري، في اثنيْن الفصح، بين حشود السيَّاح، ضائعةً وسط عشيرة الأقارب الغفيرة، لتناول لحوم السيكونديليانو المجفَّفة والبيض المسلوق بقشره داخل عجينةٍ دسمةٍ ومُتبَّلةٍ بالفلفل. لا تحتفظ ذاكرتي من الأحرف السبعة لاسم تلك المدينة وذلك المنتزه إلَّا بالمياه التي تتساقط بسرعة والمتعة المجبولة بالرهبة من أن أتوه وسط صيحات النداء التي تبتعد أكثر فأكثر. غير أنَّ ما تُسجِّلُهُ عواطفي العصيَّة على التعبير تحت اسم كازيرتا، كان يتضمَّنُ على وجه الخصوص غثيانًا جرَّاء لعبة الدوران في حلقة، دوخةً ونقصَ هواء. وكان ذلك المكان، المنتمي إلى الذاكرة الأقلّ موثوقيَّةً، يتجسَّدُ أحيانًا في عتبة سُلَّمٍ تحت إضاءةٍ خافتة ودرابزين من حديدٍ مطاوع. وفي أحيانٍ أخرى كان بقعةَ ضوءٍ مُتقطِّعٍ بسبب القضبان ومغطَّاةً بمنخلٍ ضيِّق، كنتُ أراقبها متواريةً تحتَ الأرض، رفقة ولدٍ اسمه أنطونيو الذي كان يمسك يدي بعزم. أمَّا الأصوات المرافقة، كالموسيقى التصويريَّة في فيلم، فكانت محض خليط، قعقعة مفاجئة، كأشياءٍ تكون في البدء مُرتَّبةً ثم تتهدَّمُ بغتةً. وأمَّا الرائحة فكانت رائحة ساعة الغداء أو العشاء، عندما تتمازج على السلالم نكهاتُ المطابخ المتنوِّعة والآتية من كلِّ باب، ولا يُفسِدُ ذلك العطرَ إلَّا عطنُ العفونة وشباك العناكب. كان كازيرتا مكانًا لا ينبغي لي الذهاب إليه،

حانةً لها لافتة، امرأةً سمراء، نخيلًا، أُسُودًا، جِمالًا. كان له طعمُ الملبَّس في صناديق الحلوى، ولكنْ يُمنَعُ الدخول إليه. إذا دخلنه الصغيراتُ ما خرجن منه بعد. حتى أمِّي كان ممنوعًا عليها دخوله، وإلَّا قتلها أبي. كان كازيرتا رجلًا، طيفًا من نسيج داكن. وكان الطيفُ يدور مُعلَّقًا على حبل، دورةً هنا ثم دورةً هناك. ليس من المسموح الحديث عنه. وكانت أماليا غالبًا ما تُطارَدُ في البيت، وتُمْسَكُ، وتُضْرَبُ على وجهها بظاهر اليد أوَّلًا، ثم بالكفِّ، لا لشيءٍ سوى لأنَّها نطقت: «كازيرتا».

هذا في ذكرياتي الضبابيَّة. أمَّا في تلك الجليَّة فكانت فيها أماليا نفسها تتحدَّث عنه في السرِّ، عن ذلك الرجل ـ المدينة المخلوق من شلَّالاتٍ وأدغالٍ وتماثيل حجريَّةٍ ورسوماتٍ لنخيلٍ وجِمال. لم تكن تتحدَّث عنه إليَّ، فربَّما كنت ألعب تحت الطاولة مع شقيقتيَّ. كانت تتحدَّث عنه إلى الآخرين، إلى النساء اللواتي يُصنِّعنَ القفَّازات معها في البيت. لديَّ أصداء عبارات في أحد أجزاء دماغي. وقد ظلَّت إحداها عالقةً في ذهني، في منتهى الوضوح. لم تكن حتى كلمات، لم تعد كذلك؛ كانت أصواتًا مضغوطةً تتمثَّلُ في صور. كازيرتا ـ كانت أمِّي تقول هامسةً ـ دفعها إلى زاويةٍ وحاول أن يُقبِّلَها. وكنتُ حين أسمع هذا أرى فم ذلك الرجل المفتوح، وأسنانًا ناصعة البياض ولسانًا طويلًا وأحمر. كان اللسان يندفع ما وراء الشفتيْن ثم يعود بسرعةٍ تُخدِّرني. وكنتُ في أعوام المراهقة أغمض عينيَّ عمدًا للاستمتاع بإعادة تركيب هذا المشهد في ذهني، وأتأمَّله بمزج الإغراء بالاشمئزاز. لكنِّي كنتُ أفعل الأمر وأنا أشعر بالذنب، كما لو

أنَّني أقترف إثمًا مُحرَّمًا. كنتُ أعلم منذئذٍ أنَّ في تلك الصورة الخياليَّة سرًّا لا يجوز إفشاؤه، لا لأنَّ جزءًا منِّي كان يجهل كيفيَّة الوصول إليه، إنَّما لو أنِّي أفشيتُهُ لكان الجزء الآخر منِّي سيرفض تسميته ويطردني منه.

حدَّثني الخال فيليبو على الهاتف، قبل قليل، عن أشياء كانت معرفتي بها مُتخبِّطة: كان يتحدَّث فيها وكنتُ أعرفها. يمكن تلخيصها كما يلي: كازيرتا رجلٌ وضيع. كان في شبابه صديقًا له ولأبي. وقد نجح مع أبي في أعمالٍ جيِّدة، خلال فترة ما بعد الحرب: كان يبدو أنَّه شابٌّ لامع، نزيه. لكنَّه حطَّ عينيْه على أمِّي. وليس عليها فحسب: كان مُتزوِّجًا من قبل، ولديه ولد، إلَّا أنَّه كان يتحرَّش بنساء الحيّ كلِّهنّ. وعندما تعدَّى حدوده، لقَّنَه خالي ووالدي درسًا. فهجر كازيرتا وزوجتُهُ وابنُهُ ليعيشوا في مكانٍ آخر. اختتم حديثه بعامِّيَّةٍ مُتوعِّدة: «لم يشأ نزعها من رأسه. فأنسيناه الرغبة من أساسها إلى الأبد».

صمْت. كنتُ قد رأيتُ دماءً ما بين صياحٍ وشتائم. خيالاتٌ على خيالات. أنطونيو، الطفل الذي كان ممسكًا يدي، سقط إلى الأسفل حينذاك، في قاع القبو المظلم. أحسستُ لوهلةٍ بأنَّ العنف المنزليّ لطفولتي ومراهقتي كان يعود إلى عينيَّ وأذنيَّ كما لو أنَّه يقطر على طول حبلٍ يربط بيننا. لكنِّي لاحظتُ للمرَّة الأولى، بعد مرور أعوامٍ طويلة، أنَّ هذا ما كنتُ أريده الآن.

«سآتي إليكِ» اقترح خالي.

«ما الذي سيفعله بحقِّي عجوزٌ في السبعين عامًا برأيك؟»

ارتبك. أقسمتُ قبل أن أغلق الخطّ بأنّي سأعاود الاتّصال به في حال ظهر كازيرتا من جديد.

وها أنا أنتظره عند المستراح. مرَّت ساعةٌ على الأقلّ. كان نور أضواء الطوابق الأخرى المنعكسة على السلالم يسمح لي بمراقبة الوضع كلِّه ما إن أعتاد الظلام. لم يحدث شيء. ليس قبل الرابعة صباحًا تقريبًا، حيث اختضَّ المصعد بشدَّة وانتقل مؤشِّره من الأخضر إلى الأحمر. وهبط إلى الأسفل.

صرتُ عند الدرابزين بقفزةٍ واحدة: رأيتُ المصعد يمرُّ بالطابق الرابع ويتوقَّف عند الثالث. انفتح بابه وانغلق. ثم عمَّ الصمتُ مجدَّدًا. انقطع صدى الاهتزازات الصادرة عن الحبال الفولاذيَّة أيضًا.

انتظرتُ قليلًا، خمس دقائق ربَّما؛ ثم نزلتُ إلى الطابق الأسفل بحذر. كان هناك ضوءٌ أصفر: الأبواب الثلاثة المطلَّة على المستراح تفضي إلى مكاتب شركة تأمين. نزلتُ عتبةً أخرى بالالتفاف حول المصعد المتوقِّف والمعتم. أردتُ أن أرى ما في داخله لكنَّ المفاجأة منعتني عن ذلك. كان باب بيت أمّي مفتوحًا على مصراعيْه، والأنوار مضاءة. وكانت حقيبة أماليا، وبجوارها حقيبة يدها الجلديَّة السوداء، على العتبة تمامًا. أردتُ أن أندفع نحو تلك الأغراض، لكنِّي سمعتُ خلف ظهري طقطقة الباب الزجاجيّ للمصعد. أناره الضوءُ ليكشف لي عن رجلٍ عجوز، أنيق، وجهه جميلٌ نسبيًّا وضامرٌ تحت كتلة شعره الأبيض. كان جالسًا على أحد المقعديْن الخشبيَّيْن، مُتحجِّرًا لدرجةٍ يبدو فيها أنَّه صورةٌ قديمةٌ ومُكبَّرة. حدَّقَ إليَّ لوهلة بنظرةٍ ودِّيَّة، حزينة بعض

الشيء. ثم أقلع المصعد نحو الأعلى مفرقعًا.

لم يكن لديَّ شكّ. كان الرجل هو نفسه الذي فرط عليَّ مسبحةَ كلامه البذيء أثناء جنازة أماليا. لكنِّي تردَّدتُ في اللحاق به على السلالم: فكَّرتُ أنَّه من الواجب عليَّ ذلك لكنِّي تسمَّرتُ على الأرض كتمثال. حدَّقتُ إلى حبال المصعد حتى توقَّفَ وطقطق بابُه لينفتح وينغلق بعجالة. وبعد ثواني انزلق المصعد أمامي من جديد. وقبل أن يختفي نحو الطابق الأرضيّ، أظهَرَ الرجلُ على مرآي مبتسمًا كيسَ القمامة الذي يحتوي على ألبسة أمّي الداخليَّة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

VII

أنا كنتُ قويَّةً، جامدة، سريعةً وحاسمة؛ وليس هذا فحسب: كنتُ أحبُّ أن أكون واثقةً من أنِّي كذلك. ولكنْ في ذلك الظرف لا أعلم ما الذي وقع. ربَّما بسبب التعب، ربَّما بسبب صدمتي من رؤية الباب مفتوحًا على مصراعيْه بعد أن قفلتُهُ بعناية. ربَّما ذُهلِتُ من رؤية أنوار البيت مضاءةً، وحقيبة أمِّي وحقيبة يدها معروضتيْن على العتبة. أو ربَّما كان السبب شيئًا آخر. انتابني النفور حين أدركتُ أنَّ صورة ذلك الرجل العجوز من خلف زجاج المصعد المزخرف بالأرابيسك بدت لي لوهلة ذات جمالٍ كَدِر. وهكذا، عوضًا عن اللحاق به، وقفتُ مُتسمِّرةً أجتهد في التمحيص بتفاصيل جماله، حتى بعد أن اختفى المصعد نحو الأسفل.

وعندما انتبهتُ إلى ذلك، شعرتُ بأنْ خارت قوايَ، محبَطةً من إحساسي بأنِّي أُهِنْتُ أمام جزءٍ منِّي يراقب أيَّ رضوخٍ محتملٍ

للجزء الآخر. ذهبتُ إلى النافذة بما أُتيحَ لي من وقتٍ لأرى الرجل يبتعد في الزقاق تحت أضواء الطريق، منتصب القامة، على خطواتٍ معتدلة ولكنْ ليست متعبة، يحمل الكيس في يده اليمنى بذراعٍ مشدودةٍ ومتباعدة عن جنبه، وقاع البلاستيك الأسود يلامس الأرض. عدتُ إلى الباب وتهيَّأتُ للوثب إلى السلالم. لكنِّي انتبهتُ أنَّ الجارة، السيِّدة دي ريزو، تتبدَّى في فتحةٍ عموديَّةٍ ضوئيَّة بين باب بيتها والعضادة.

كانت ترتدي ثوبَ نومٍ طويلًا من قطنٍ ورديٍّ، وتنظر إليَّ مُعاديةً، ووجهُها يتخفَّى بالسلسلة التي لا بدَّ أن تكون وظيفتها منع الحاقدين من الدخول. ولا بدَّ أنَّها كانت هناك منذ مدَّة، تتلصَّصُ من عين الباب وتسترق السمع.

«ما الذي يحدث؟» سألتْ بنبرةٍ شرسة «طوال الليل وأنتِ تتحرَّكين». كدتُ أردُّ عليها بنبرةٍ أشرس لكنِّي تذكَّرتُ أنَّها ألمحت إلى رجلٍ كان يلتقي بوالدتي، وأسعفني الوقت للتفكير بوجوب تمالُكِ نفسي إذا أردتُ معرفة المزيد. فعلى الرَّغم من أنِّي انزعجتُ من ذلك التلميح إلى النميمة في تلك الظهيرة، وجدتُني مضطرَّةً آنذاك إلى أن أتمنَّى تحوُّلَهُ إلى محادثةٍ مُفصَّلة، أو نقاش، جبرًا لخاطر تلك المرأة الوحيدة التي تؤرِّقها الليالي.

«لا شيء» قلتُ وأنا أحاول السيطرة على أنفاسي «لا أقوى على النوم».

غمغمتْ بما معناه أنَّ الأموات لا يرحلون بسهولة.

«في الليلة الأولى لا يسمحون لأحدٍ بأن ينام قرير العيْن» قالت.

«هل سمعتِ ضجَّة؟ هل أزعجتُكِ؟» سألتُها بتهذيبٍ مُفتَعل.

«أنام قليلًا وبصعوبة، بعد ساعةٍ متأخِّرة. إضافةً إلى القفل: لم تتوقَّفي عن فتح الباب وإغلاقه».

«صحيح» أجبتُها «إنَّني متوتِّرة نوعًا ما. حلمتُ بأنَّ ذلك الرجل الذي حدَّثتِني عنه كان هنا عند الباب».

أدركت العجوز بأنِّي غيَّرتُ لهجتي وأنِّي مستعدَّةٌ لسماع أقاويلها، لكنَّها أرادت أن تتأكَّد من أنَّني لن أصدِّقها ثانيةً.

«أيُّ رجل؟» سألتْ.

«ذاك الذي حدَّثتِني عنه حضرتكِ... الذي كان يأتي إلى هنا، ليزور أمِّي. غفوتُ وأنا أفكِّر فيه...».

«كان رجلًا محترمًا، وكان يرفع معنويَّات أماليا. كان يأتيها بمعجَّنات الإسفولياتيلَّا، والأزهار. وعندما كان يحضر، كنتُ أسمعهما يتحادثان ويضحكان بلا توقُّف. خاصَّةً هي التي كانت تضحك، بضحكةٍ مجلجلةٍ تكاد تُسْمَعُ من الطابق الأرضيّ».

«عمَّ كانا يتحادثان؟»

«لا أدري، لم أكن أتنصَّت. فأنا أنشغل بشؤوني».

أبديتُ نفاد صبري.

«ولكن، أماليا، ألم تتحدَّث عنه مطلقًا؟»

«بلى» أقرَّت دي ريزو «ذات مرَّةٍ رأيتُهما خارجَيْن من البيت معًا، قالت لي إنَّها تعرفه منذ خمسين عامًا، وأنَّه كان بمنزلة القريب أو يكاد. وإن كان كذلك، فأنتِ تعرفينه أيضًا. طويلٌ،

نحيلٌ، وشعره أبيض. وكانت أمُّكِ تعامله كما لو أنَّه أخوها. في منتهى الأريحيَّة».

«ما كان اسمه؟»

«لا أدري. لم تخبرني عن اسمه قطّ. كانت أماليا تتصرَّف كما يحلو لها. ففي يومٍ تسرد عليَّ شؤونها، من دون حتى أن أطالبها بذلك، وفي اليومِ الذي يليه تحرمني حتى من التحيَّة. أمّا لماذا أعرف أمر الإسفولياتيلّا فهذا لأنَّهما لا يأكلان المعجّنات كلِّها، فكانت تعطيني منها. وكانت تعطيني الأزهار كذلك، لأنَّها كانت تتحسَّسُ من العطر: كانت تعاني ألمًا في الرأس على الدوام، في الأشهر الأخيرة. أمّا أن تدعوني لتُقدِّمَه إليَّ، أبدًا».

«ربَّما كانت تخشى أن تُحرِجَ حضرتكِ».

«قطعًا لا، إنَّما كانت تريد الحفاظ على حياتها الخاصَّة. وقد فهمتُ الأمر واحترمتُ خصوصيَّتها. بأيِّ حال، أريدكِ أن تعرفي بأنَّه كان من الصعب الوثوق بأمّكِ».

«ماذا تقصدين؟»

«لم تكن تتصرَّف كما ينبغي. لم أرَ ذلك السيِّد إلَّا في تلك المرَّة. كان عجوزًا وسيمًا، أنيقًا، وعندما صادفتُهما، انحنى تجاهي. أمَّا هي فالتفتت إلى الجهة الأخرى وأسمعتْني كلامًا بذيئًا».

«لعلَّكِ أسأتِ الفهم».

«بل فهمتُ جيِّدًا. أصابها هوسٌ بالتفوُّه بكلام في منتهى البذاءة، وبصوتٍ مرتفع، حتى وهي بمفردها. ثم تهمُّ بالضحك.

كنتُ أسمعها من هنا، من مطبخي».

«ما كانت أمِّي لتتفوَّه بكلامٍ بذيء».

«بل كانت تفعل، وكيف لا... الوقار ضرورة في عمرٍ معيَّن».

«صحيح» قلتُ. وتذكَّرتُ الحقيبتيْن اللتين على عتبة البيت. أحسستُ بأنَّهما فَقَدتا كرامتهما رغم أنَّهما من أغراض أماليا، نظرًا إلى الدرب الذي سلكاه. عزمتُ على ردِّ الاعتبار لهما. لكنَّ العجوز وقد تشجَّعت من نبرتي المسالمة، أزاحتِ السلسلةَ وطلعت على العتبة.

«بأيِّ حال، لا أنام بعد هذه الساعة» قالت.

خشيتُ أنَّها تريد المجيء إليَّ فسارعتُ إلى التراجع نحو شقَّة أمِّي.

«أمَّا أنا فسأحاول النوم قليلًا» قلتُ.

تجهَّمت دي ريزو ورفضت اللحاق بي. أعادت السلسلة إلى بابها بِغَيظ.

«أماليا أيضًا كانت تودُّ دخول بيتي دائمًا في حين لم تَدْعُني لدخول بيتها أبدًا» غمغمت. ثم أغلقت الباب في وجهي.

VIII

جلستُ على الأرض وبدأتُ بحقيبة السفر. فتحتُها لكنّي لم أجد فيها ما يمكن اعتباره لأمّي. كانت الأغراض كلُّها جديدة: خفٌّ ورديّ، منامةٌ من الساتان بلون بودرة الوجه، فستانان لم يُرتَدَيا مطلقًا، أحدهما باللون الأحمر الصدئ ضيّقٌ وشبابيٌّ بما لا يناسب مقاسها وذوقها، والآخر رزينٌ وأزرق لكنَّه قصيرٌ بلا شكّ، خمسة سراويل ذات جودة عالية، محفظة مكياج من جلدٍ بنّيٍّ مليئة بالعطور، ومزيلات العرق، ومرطِّبات البشرة، ومستحضرات التجميل، ومزيلات المساحيق: هي التي لم تتزيَّن في حياتها.

انتقلتُ إلى حقيبة اليد. أخرجتُ في البدء سروالًا أبيض جديدًا. وحالما رأيتُ ماركة الـ VVV على جانبه الأيمن، إضافةً إلى التصميم الراقي، أدركتُ فورًا أنَّه القطعة الثانية لحمَّالة الصدر التي كانت أماليا ترتديها عندما غرقت. تفحَّصتُ السروال جيِّدًا: كان فيه شقٌّ صغيرٌ على الجانب الأيسر، كما لو أنَّها لبستْهُ على

الرَّغم من أنَّه بمقاسٍ أصغر من الضروريّ بما لا تنكره العين. أحسستُ أنَّ معدتي تتشنَّج فحبستُ أنفاسي. ثم عدتُ للنبش في الحقيبة، للبحث عن مفاتيح البيت أوَّلًا. ولم أجدها بطبيعة الحال. غير أنِّي عثرتُ على نظَّارة مدّ البصر خاصَّتها، تسع رقائق للهاتف العموميّ، والمحفظة. وفي المحفظة ثمَّة مئتان وعشرون ألف ليرة (مبلغٌ طائلٌ بالنسبة إليها، إذ كانت تعيش على نقودٍ قليلةٍ نُحوِّلها لها نحن الشقيقات الثلاث شهريًّا)، وإيصال فاتورة الكهرباء، وبطاقتها الشخصيَّة بحافظة بلاستيكيَّة، وصورةٌ قديمة لي ولشقيقتيَّ رفقة والدنا. كانت الصورة تالفة. كلُّ صورنا العائدة إلى زمنٍ بعيدٍ كانت مُصفرَّة، تتخلَّلها خدوشٌ كتلك التي تتعرَّض لها الشياطينُ المجنَّحة في بعض لوحات المذابح الكنسيَّة من قِبَلِ مؤمنين يُخدِّشونها بوساطة أدواتٍ حادَّة.

تركتُ الصورة على الأرض ونهضتُ وأنا أصارع غثيانًا متصاعدًا. بحثتُ في أرجاء البيت عن دليل هاتف، وعندما وجدتُهُ فتَّشتُ فيه عن كازيرتا. لم أشأ الاتِّصال به: كنتُ أريد عنوانه. وحين اكتشفتُ أنَّ هناك ثلاث صفحات ممتلئة تحت كنية كازيرتا، انتبهتُ أنَّني لا أعرف اسمه: لا أحد ناداه بغير كازيرتا خلال طفولتي كلِّها. رميتُ دليل الهاتف في إحدى الزوايا حينذاك وتوجَّهتُ إلى الحمَّام. لم أعد أتمكَّن من تمالك محاولات التقيُّؤ هناك، وخشيتُ لوهلةٍ من أنَّ جسدي كلَّه قد يثور عليَّ، بغضبٍ منوطٍ بتدميرٍ ذاتيٍّ لطالما ذُعِرتُ منه في طفولتي وحاولتُ السيطرة عليه كلَّما كبرتُ. ثم هدأتُ. تمضمضتُ وغسلتُ وجهي بعناية. وإذ رأيتُه شاحبًا ومنهكًا في المرآة المائلة على المغسلة، اتَّخذتُ

قرارًا مباغتًا بأن أستخدم المكياج.

كانت ردَّة فعل غير اعتياديَّة. فأنا لا أتزيَّن غالبًا ولا أفعلها بسرور. وإن كنتُ قد تزيَّنتُ في صباي فقد كففتُ منذ مدَّة: ما عاد يبدو لي أنَّ المكياج يُحسِّن صورتي. إلَّا أنِّي في تلك المناسبة شعرتُ أنَّني في حاجةٍ إليه. أخذتُ محفظة المكياج من حقيبة أمِّي، عدتُ إلى الحمَّام، فتحتُها، أخرجتُ منها قارورةً تغصُّ بمادَّةٍ مُرطِّبة ما زالت بصمات إصبع أماليا الخجولة باقيةً على سطحها. محوتُ أثرها ذاك بأثري واستخدمتُ المادَّة بإسراف. مرَّرتُها على وجهي بحماسة، وكويتُ بها وجنتيَّ. ثم لجأتُ إلى البودرة وأخفيتُ بها وجهي بحدَّة.

«أنتِ شبح» قلتُ للمرأة التي في المرآة. كان وجهها لشخص يناهز الأربعين عامًا، تغمض عينًا، ثم الأخرى، وتُمرِّر على كلِّ عيْنٍ قلم رصاص أسود. كانت ضامرة، نحيلة، وعظام وجهها ناتئة، نجت من التجاعيد بأعجوبة. شعرها مقصوصٌ قصيرًا جدًّا للتباهي قدر الإمكان بلونه الأسود الذي كان بدوره يبهت نحو الرماديّ بارتياح، ويتهيَّأ للاختفاء إلى الأبد. مرَّرتُ الماسكارا.

«أنا لا أشبهكِ» همستُ لها وأنا أضع قليلًا من أحمر الخدود. ولكي لا تُكذِّبَني، حاولتُ ألَّا أنظر إليها. وهكذا حدَّقتُ إلى الشطَّافة في المرآة. التفتُّ علَّني أفهم ما الذي كان ينقص تلك الأداة القديمة الطراز، ذات الصنابير الضخمة المكتسية بالقشور، وعندما أدركتُ راودتني رغبةٌ في الضحك: كان كازيرتا قد أخذ معه أيضًا سروالي الملطَّخ بالدم الذي كنتُ قد تركتُه على الأرض.

IX

كانت القهوة جاهزة تقريبًا عندما وصلتُ إلى بيت الخال فيليبو. لا أحد يدري كيف كان يقدر على فعل كلِّ شيءٍ بذراعٍ واحدة. كان لديه آلةٌ عتيقةٌ لتحضير القهوة، من تلك المُستَخدَمة قبل انتشار الموكا في كلِّ بيت. وآلتُهُ عبارةٌ عن أسطوانة معدنيَّة لها منقارٌ قابلٌ للتفكيك لتنقسم إلى أربعة أجزاء: وعاءٌ لتسخين الماء، مصفاة، غطاءٌ لولبيٌّ متَّصلٌ ومخرومٌ بثقوبٍ صغيرة، ووعاءٌ للقهوة. عندما أدخلني إلى المطبخ، كان الماءُ المغليُّ يرشح إلى وعاء القهوة، ورائحةُ البُنِّ المكثَّفة تتضوَّعُ في أرجاء الشقَّة.

«كم تبدين جميلة» قال لي لكنِّي لا أعتقد أنَّه يُلمِحُ إلى المكياج. لم يبدُ لي يومًا أنَّه قادرٌ على التمييز بين امرأةٍ مُتزيِّنة وامرأةٍ غير مُتزيِّنة. كان كلُّ قصده أنَّ بشرتي تبدو على ما يرام بشكلٍ استثنائيّ، في ذلك الصباح. وبالفعل، أضاف وهو يرتشف من القهوة الساخنة: «أنتِ الأشبَهُ بأماليا من بينكنَّ أنتنَّ الثلاث».

أومأتُ بابتسامة. لم أشأ ترويعه بقصِّ ما حدث لي خلال تلك الليلة. ولم أشأ حتى أن أناقشه بموضوع شبهي بأماليا. كانت الساعة السابعة صباحًا، وكنتُ مجهَدة. قطعتُ قبل نصف ساعةٍ شارعَ فوريا شبه الخاوي، تتخلَّله أصواتٌ طفيفةٌ لدرجة أنِّي سمعتُ تغريد العصافير. كان الهواء منعشًا، ونقيًّا على ما يبدو، والضوء ضبابيٌّ وحائرٌ بين الطقس الجميل والسيِّئ. ولكن ما إن بلغتُ شارع الكاتدرائيَّة حتى تضخَّمت أصوات المدينة، بما فيها أصوات النساء في بيوتهنَّ، وأصبح الهواء أكثر تعكُّرًا وثقلًا. وصلتُ إلى بيته وبيدي كيسٌ بلاستيكيٌّ كبير ملأتُهُ بمحتويات حقيبتَي أمِّي، ففاجأتُهُ إذ كان ببنطلونه المرتخي والمُهمَل، وقميصه الداخليّ على جذعه النحيل، وبَتْرُ ذراعه واضحٌ للعيان. فتح النوافذ على مصراعيْها وسارع إلى تغيير ملابسه. وراح يضغط عليَّ بمقترحات المأكولات: هل أريد الخبز الطازج، هل أريد الحليب للتغميس، هل أريد البسكويت؟

لم أعاند وبدأتُ آكل ما تيسَّرَ لي من هذا وذاك. ترمَّلَ خالي منذ ستَّة أعوام، وكان يعيش وحيدًا مثل كلّ العُجَّز الذين لا أبناء لهم، ونومه قليل. كان سعيدًا لأنِّي هناك، على رغم الساعة الصباحيَّة الباكرة، وكنتُ سعيدةً أنا أيضًا. أردتُ هدنةً من بضع دقائق، وحقيبتي التي تركتُها لديه في الأيَّام السابقة، علَّني أُغيِّرُ ثيابي. وكنتُ أخطِّط للذهاب مباشرةً إلى متجر الأخوات ڤوسّي. لكنَّ الخال فيليبو كان توَّاقًا للمجالسة والدردشة. توعَّدَ كازيرتا بميتاتٍ بشعة. وتمنَّى له أن يتوفَّى بأسوأ الظروف خلال الليل. وتندَّمَ لأنَّه لم يقتله في الماضي. ثم بدأ يقفز عبر وصلاتٍ من

الصعب تحديدها، من قصَّةٍ عائليَّةٍ إلى أخرى بلهجةٍ محلِّيَّةٍ ضيِّقة للغاية. لم يتوقَّف حتى لسحب أنفاسه.

امتنعتُ عن مقاطعته بعد عدَّة محاولات. كان يتذمَّر، ويغضب، عيناه تترقرقان، ويشهق بأنفه. وحين وصل النقاش إلى أماليا، انتقل في دقائق من دفاعٍ محزونٍ عن أخته إلى انتقاداتٍ لا هوادة فيها لأنَّها هجرت والدي. علاوةً على ذلك نسي أن يتحدَّثَ عنها بصيغة الماضي وأخذ يؤنِّبها كما لو أنَّها ما تزال على قيد الحياة أو أنَّها على وشك الخروج من الغرفة المجاورة بكلِّ الأحوال. أماليا ـ راح يصرخ ـ لا تُفكِّر بالعواقب مسبقًا على الإطلاق: لطالما كانت هكذا، كان عليها أن تجلس وتتأمَّل وتتريَّث؛ إلَّا أنَّها استيقظت ذات صباح وغادرت البيت وصحبتكنَّ معها أنتنَّ بناتها الثلاث. ما كان ينبغي لها أن تفعل ذلك، بحسب خالي فيليبو. لاحظتُ سريعًا أنَّه يريد أن يعزو قرارها بالموت غرقًا إلى ذلك الانفصال الذي وقع قبل ثلاثة وعشرين عامًا.

هذا غير معقول. انزعجتُ لكنِّي تركتُهُ يكمل كلامه، لا سيَّما أنَّه كلَّما قُوطِعَ غيَّرَ نبرته من عدائيَّةٍ إلى ودودة، وهُرِعَ للإتيان بمزيدٍ من المرطبانات من الخوان: سكاكر بالنعنع، بسكويت قديم، مُربَّى التوت الأبيض والعَفِن لكنَّه ما زال صالحًا بالنسبة إليه.

وبينما كنتُ أصدُّ مقترحاته أوَّلًا ثم أستسلم وآكل القليل، كان يعاود هجومه بخلط التواريخ والوقائع. هذا حدث في العام 46 أو 47 ـ كان يحاول أن يتذكَّر جاهدًا. ثم يُغيِّر الفكرة ويستخلص: بعد الحرب. بعد الحرب، كان كازيرتا هو الذي

فطن لإمكانيَّة استخدام موهبة أبي لتحسين ظروف العيش. يجب الإقرار من باب النزاهة أنَّ أبي لولا كازيرتا كان سيتابع الرسم بالمجَّان أو يكاد، جبالًا وأقمارًا ونخيلًا وجِمالًا لدكاكين الحيّ. أمَّا كازيرتا، الذي كان ماكرًا، أسمر كالعرب لكنَّ له عينيْن كشيطانٍ لا يهدأ، بدأ بالتعامل مع البحَّارة الأميركيِّين. ليس إتجارًا بالنساء أو بضائع أخرى. كان كازيرتا يعمل على وجه الخصوص مع البحَّارة الذين لوَّعَهم الحنينُ. وعوضًا عن أن يُطلِعَهم هو على صور فتياتٍ للبيع، كان يُضلِّلهم مرارًا ليدفعهم إلى إخراج صورٍ من محفظاتهم لنساءٍ تركوهنَّ في وطنهم. وبعد أن يُحوِّلهم إلى أطفالٍ مهجورين وقلقين، كان يساومهم على السعر ويأخذ الصور إلى أبي ليرسم منها لوحاتٍ زيتيَّة.

أذكر تلك الصور أنا أيضًا. ظلَّ أبي يعمل عليها لسنوات، حتى من دون وساطة كازيرتا. كأنَّ وجوه نساء البحَّارة، من فرط عَبَراتِهم، مُحيَتْ عن الورق. كانت صورًا لأمَّهات، أخوات، خطيبات، كلُّهنَّ شقراوات، كلُّهنَّ مبتسمات، وشعرهنَّ بتسريحة التمويج الدائم، لا شعرةً في غير مكانها، فضلًا عن الحليّ على الأعناق والآذان. كأنَّهنَّ مُحنَّطات. إضافةً إلى أنَّ لمعان الطباعة قد تلف، مثل صورتنا التي تحتفظ بها أماليا، مثل كلّ صورةٍ ينهشها الغيابُ، وغالبًا ما كانت الصور مثنيَّةً عند الزوايا أو مُتعرِّضةً لخدوشٍ بيضاء تمحو الوجوه والمجوهرات والأثواب والتسريحات. كانت أشكالًا مُحتضَرة حتى في مُخيِّلة مَن يحتفظ بها بشوقٍ وإحساسٍ بالذنب. يأخذها والدي من يد كازيرتا ويُعلِّقها على المسند بدبُّوسٍ صغير. ثم يُجسِّدُ على اللوح، بسرعةٍ

شديدة، امرأةً تبدو حقيقيَّة، أُمًّا أو أختًا أو زوجةً تتنهَّدُ أكثر ممَّا تجعل المشتاق إليها يتنهَّد. الصدوع تختفي، الأبيض والأسود يصبحان لونًا، مُتجلِّيًا. وهكذا يُنْجَزُ هذا المكياجُ لدعم الذاكرة ببراعةٍ كافيةٍ لإسعاد رجالٍ هائمين وبائسين. وكان كازيرتا يمرُّ ليأخذ البضاعة، ويترك بعض النقود وينصرف.

وهكذا ـ يروي خالي ـ تغيَّرَت حياتنا خلال ظرفٍ قصير. بتنا نأكل كلَّ يوم بفضل نساء البحَّارة الأميركيِّين. وهذا يشمله هو أيضًا، لأنَّه كانَ بلا عملٍ حينئذٍ. كانت أمِّي تُمرِّر له قليلًا من المال، ولكنْ بموافقة والدي. أو ربَّما خلسةً عنه. بكافَّة الأحوال، وبعد أعوامٍ من الحرمان، صار كلُّ شيءٍ يجري على نحوٍ أحسن. ولو كانتْ أماليا أحرَصَ على توخِّي العواقب، ولو لم تتدخَّل بما لا يعنيها، فمَن يدري أين كان سينتهي بهم المطاف. في العلالي، على حدِّ زعم خالي.

فكَّرتُ بذلك المال وبأمِّي مثلما كانت تظهر هي الأخرى في صور ألبوم العائلة: عمرها ثمانية عشر عامًا، بطنُها مُقوَّسٌ بسبب حضوري في أحشائها، واقفةً على قدميْها، في الهواء الطلق، في إحدى الشرفات؛ وفي الخلفيَّة دائمًا ما تبدَّى جزءٌ من ماكينة الخياطة خاصَّتها من طراز سنغر. ومن المحتمل أنَّها ما توقَّفت عن الدوس على تلك الآلة إلَّا ليُصوِّرَها أحدهم؛ وإنَّني واثقةٌ من أنَّها بعد تلك اللحظة مباشرةً كانت تستأنف عملها منحنية الظهر، من دون أيّ صورةٍ تلتقطها أبدًا في ذلك البؤس والشقاء المشترك، من دون ابتسامةٍ، من دون نظراتٍ لامعة، من دون شَعرٍ مُسَرَّحٍ يُظْهِرَها بهيئةٍ أجمل. أعتقد أنَّ خالي لم يُفكِّر البتَّة في المساهمة

الآتية من عمل أماليا. حتى أنا لم أفكّر في الأمر يومًا. هززتُ رأسي، مستاءةً من نفسي: كنتُ أكره الحديث عن الماضي. لذا، حين كنتُ أعيش مع أمّي، لم أرَ أبي أكثر من عشر مرّات في المجمل، وقد أجبرتني هي على ذلك. ومنذ أن انتقلتُ إلى روما، لم أرَهُ سوى مرّتيْن، أو ثلاث. كان ما زال يعيش في البيت الذي وُلِدتُ فيه، غرفتان ومطبخ. يمضي كلَّ يومه جالسًا، يرسم مناظر مبتذلة للخليج أو للبحر المائج لمصلحة معارض رسم في القرى. لطالما جنى قوت يومه بهذا الشكل، مُتحصِّلًا على فلوسٍ زهيدة من سماسرة مثل كازيرتا، ولم يكن يطيب لي أن أراه محبوسًا في تكرار الحركات نفسها، والألوان نفسها، والأنماط نفسها، والروائح نفسها التي أعرفها منذ الطفولة. لم أكن أطيق خصوصًا أن يطلعني على أفكاره المتخبِّطة مُمطِرًا أماليا بالشتائم، ومُستخفًّا بكلِّ مزاياها.

كلَّا، لم يعد يعجبني أيُّ شيءٍ من الماضي. قطعتُ صلتي نهائيًّا بجميع أقاربي لئلَّا يتحسَّروا في كلِّ لقاءٍ على حظِّ أماليا العاثر، بلهجتهم المحلِّيَّة، ويكيلوا الشتائم السوقيَّة المتوعِّدة بحقّ والدي. لم أُبْقِ على صلةٍ إلَّا به، بالخال فيليبو. التقيتُهُ على مرِّ الأعوام، لا باختيارٍ منِّي، بل لأنَّه كان يظهر في البيت على حين غرَّة ويتشاجر مع شقيقته. بعنفٍ شديد، بصوتٍ مرتفع، ومِن ثَم يتصالحان. كانت أماليا مُتعلِّقةً للغاية بشقيقها الوحيد الأهوج هذا، المنبطح منذ شبابه لزوجها وكازيرتا. وكانت بشكلٍ أو بآخر مسرورةً من أنَّه ما زال يتردَّد إلى أبي ثم يجيء إليها لينقل لها أخباره، وأفعاله، وآخِر أعماله. أمَّا أنا، وعلى الرَّغم من أنِّي

كنتُ أشعر باستلطافٍ مُتجذِّرٍ تجاه جسده الهالك وعدوانيَّته التي تجعله أشبَهَ برجل مافيا مُتبجِّحٍ أستطيع إطاحته بلكمةٍ واحدة لو أردتُ، كنتُ أفضِّلُ أن يتلاشى هو أيضًا أسوةً بما حدث بأخوالٍ وأعمام أخوال آخرين. كنتُ أستصعب تأييد موافقته لأبي ومعارضته لأمِّي. فهو شقيقها، وقد رآها مئة مرَّة مُتورِّمةً من الصفعات واللكمات والركلات. ومع هذا لم يُحرِّك إصبعًا لمساعدتها. وما زال منذ خمسين عامًا يُؤكِّد على تضامنه مع نسيبه، بلا أيِّ تنازلات. ولم أتمكَّن من الإصغاء إليه دون توجُّسٍ إلَّا قبل بضعة أعوام. أمَّا حين كنتُ صبيَّةً لم أكن أطيق انحيازه بهذه الطريقة. فكنتُ أسدُّ أذنيَّ بإصبعيَّ ما إن يبادر إلى الكلام كي لا أسمعه. وربَّما لم أكن أتسامح مع جانبٍ خفيٍّ من شخصيَّتي يستعين بتضامنه ذاك ليُعزِّزَ فرضيَّةً أُذكِّيها بخفاءٍ أعمق: وهي أنَّ أمِّي تحمل إثمًا طبيعيًّا منحوتًا في جسمها، وخارجًا عن إرادتها وعمَّا تفعله في الواقع، قد يظهر عند الضرورة في أيِّ حركة، في أيِّ تنهيدة. «أهذا القميص لك؟» سألتُهُ كي أغيِّرَ الموضوع، وأخرجتُ من أحد الأكياس البلاستيكيَّة ذاك القميص الأزرق الذي عثرتُ عليه في بيت أماليا. بحيث انتزعتُ الكلمة من فمه فظلَّ مُشتَّتًا لوهلة، بعينيْن جاحظتيْن وشفتيْن مواربتيْن. ثم تفحَّصَ القميص طويلًا وبوجهٍ منقبض. لكنَّه كان يرى أو يكاد من دون نظَّارة: إنَّما فعلها ليُهدِّئ روعه بعد الانفعال ويُعدِّلَ هيئته.

«لا» قال «لم يكن لديَّ قميص كهذا مطلقًا».

رويتُ له أنِّي وجدتُ القميص في بيت أماليا بين الثياب الوسخة ويا ليتني لم أخبره.

«لمن إذًا؟» سألني مستأنفًا انفعاله، كما لو أنّي لم أكن أرجو معرفة ذلك منه تحديدًا. حاولتُ أن أشرح له بأنّي لا أعرف ولكنْ عبثًا. أعاد إليَّ القميص كأنّه موبوءٌ، وعاود الهجوم الشرس منتقدًا شقيقته.

«لطالما كانت كذلك» استشاط غضبًا من جديد مُتحدِّثًا بالعامِّيَّة «ألا تتذكَّرين قصَّة الفاكهة التي كانت تصلها إلى البيت يوميًّا ومجَّانًا؟ كانت تنبهر: لا تعرف لا كيف ولا متى. وماذا عن الديوان والإهداء؟ والأزهار؟ ومعجَّنات الإسفولياتيلّا في كلِّ صباح عند الثامنة بالضبط؟ ألا تتذكَّرين الفستان؟ هل من المعقول أنَّكِ لا تتذكَّرين شيئًا؟ مَن اشترى لها ذلك الفستان، على مقاسها تمامًا؟ كانت تقول إنَّها لا تعرف شيئًا عن الموضوع. ورغم هذا ارتدتْهُ للمشاوير، من وراء ظهر أبيكِ، ومن دون أن تخبره بالأمر. اشرحي لي أنتِ لماذا فعلتْ ذلك».

لاحظتُ أنَّ خياله ما زال يرى أماليا على أنَّها غامضة نوعًا ما بقدر ما كانت عليه حقًّا. مثلما حين أمسكها أبي من عنقها وظلَّت آثار الكدمات على جلدها، وقالت لنا، نحن البنات: «أبوكنَّ هكذا. لا يعرف ما يفعل وأنا لا أعرف ما أقول». لكنَّنا من جهتنا كان يخطر لنا أن يخرج أبونا من البيت ذات صباح، ويموت محترقًا أو مدهوسًا أو غريقًا، جزاءً على كلِّ ما كان يفعله بحقِّها. كان يخطر لنا ذلك، وكنَّا نكرهها لأنَّها السبب في هذه الخواطر. لم يكن لدينا شكٌّ حول هذا، ولم أنسَهُ يومًا.

لم أنسَ أيَّ شيء لكنِّي لم أشأ أن أتذكَّر شيئًا. كان بوسعي عند الضرورة أن أروي لنفسي كلَّ الأحداث، بالتفصيل المملّ،

ولكنْ ما الذي سأجنيه؟ لم أكن أروي لنفسي إلَّا ما أراه نافعًا، بحسب الحالات، مُتَّخذةً قراري حسبما تقتضيه الظروف في كلِّ مرَّة. فالآن، على سبيل المثال، أرى الدرَّاق المهروس على الأرض، والورود المخبوطة بطاولة المطبخ عشر مرَّات أو عشرين، وبتلاتها الحمراء تتناثر في الهواء حولها، وسيقانها الشوكيَّة ما تزال ضمن الورقة الفضِّيَّة، والحلويَّات المرميَّة من النافذة، والفستان المحروق على نار المطبخ. كنتُ أشمُّ الرائحة المثيرة للغثيان التي تنبعث من القماش إذا نسينا فوقه المكواةَ المستعرة، وكنتُ أخاف.

«كلَّا، لا تتذكَّرن ولا تعرفن شيئًا» قال خالي كما لو أنَّني في تلك اللحظة هناك أُمثِّلُ شقيقتيَّ أيضًا. أراد أن يرغمني على التذكُّر: ألا نعلم أنَّ والدي ما بدأ يضربها إلَّا حينما اعترضت على رغبته في التخلِّي عن كازيرتا وبورتريهات الأميركيِّين؟ ما كان ينبغي لأماليا أن تحشر أنفها في هذا الموضوع. إلَّا أنَّ آفتها كانت في حشر أنفها في كلِّ شيء، دون احتساب. كان أبي قد ابتكر غجريَّةً ترقص عاريةً. أطلَعَها على رجلٍ يترأَّس شبكةً من باعةٍ مُتجوِّلين يضربون في طرقات المدينة والضاحية لبيع مشاهد من الريف والبحر المائج. وكان الرجل، الذي يُسمِّي نفسه مليارو ويجرُّ خلفه ابنه المُعوجَّ الأسنان على الدوام، قد اعتبر الغجريَّةَ مُناسِبةً لإحداث ضجَّةٍ كبرى في عيادات الأطبَّاء وأطبَّاء الأسنان. قال له إنَّه مستعدٌّ لإعطائه على تلك الغجريَّات نسبةً مئويَّةً

أعلى من التي يعطيها له كازيرتا كثيرًا. لكنَّ أماليا أبدت اعتراضها، لم تشأ له أن يترك كازيرتا، لم تشأ له أن يرسم الغجريَّات، لم تشأ حتى أن يُطلِعَها على مليارو.

«لا تتذكَّرن ولا تعرفن» ردَّد خالي بمرارةٍ عليَّ كيف مرَّ ذلك الزمان الذي بدا له جميلًا وتبدَّدَ من دون أن يهب الثمار الذي وعد بها.

فسألتُهُ حينذاك ما الذي حدث لكازيرتا بعد القطيعة مع أبي. مرَّت في عينيْه كثيرٌ من الإجابات الغاضبة الممكنة. ثم قرَّرَ أن يتجنَّبَ أشدَّها عنفًا، وأكَّدَ باعتزازٍ أنَّ كازيرتا لقي ما يستحقّه على يدهما.

«أنتِ أخبرتِ أباكِ بكلِّ شيء. فاستدعاني أبوكِ لنقتله. ولو حاول أن يردَّ لقتلناه بالفعل».

كلُّ شيء. أنا. لم يعجبني ذلك التلميح ولم أشأ أن أعرف عن أيّ «أنتِ» يتحدَّث. تجاهلتُ أيَّ صوتٍ من شأنه أن يُكوِّنَ اسمي باعتبار أنَّه لا يمكن التلميح إليَّ بأيِّ شكل. نظر إليَّ مُستفهِمًا، وإذ رآني لامبالية هزَّ رأسه مُستنكِرًا من جديد.

«لا تتذكَّرين شيئًا» ردَّدَ مُحبَطًا. وراح يروي لي عن كازيرتا. فبعد ما وقع له، أصابه الذعر واستوعب الأمر. باع المقهى ـ المخبز شبه المفلس الذي كان لأبيه وهجر الحيَّ مع زوجته وابنه. وبعد ذلك انتشرت شائعةٌ تقول بأنَّه أصبح يتاجر بالأدوية المسروقة. ثم قيل بأنَّه جمع الأموال التي جناها من ذلك العمل المشبوه واستثمرها في مطبعة. وهو أمرٌ غريب لأنَّه لم يكن

طبَّاعًا. يفترض خالي أنَّه كان يطبع أغلفةً لأسطواناتٍ مزوَّرة. وبكلِّ الأحوال، اندلع حريقٌ في المطبعة ذات مرَّة ليحيلها إلى رماد، ورقد كازيرتا بعض الوقت في المستشفى بسبب حروقٍ في ساقيْه. ومنذ ذلك الحين لم يعد يعرف عنه شيئًا. ظنَّ أحدهم أنَّه صار ميسور الحال بتعويضات التأمين، لذا انتقل إلى مدينةٍ أخرى. وقال آخرون إنَّه انتقل من طبيبٍ إلى طبيب بعد تلك الحروق، ولم يُخرِجوه بعد: لا بسبب تضرُّر الساقيْن إنَّما بسبب اللوثة التي أذهبت عقله. لطالما كان هذا الرجل غريب الأطوار: يُقال إنَّه حينما شاخ أمسى أغرب من قبل. هذا كلُّ شيء. لا يعرف الخال فيليبو أكثر من ذلك عن كازيرتا.

سألتُهُ عن اسمه: بحثتُ في دليل الهاتف لكنِّي وقعتُ على مئاتٍ كنيتُهُم كازيرتا. مكتبة سُر مَن قرأ

«إيَّاكِ أن تبحثي عنه» قال لي، عابسًا من جديد.

«لا أبحث عنه» كذبتُ «أريد أن أقابل أنطونيو، ابنه. كنَّا نلعب معًا ونحن صغار».

«غير صحيح. أنتِ تريدين مقابلة كازيرتا».

«سأسأل أبي» لمع في ذهني هذا الردّ حينذاك.

نظر إليَّ مندهشًا، كما لو كنتُ أماليا.

«تتعمَّدين ذلك» غمغم. وقال بصوتٍ منخفض: «نيكولا. اسمه نيكولا. ولكن من غير المجدي أن تبحثي عنه في الدليل: كازيرتا لقب. أمَّا كنيتُهُ الحقيقيَّة فهي موجودةٌ في رأسي هنا ولكنِّي لا أتذكَّرها».

بدا أنَّه يعصر رأسه حقًّا، لإرضائي، لكنَّه سرعان ما استسلم خائبًا: «كفى، عودي إلى روما. وإن كان لديك نيَّةٌ برؤية أبيكِ بالفعل، فلا تخبريه بشأن هذا القميص على الأقلّ. فإنَّه حتى هذا اليوم قد يقتل أمَّكِ على شيءٍ كهذا».

«لم يعد بوسعه إيذاؤها» ذكَّرتُهُ. لكنَّه سألني كأنَّه لم يسمعني:

«هل تريدين المزيد من القهوة؟»

X

لم أغيِّر ثيابي. بقيتُ بطقمي الداكن والمغبرّ والمتجعِّد. وبالكاد انتهزتُ فرصةً لأستبدل السدَّادة القطنيَّة. لم يترك لي الخال فيليبو دقيقةً من دون مجاملاته وفيض ثورانه الغاضب. وعندما قلتُ إنَّه لا بدَّ لي من الذهاب إلى متجر الأخوات ڤوسّي لأشتري ألبسة داخليَّة، ارتبكَ وصمتَ قليلًا. ثم تطوَّعَ لمرافقتي إلى الحافلة.

كان النهار يزداد كآبةً، لا هواء فيه، وجاءت الحافلةُ مكتظَّةً بالركَّاب. قيَّمَ خالي الزحام وقرَّرَ أن يصعد معي ليحميني ـ قال ـ من النشَّالين والرعاع. شغَرَ مقعدٌ في الخلف لحسن الحظّ: قلتُ له بأن يجلس لكنَّه أبى. فجلستُ وبدأت الرحلةُ المضنيةُ، عبر مدينةٍ بلا ألوان، مُتعسِّرة باختناقاتٍ مروريَّة. وكانت الحافلة تغصُّ برائحة النشادر الثاقبة، ويحوم فيها زغبٌ يَخِزُ الأنوف تسرَّبَ من النوافذ المفتوحة لا أحد يدري متى. استطاع خالي أن يُهاتِرَ رجلًا

لم يتنحَّ كفايةً عندما طلبتُ منه المرور لبلوغ المقعد الشاغر، ثم شابًّا كان يُدخِّنُ على الرَّغم من المنع. وعامله كلاهما باحتقارٍ مُتوعِّدٍ لا يضع أيَّ حسبانٍ لأعوامه السبعين أو ذراعه المبتورة. سمعتُهُ يلعن ويُهدِّد، بينما كان يدفعه الزحامُ بعيدًا عنِّي نحو وسط المركبة.

بدأتُ أتعرَّق. كنتُ أجلس عالقةً بين سيِّدتيْن عجوزتيْن تُحدِّقان إلى الأمام بصلابةٍ غير طبيعيَّة. كانت الأولى تحتفظ بحقيبتها الصغيرة تحت إبطها؛ والأخرى تضغطها على بطنها، يدُها على الإبزيم وإبهامُها في خاتمٍ موصولٍ بمغلاق السحَّاب. وكان الركَّاب الواقفون ينحنون علينا ويزفرون فوقنا. والنساء يختنقن بين الأجساد الذكريَّة، ويتأفَّفن من ذلك الاكتظاظ العَرَضيّ، المزعج على الرَّغم من أنَّه يبدو بريئًا. كان الذكور في الزحام ينتهزن الإناث ليلعبوا لعبةً صامتةً في سرِّهم. أحدهم يُثبِّتُ عينيْه المتهكِّمتيْن إلى فتاةٍ سمراء ليرى إن كانت ستُخفِض أنظارها أم لا. وأحدهم يتفرَّسُ في قماشةٍ مُخرَّمة بين زرٍّ وآخر في قميص إحداهنَّ أو يصيب بأنظاره شيَّالة بنطلون. وآخرون يمضون الوقت بالتلصُّص من النافذة على السيَّارات لالتقاط أجزاء من سيقانٍ مكشوفة، أو لمتابعة لعبة العضلات عندما تدوس الأقدامُ على المكبح أو الدوبرياج، أو حركة شاردة لحكّ باطن الفخذ. ثمَّة رجلٌ ضامرٌ ونحيل، دفعَهُ الذين خلفه فسعى إلى تلامُسٍ طفيفٍ بركبتيَّ وكان يزفر في شعري أحيانًا.

التفتُّ نحو النافذة الأقرب، بحثًا عن هواء. كنتُ أقطع هذا المسار نفسه بالترام، عندما كنتُ صغيرة، صحبة أمِّي، وكانت

العربة تصعد التلَّ بمشقَّة، مُصدِرَةً ما يشبه نهيق حمارٍ حزين، بين أبنيةٍ قديمة ورماديَّة، حتى ظهور قطعة من البحر إذ كنتُ أتخيَّلُ أنَّ الترام يُبحِرُ عليها. كان زجاج النوافذ يهتزُّ في إطاره الخشبيّ. وتهتزُّ الأرضيَّة أيضًا، وتنقل للجسد ارتجافًا مُحبَّبًا كنتُ أتركه يمتدُّ إلى أسناني، أرخي فكِّيَّ قليلًا لأحسَّ باصطكاك صفِّ أسنانٍ على الآخر.

كانت تلك الرحلة تُعجبني، بالترام ذهابًا، وبالترام الجبليّ إيابًا: الماكينات البطيئة نفسها، بلا توتُّر، أنا وهي لا غير. وكان ثمّة مقابض متينة مُعلَّقة على المسند بأربطةٍ جلديَّة، تتأرجح في الأعلى. وإذا تمسَّكَ بها المرء بثقل جسمه، كانت تُبرِزُ في الجانب المعدنيّ فوقها كتاباتٍ ورسوماتٍ مُلوَّنة، أحرفًا وصورًا تختلف على وقع كلِّ هزَّة. كانت المقابض تعرض إعلانات الكروماتين، والأحذية، وشتَّى أنواع البضائع في متاجر المدينة. وعندما لا تكتظُّ العربة، كانت أمِّي تترك أغراضها بورق التغليف على المقعد وتحملني بذراعها لتجعلني ألعب بالمقابض.

ولكن، عندما تكتظُّ، تُمنَعُ كلُّ أنواع التسالي. كان يراودني حينذاك هوسٌ بوقاية أمِّي من أيِّ تماسٍّ بالرجال، مثلما رأيتُ أبي يفعل دومًا في هذه الحالة. أُقدِّمُ نفسي درعًا لظهرها وأربض كالمصلوبة على ساقيْها، جبيني على مستوى ردفيْها، وذراعاي مبسوطتان، ويدي ممسكةٌ بالمسند الحديديّ الأيمن للمقعد والأخرى ممسكةٌ بالمسند الأيسر.

جهدٌ بلا طائل، من الصعب احتواء جسد أماليا. كانت خاصرتاها تتمدَّدان إلى الممرِّ نحو خواصر الرجال الذين على

جانبها؛ وكانت ساقاها وبطنها تنتفخان نحو ركبة مَن يجلس أمامها أو كتفه. أو ربَّما كان يحدث العكس. كان الرجال هم الذين يلتصقون بها كما يلتصق الذباب بالأوراق الدبقة والمصفرَّة التي تتدلَّى في المجازر، أو أعلى مصاطب اللحَّامين عموديًّا، ممتلئةً بالحشرات الميِّتة. وكان من الصعب إبقاؤهم بعيدًا بالركل أو اللكز. كانوا يطبطبون على رقبتي ويقولون لأمِّي: «سيهرسون هذه الطفلة الجميلة». أراد أحدهم أن يحملني بذراعه، لكنِّي رفضتُ. وكانت أمِّي تضحك وتقول: «تعالي إلى هنا، اقتربي». وكنتُ أمانع، بقلقٍ كبير. كنتُ أشعر أنَّهم سيختطفونها منِّي إذا تراخيتُ، وأنَّني سأبقى بمفردي مع والدي الساخط.

كان يحميها من الذكور الآخرين بعدوانيَّةٍ لا أدري إن كانت ستهرس الخصوم أم سترتدُّ عليه أيضًا لتفتك به. كان رجلًا لا يسرُّه شيء. ربَّما لم يكن كذلك على الدوام لكنَّه أصبح حانقًا منذ أن كفَّ عن التسكُّع بالحيِّ ليتدبَّرَ أمرَه بتزيين مصاطب المحلَّات أو العربات مقابل الغذاء، وانتهى به المطاف للرسم على قماشٍ لم يُثبَّتْ بعدُ في الأُطُر، مناظر رعويَّة، وبحريَّة، وطبيعة ميِّتة، ومناظر من ثقافاتٍ بعيدة لجحافل من الغجريَّات. ومن يدري كيف كان يتصوَّر مصيره، كان يستشيط غضبًا لأنَّ أحوال الحياة لا تتبدَّل، ولأنَّ أماليا لا تعتقد أنَّها ستتبدَّل، ولأنَّ الناس لا يُشجِّعونه بالقدْر المطلوب. وما انفكَّ يُردِّدُ ـ ليُقنِعَ نفسه ويُقنِعها ـ أنَّ الحظَّ ابتسم لأمِّي حينما تزوَّجتْهُ. فهي السمراء إلى حدِّ السواد، لا يُعرَفُ لدمها أصل. بخلافه هو، إذ كان أبيض وأشقر، كان يحسَبُ أنَّ دمَهُ أعزُّ. وعلى الرَّغم من تكراره إلى حدِّ

الغثيان للألوان نفسها، والمواضيع نفسها، والأرياف نفسها والبحار نفسها، كان يشطح في تعداد إمكانيَّاته بلا وازع. وكنَّا نحن بناته نشعر بالخزي منه ونظنُّ أنَّه قد يؤذينا مثلما كان يُهدِّد بالأذى أيَّ رجلٍ يجرؤ على لمس أمّنا. كنَّا نخاف عندما يصحبنا بالترام. إذ كان يراقب الرجال خاصَّةً، الصغار والسمر، ذوي الشعر المجعَّد والشفاه الممتلئة. كان يعزو إلى ذلك النوع الأنثروبولوجيّ الميولَ لخطف جسد أماليا؛ لكنَّه ربَّما كان يظنُّ أنَّ أمّنا هي التي تنجذب إلى تلك الأجساد العصبيَّة، المربوعة، القويَّة. اقتنع ذات مرَّة أنَّ رجلًا تحسَّسَها في الزحام. فصفعها على مرأى الجميع: على مرآنا. أُصِبتُ بدهشةٍ مريرة. كنتُ واثقةً أنَّه كان سيصرع الرجل، فلم أفهم لماذا صفعها هي. وحتى الآن لا أدرك السبب الذي دفعه إلى هذا. ربَّما ليعاقبها لأنَّها تعرَّضت لحرارة جسد ذلك الرجل على قماشة ثوبها، على جلدها.

XI

حين علقنا في ذروة الازدحام بشارع سالڤاتور روزا، اكتشفتُ أنَّني لم أعد أشعر بأيِّ استلطافٍ تجاه مدينة أماليا، ولا لغتها التي كانت تخاطبني بها، ولا الطرقات التي قطعتُها في صباي، ولا الناس. وعندما ظهرت على مرآي قطعةٌ من البحر في لحظةٍ معيَّنة (نفسها التي كانت تُثيرني في طفولتي)، بدت لي مثل ورقة تغليفٍ بنفسجيَّةٍ ملصقةً على جدارٍ مُتصدِّع. عرفتُ آنذاك أنِّي كنتُ أفقد أمِّي نهائيًّا وأنَّ هذا بالضبط ما كنتُ أبتغيه.

كان متجر الأخوات ڤوسِّي في ميدان ڤانڤيتلّي. وغالبًا ما كنتُ في شبابي أقف أمام واجهاته، التي كانت مُتَّزنة، وزجاجها غليظٌ ضمن أُطُرٍ من خشب الأكاجو. وكان للمدخل بابٌ قديمٌ نصفه زجاجيٌّ وعلى قوسه نُقِشَت الماركة VVV، وتاريخ الإنشاء: 1948. ولم أكن أعرف ما الموجود وراء الزجاج، الذي كان غبشًا: لم تقتضِ عليَّ الضرورة ولم يتسنَّ لي المال لأدخل

وأستكشف. وقفتُ مرَّاتٍ كثيرة في الخارج، خاصَّةً لأنِّي كنتُ أحبُّ الواجهة القائمة عند الزاوية، حيث كانت الألبسة النسائيَّة ـ بشكلٍ غير مُتعمَّد ـ معروضةً تحت رسمةٍ ما كنتُ قادرةً على تحديد تاريخها، ولا شكَّ أنَّها من صنع يدٍ خبيرة: امرأتان، يتراكب مقطعهما الجانبيّ أو يكاد، متقاربتان كثيرًا ومشغولتان بالحركة نفسها، تركضان بفمٍ مفتوح، من يمين اللوحة إلى شِمالها. وليس بالإمكان تحديد ما إذا كانتا تُطارِدان أم كانتا مُطارَدَتَيْن. وتبدو الصورة مُقتَطَعةً من مشهدٍ أوسع، بحيث إنَّ الساق اليسرى لكلتا المرأتيْن لا تُرى، وأذرعهما الممدودة بلا معصم. حتى أبي كان معجبًا باللوحة، وهو الذي لطالما انتقد كلَّ ما رسمه الإنسان عبر العصور. كان يُبدِع في نسب لوحاتٍ إلى رسَّامين بلا أيّ مرجعيَّة، كأنَّنا لم نكن على درايةٍ بأنَّه لم يتتلمذ في أيِّ مدرسةٍ من أيّ نوع، وأنَّ معلوماته حول الفنّ ضحلةٌ وشحيحة، وأنَّه ليس ناجحًا إلَّا في رسم غجريَّاته ليلًا نهارًا. لا بل إنَّه عندما ترتفع معنويَّاته ويكون مستعدًّا للتبجُّح أمامنا نحن بناته أكثر من المعتاد، كان ينسب تلك الرسمة إلى نفسه.

لم تتسنَّ لي فرصةٌ لصعود التلّ منذ عشرين عامًا على الأقلّ، وكنتُ أذكر ذلك المكان مختلفًا عن باقي أنحاء المدينة، لأنَّه كان مُنظَّمًا وهواؤه منعش، يقع على بُعد خطوات عن دير سان مارتينو. وسرعان ما انزعجتُ. بدا لي الميدان مُتغيِّرًا، أشجار الدلب فيه غدت نادرةً وهزيلة، وقد التهمتْهُ صفائح السيَّارات، رازحًا تحت أرجوحةٍ عملاقة من دعاماتٍ حديديَّة مطليَّةٍ بالأصفر. كنتُ أذكر نخيلًا يبدو لي في منتهى العلوّ، في وسط الميدان في

الماضي. وآنذاك ثمَّة نخلةٌ قزمة، سقيمة، محاصَرةٌ بالحواجز الرماديَّة لأشغالٍ قيد التنفيذ. حتى إنِّي لم أستطع تحديد موقع المتجر من الوهلة الأولى. تبعني خالي الذي ما زال يواصل شجاره مع أفراد الحافلة المريبين، على الرَّغم من أنَّ المشكلة قد حدثت قبل ساعة. طفتُ في مدار ذلك المجال المغبرّ، الضوضائيّ، المنكوب بحفَّارات الضغط وأبواق المركبات، تحت غيوم من سماءٍ تبدو أنَّها تريد أن تمطر ولا تستطيع. توقَّفتُ في النهايَة أمام دمًى نسائيَّة صلعاء وعارية إلَّا من السراويل وحمَّالات الصدور، معروضةً بشكلٍ مدروسٍ بوضعيَّاتٍ جسورة، بل سوقيَّة. واجهتُ صعوبةً في تحديد ماركة ڤوسّي على قوس الباب، وهي الشيء الذي ظلَّ على حاله، ما بين مرايا وجوانب معدنيَّة مُذهَّبة وموادّ بألوان مُشعّة. حتى اللوحة التي كانت تعجبني أُزيلَت من مكانها.

نظرتُ إلى الساعة: العاشرة والربع. كان الزحام محتدمًا حتى إنَّ الميدان ـ بما فيه من أبنيةٍ وعَمَدٍ رماديٍّ وبنفسجيٍّ، وغيوم الضجيج والغبار ـ بدا مثل لعبة الخيول الدوَّارة. رمى الخال فيليبو نظرةً إلى الواجهة الزجاجيَّة وسرعان ما التفت إلى ناحيةٍ أخرى خجلًا: كثيرٌ من السيقان العريضة، كثيرٌ من النهود، راودتْهُ على إثر تلك الرؤية أسوأُ الخواطر. قال إنَّه سينتظرني عند الزاوية، مؤملًا أن أتعجَّل. ففكَّرتُ أنَّني لم أتوسَّل منه المجيء معي إلى هناك، ودخلتُ.

كنتُ أتخيَّلُ أنَّ متجر ڤوسّي من الداخل غارقٌ في العتمة، وأنَّه فيه ثلاث عجائز لطيفات بأثوابٍ طويلة وأطواقٍ كثيرةٍ من

الخرز، وشعرٍ مضمومٍ بعقدةٍ مُثبَّتةٍ بملاقط من زمنٍ ولَّى. فإذا أنا أجد محيطًا مضاءً بأبَّهةٍ باذخة، وزبوناتٍ صاخبات، ودمى نسائيَّة بتنانير داخليَّة من الساتان، وجذوع مُتعدِّدة الألوان، وجوارب حرير، ومصاطب وولائم عامرة بالبضائع الفاخرة، وعاملات في مقتبل العمر، مُتبرِّجاتٍ بإفراط، كلُّهنَّ بطقمٍ مُوحَّدٍ متناسقٍ جدًّا، لونه أخضر باهت، وشعار المتجر مُطرَّزٌ على الصدر.

«أهذا متجر الأخوات ڤوسّي؟» سألتُ إحداهنَّ، ألطفَهنَّ على ما يبدو، وربَّما لم تكن مرتاحةً بالطقم.

«أجل. هل من خدمة؟»

«ألا يمكنني التحدُّث مع إحدى الأخوات ڤوسّي؟»

نظرت إليَّ الفتاة مرتبكةً.

«لم يعدنَ هنا منذ زمن» قالت.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«هل توفِّين؟»

«لا، لا أظنّ. لقد تقاعدن».

«هل تنازلن عن المتجر؟»

«بلغن سنَّ الشيخوخة، وبِعنَ كلَّ شيء. والآن توجد إدارةٌ جديدة، لكنَّها حافظت على الماركة. هل حضرتكِ زبونة قديمة؟»

«أمِّي» قلتُ. وبدأتُ أُفرِغُ الكيس البلاستيكيّ الذي أتيتُ به معي، ببطء، فأخرجتُ السراويل، والتنُّورة الداخليَّة، والفستانيْن، والسراويل الخمسة التي وجدتُها في حقيبة أماليا، وفردتُ كلَّ الأغراض على المصطبة «أعتقد أنَّها اشترتها جميعًا من هنا».

ألقت الفتاة نظرةً فاحصة.

«أجل، هذه بضاعتنا» قالت بنبرةٍ استجوابيَّة. أحسستُ أنَّها كانت تحاول تقييم عمر والدتي اعتمادًا على العمر الذي يبدو عليَّ.

«ستُتمُّ أعوامها الثلاثة والستِّين في يوليو» قلتُ. ثم تبادَرَ إلى ذهني أن أكذب: «لم تشترِها من أجلها. كانت هدايا من أجلي أنا، بمناسبة عيد ميلادي. لقد أتممتُ خمسةً وأربعين عامًا في يوم 23 مايو الماضي».

«تبدين أصغر بخمسة عشر عامًا على الأقلِّ» قالت الفتاة مُحاوِلةً أداء مهنتها.

شرحتُ لها بنبرةٍ جذَّابة:

«إنَّها ألبسةٌ جميلة، تناسب ذوقي. سوى أنَّ هذا الفستان يشدُّ عليَّ قليلًا والسروال ضيِّق».

«هل تريدين تغييرهما؟ يلزمنا الإيصال».

«ليس لديَّ إيصال. لكنَّها اشترت الألبسة من هنا. ألا تتذكَّرين أمِّي؟»

«لا أعتقد. تدخل إلينا أعدادٌ كبيرةٌ».

رميتُ نظرةً على الأشخاص الذين ألمحت إليهم البائعة: نساءٌ يصرخن بلهجةٍ محلِّيَّةٍ مُثقَلة بفرحةٍ قسريَّة، يضحكن بصفاقة، مكتسيات بالمجوهرات الباهظة الأثمان، يخرجن من المشلح بالسروال وحمَّالة الصدر أو بزيٍّ سباحةٍ قصيرٍ ومُرقَّطٍ كجلد الفهد، مُزركشٍ بألوان الذهب والفضَّة، يتباهين بلحومٍ بدينةٍ

ومُحزَّزةٍ جرَّاء تجعُّدات التمدُّد الجلديّ أو التهاب الهلل، يُطِلنَ النظر في عاناتهنَّ وأردافهنَّ، يرفعن أثداءهنَّ بمَغَارِفِ أكفِّهنَّ، يتجاهلن البائعات ويتوجَّهن بتلك الوضعيَّات إلى ما يشبه حارس أمن النوادي الليليَّة، رجلٌ أنيق الهندام ومُسمرُّ البشرة، زُرِعَ هناك عمدًا ليُوجِّهَ مجرى أموالهنَّ ويُهدِّدَ بنظراته البائعات المتكاسلات.

ليست هذه نوعيَّة الزبائن التي تصوُّرتها. فهؤلاء النساء يبدون زوجات رجالٍ أصبحوا أثرياء بين عشيَّةٍ وضحاها، ومن دون عناء، فاقتادوهنَّ إلى رفاهٍ مرحليٍّ فأُرغِمنَ على التمتُّع به بثقافتهنَّ المتدنِّية إلى مستوى قبوٍ رطبٍ ومكتظّ، مستوى قصصٍ مُصوَّرةٍ شبه إباحيَّة، مستوى البذاءات المُستَخدَمة على سبيل الحشو. نساءٌ مُحتَجزات في مدينة ـ مُعتَقل، وقد أفسدهنَّ الشقاء فيما مضى، والآن يُفسِدهنَّ المال، دون انقطاع. وإذ سمعتُهنَّ ورأيتُهنَّ، شعرتُ أنَّني أغدو مُتزمِّتة. كُنَّ يتصرَّفن مع ذلك الرجل مثلما كان والدي يتخيَّل أنَّ النساء يتصرَّفن عمومًا، مثلما تخيَّلَ أنَّ زوجته تتصرَّف حالما يولي لها ظهره، مثلما حلمت أماليا مرارًا أن تتصرَّف ربَّما: امرأةٌ تعتاد الحفلات الماجنة وتنحني من دون أن تُرغَمَ على تغطية فتحة الصدر بإصبعيْها، تضع ساقًا على ساق ولا تبالي بالتنُّورة، تضحك بوقاحة، مكتسيةً بالذهب، تندفع بكامل جسدها لتلبية مقترحاتٍ جنسيَّةٍ مستمرَّةٍ وعشوائيَّة، وتبارز الذكور وجهًا لوجه في حلبة الفجور.

عبَّرتُ بتكشيرة غيظٍ لاإراديَّة. قلتُ:

«هي من طولي، لديها بضع شعراتٍ شائبة. لكنَّ تسريحة شعرها عفا عليها الزمن، لم يعد أحدٌ يُسرِّحُ شعره هكذا. جاءت

رفقة رجلٍ يناهز السبعين عامًا، لكنَّه وسيم، نحيف، شعره كثيفٌ وأبيض كلِّيًّا. هما ثنائيٌّ جميل، برؤيتهما معًا... لا بدَّ أن تتذكَّريهما، لقد اشتريا كلَّ هذه الأغراض».

هزَّت البائعة رأسها، لم تتذكَّر.

«تدخل أعدادٌ كبيرة» قالت. ثم نظرت إلى الحارس، قلقةً على الوقت الذي كانت تهدره، واقترحت عليَّ: «جرِّبيها. بالنسبة إليَّ تبدو على مقاسكِ. ولكن إذا كان الفستان يشدُّ عليكِ...»

«أودُّ التحدُّث مع ذلك السيِّد...» قاطعتُها.

دفعتني البائعة نحو أحد المشالح، غير مطمئنَّةٍ من الطلب الذي أدليتُ به للتوّ.

«إن كان السروال لا يقنعكِ، فأبدليه بآخر... سنعرض عليكِ خصمًا» اقترحتْ. ووجدتُ نفسي داخل حُجرةٍ كلُّها مرايا مستطيلة.

تنهَّدتُ، نزعتُ ثوب الجِداد على مضض. وكنتُ أزداد انزعاجًا من ثرثرة الزبونات المحمومة، التي بدت أنَّها آخذةٌ بالتضخُّم هناك في داخل الحُجرة عوضًا عن أن تضمحلّ. وبعد لحظةٍ من الحيرة نزعتُ سروال أمِّي الذي كنتُ قد لبستُهُ في المساء السابق وارتديتُ أحد سراويل الدانتيل التي وجدتُها في حقيبة اليد. كان على مقاسي تمامًا. ارتبكتُ، فأدخلتُ إصبعي في الشقّ الجانبيّ الذي من الوارد أنَّ أماليا أحدثتْهُ وهي ترتديه، ثم مرَّرتُ رأسي في الفستان ذي اللون الأحمر الصدئ. وصلت أهدابُهُ خمسة سنتمتر فوق ركبتيَّ وكانت فتحة الصدر فيه واسعةً

أكثر ممَّا ينبغي. لكنَّه لم يكن ضيِّقًا عليَّ إطلاقًا، لا بل كان ينزلق على جسدي النحيل والمشدود والعضليّ ليجعله أرقّ. خرجتُ من المشلح وأنا أجذب الفستان من جانبه بقوَّة، وأُحدِّقُ إلى إحدى عضلات ساقيَّ وأقول بصوتٍ مرتفع: «ها هو، كما ترين، الفستان يشدُّ عليَّ من هذا الجنب... ثم إنَّه قصيرٌ للغاية».

فإذا بي أجد الرجل بجانب البائعة الشابَّة، كان في الأربعينيَّات من عمره، أسود الشاربيْن، أطول منِّي بعشرين سنتيمترًا على الأقلِّ، عريض الجذع والمنكبيْن. ملامحه منتفخة، وجسمه كذلك، ومظهره يبثُّ الخوف؛ إلَّا أنَّ نظرته ليست مجافية بل حيويَّة ومألوفة. قال بإيطاليَّةٍ معياريَّة مُستمدَّة من برامج التلفزيون، لكنَّها تخلو من اللباقة، بلا أدنى حسٍّ بالتعاون والمصادقة الذي يُبديه مع الزبونات الأخريات، بل كان يبذل جهدًا في مخاطبتي برسميَّة:

«إنَّه يليق بحضرتكِ جدًّا، ليس ضيِّقًا عليكِ أبدًا. إنَّما هكذا هو الطراز».

«الطراز هو الذي لا يقنعني حقًّا. اختارته أمِّي من دوني و...»

«لقد أحسنَتِ الاختيار. احتفظي بالفستان واستمتعي به حضرتكِ».

حدَّقتُ إليه برهةً، في صمت. شعرتُ أنِّي أريد أن أفعل شيئًا إمَّا بحقِّه وإمَّا بحقِّي. رميتُ الزبونات الأخريات بنظرة. رفعتُ الفستان إلى مستوى خاصرتيَّ واستدرتُ نحو إحدى المرايا.

«انظر إلى السروال إذًا» أشرتُ له في المرآة «ضيِّقٌ عليّ».

لم يُغيِّر الرجل نبرته أو تعبيره.

«اسمعيني حضرتكِ، لا أدري ماذا أقول، ليس بحوزتكِ حتى الإيصال» قال.

رأيتُ نفسي في المرآة بساقيْن نحيلتيْن وعاريتيْن: أنزلتُ الفستان بانزعاج. جمعتُ الثوب القديم والسراويل، ووضعتُها كلَّها في الكيس وفتَّشتُ في جوفه عن الحافظة البلاستيكيَّة لهويَّة أماليا.

«لا بدَّ أنَّ حضرتك تتذكَّرها» حاولتُ مجدَّدًا، بإخراج الوثيقة وفتحها تحت عينيْه.

ألقى الرجل نظرةً خاطفة وبدا أنَّ صبره ينفد. راح يتحدَّث بالعامِّيَّة.

«سيِّدتي العزيزة، لا يمكننا إضاعة الوقت هنا» قال وردَّ الوثيقة إليَّ.

«كلُّ ما أطلبه هو...».

«البضاعة المباعة لا تُبدَّل».

«كلُّ ما أطلبه هو...».

ربَّتَ على كتفي بخفَّة.

«هل تعبثين؟ هل جئتِ لتعبثي؟»

«إيَّاك أن تمسَّني...»

«حقًّا، لقد جئتِ لتعبثي هنا... هيَّا، خذي أغراضكِ

وهويَّتكِ. مَن أرسلكِ؟ ماذا تريدين؟ أبلغي مَن أرسلكِ بأن يأتي بنفسه إذا أراد المواجهة. وبعدها نرى! لا بل خذي، هذه بطاقتي: بوليدرو أنطونيو، الاسم والعنوان ورقم الهاتف. إمَّا تجدوني هنا وإمَّا في منزلي. اتَّفقنا؟»

كنتُ أعرف تلك النبرة جيِّدًا. كان سيسارع إلى دفعي بعزمٍ أكبر ثم يضربني بلا أيِّ مداراة، سواء أكنتُ ذكرًا أم أنثى. انتزعتُ الهويَّة من يده باحتقارٍ محسوب، وألقيتُ نظرة على صورة أمِّي لأفهم ما الذي أثار أعصابه. كان الشعر الطويل المُسرَّح بإتقانٍ بليغ على الجبين ومدار الوجه مكشوطًا كلِّيًا. وقد استحال البياضُ الناجمُ حول الرأس إلى رماديٍّ ضبابيٍّ باستخدام قلم رصاص. وبالقلم الرصاص نفسه، شدَّدَ أحدهم ملامح الوجه قليلًا. المرأة التي في الصورة ليست أماليا، إنّما أنا.

XII

خرجتُ إلى الطريق وأنا أجرُّ حقيبتي. انتبهتُ أنَّني ما زلتُ أمسك الهويَّة بيدي فأعدتُها إلى الحافظة البلاستيكيَّة وواريتُ فيها بطاقة بوليدرو تلقائيًّا. ألقيتُ كلَّ شيء في حقيبة يدي ونظرتُ حولي مرتبكةً لكنِّي مسرورة لأنَّ خالي ظلَّ ينتظرني عند الزاوية بالفعل.

وسرعان ما تندَّمتُ. جحظت عيناه وفغر فمه ليُريني ما تبقَّى من أسنانه الطويلة والمصفرَّة من النيكوتين. كان مندهشًا، لكنَّ دهشته كانت تتحوَّل إلى استياءٍ في اللحظة نفسها. لم أفهم السبب على الفور. ثم أدركتُ أنَّه راجعٌ إلى الفستان الذي ارتديتُهُ. حرصتُ على التبسُّم في وجهه، لتهدئته بالتأكيد، ولكي أتخلَّص من شعوري بأنِّي فقدتُ السيطرة على وجهي، وأنَّه صار نسخةً عن وجه أماليا.

«ألا يليق بي؟» سألتُ.

«لا، ليس هذا» قال عابسًا، وكان من الواضح أنَّه يكذب.

«فماذا إذًا؟»

«لقد دفنَّا أمَّكِ البارحة» قال مُغتمًّا بصوتٍ مرتفعٍ للغاية.

فكَّرتُ أن أزعجه وأكشف له بأنَّ الفستان لأماليا، لكنِّي تراجعتُ في الوقت المناسب إذ تنبَّأتُ بأنَّ الإزعاج كان سيرتدُّ عليَّ: كان سيعاود صبَّ غيظه على شقيقته بلا شكّ. قلتُ له:

«كنتُ مكتئبةً كثيرًا، وأردتُ أن أهدي نفسي هديَّة».

«أنتنَّ النساء تكتئبن بسهولة» انفجر قائلًا، مُشدِّدًا على كلمة «بسهولة»، ومتناسيًا على الفور ما ذكَّرني به للتوّ: أنَّنا دفنَّا أمِّي في اليوم السابق وأنَّ لديَّ سببًا وجيهًا لأكون مكتئبة.

ومن جهةٍ أخرى، لم أكن مكتئبةً على الإطلاق. بل كنتُ أشعر أنَّني تُرِكْتُ في مكانٍ ما وغدوتُ عاجزةً عن العثور على نفسي: أي كنتُ لاهثةً بتحرُّكاتٍ سريعةٍ جدًّا وغير مُنسَّقةٍ بما فيه الكفاية، بعجالة مَن يُفتِّش في كلِّ زاوية وليس لديه وقتٌ يُضيِّعه. فكَّرتُ بأنَّ فنجان بابونج سيُعدِّل مزاجي، فدفعتُ الخالَ فيليبو إلى أوَّل مقهى صادفناه في شارع سكارلاتّي، بينما كان يباشر الحديث عن زوجته، التي كانت حزينةً بالضبط على الدوام: جبَّارة، عاملةٌ عظيمة، نبيهة، مُرتَّبة لكنَّها حزينة. أمدَّني انغلاقُ المكان بتأثير الحشوة القطنيَّة في الفم. تراجعتُ نحو المخرج بسبب رائحة القهوة الكثيفة وصخب الزبائن والنُدُل المرتفع، في حين كان خالي يصيح بدوره، ويوغل يده بجيب السترة الداخليّ: «أنا مَن سيدفع!». جلستُ إلى طاولة على الرصيف، ما بين زعيق الفرامل

ورائحة المطر الوشيك والبنزين، والحافلات المكتظَّة والمتباطئة، والمارَّة المتعجِّلين الذين يصدمون الطاولة بمرورهم. «أنا مَن سيدفع!» ردَّدَ الخال بفتورٍ متزايد، مع أنَّنا لم نطلب شيئًا وكنتُ أشكُّ في ظهور النادل. ثم عدَّلَ جلسته على الكرسيّ جيِّدًا وأخذ يمتدح ذاته: «أنا لطالما كنتُ شخصيَّةً حيويَّة. بلا مال؟ بلا مال. بلا ذراع؟ بلا ذراع. بلا نساء؟ بلا نساء. المهمُّ هو وجود الفم والساقيْن: للتحدُّث متى أشاء وللذهاب أينما أشاء. ألستُ على صواب؟»

«بلى».

«أمُّكِ هكذا هي أيضًا. نحن عِرقٌ لا تنكسر له همَّة. عندما كانت صغيرة، كانت تتأذَّى باستمرار لكنَّها لا تبكي: علَّمتنا أمُّنا أن ننفخ على الجرح ونُردِّد: سيزول. وحتى عندما كانت تعمل، وتنخز أصابعها بالإبرة، ما فتئت تردِّد هذه الكلمة: سيزول. ذات مرَّة ثقبت إبرةُ السنغر ظفرَ سبَّابتها، واخترقتْه إلى الجانب الآخر، ثم ارتفعت وانغلَّت من جديد، ثلاث مرَّاتٍ أو أربعة. فما كان منها إلَّا أن أوقفت الدوَّاسة، ثم شغَّلتْها ثانيةً شيئًا فشيئًا لتستخرج الإبرة، ضمَّدت إصبعها واستأنفت العمل. أنا لم أرها حزينةً يومًا».

هذا كلُّ ما استطعتُ سماعه. بدا لي أنَّ رقبتي تغرق في الواجهة من خلفي. وحتى الجدار الأحمر لمتجر الأوبيم للألبسة قبالتنا بدا أنَّه مطليٌّ حديثًا، وأنَّ طلاءه ناشفٌ جدًّا. سمحتُ لضوضاء شارع سكارلاتّي بأن تتضخَّم بحيث تطغى على صوته. رأيتُ شفتيْه تتحرَّكان، جانبيًّا، بلا صوت: بدتا لي من المطَّاط،

تُحرِّكهما إصبعان من الداخل. كان عمره سبعين عامًا وليس لديه أيُّ دافعٍ ليكون راضيًا عن نفسه، لكنَّه يحاول أن يكون كذلك، وربَّما هو كذلك حقًّا عندما يباشر تلك الثرثرة الدؤوبة التي تُجريها حركاتُ شفتيْه غير الملحوظة. انتابني الذعر وأنا أفكِّر لوهلةٍ بالذكور والإناث ككائناتٍ حيَّة، وتخيَّلتُ أنَّ منقاشًا يعمل عمله فينا فيصقلنا ويُحيلنا أشكالًا عاجيَّة، بلا فتحاتٍ ولا زوائد، كلُّنا متطابقين وبلا هويَّةٍ تُميِّزُنا، بلا أيّ تفنُّنٍ في إضفاء ملامح جسمانيَّة، ولا أيّ معايرةٍ لضبط الفروقات البسيطة.

كنت أعرف تلك الإصبع الجريحة، التي ثقبتْها الإبرةُ عندما لم تكن أمِّي قد تجاوزت أعوامها العشرة بعد، أعرفها جيِّدًا أكثر من أصابعي نفسها، بفضل ذلك التفصيل تمامًا. كانت بنفسجيَّة ويبدو ظفرُها يكاد يتلاشى عند طرفه. وكم وددتُ مرارًا أن ألعقها وأمصَّها، أكثر من حلمتيْها. ولعلَّها سمحت لي بذلك عندما كنتُ صغيرة، ولم تتنصَّل. كان على الأنملة ندبةٌ بيضاء: التهبَ الجرحُ واضطرُّوا إلى شقِّه. كنتُ أشمُّ حولها رائحةَ ماكينة الخياطة خاصَّتها، بمواصفات حيوانٍ أنيقٍ نصفُهُ كلبٌ ونصفُهُ هرّ، ورائحة الحزام الجلديّ المتشقِّق الذي ينقل حركة الدوَّاسة من الدولاب الأكبر إلى الأصغر، والإبرة التي تصعد وتهبط من الخطم، والخيوط الذي تجري بين مناخير ذلك الحيوان وآذانه، والبَكَرة التي تدور على المحور المغروز في صهوته. كنتُ أشمُّ نكهة الزيت اللازم لتشحيمها، وعجينة الدهن المسحوق والممزوج السوداء التي كنتُ أحكُّها بظفري وآكلها خلسةً. كنتُ أخطِّط لثقب ظفري أنا أيضًا، تحذيرًا لها كي لا تحرمني ممَّا لستُ أملكه.

كثيرةٌ هي القصص عن فروقاتها البسيطة التي لا تنتهي، والتي تجعلها صعبة المنال، والتي إذا تركَّبَت معًا تجعلها كائنًا مرغوبًا، في العالم الخارجيّ، بقدر ما كنتُ أرغب أنا فيها على الأقلّ. تخيَّلتُني ذات مرَّةٍ أنتش تلك الإصبع الاستثنائيَّة، لأنِّي لم أجد الشجاعة لتقديم إصبعي لفم الماكينة. كنتُ أريد أن أمحو من جسمها كلَّ ما هو لها ومحظورٌ عليَّ. فبهذه الطريقة لا يمكن لأيّ شيءٍ أن يُفقَدَ أو يختفي بعيدًا عنِّي، طالما أنَّ كلَّ شيءٍ بات في النهاية مفقودًا.

والآن وقد ماتت، كشط أحدهم شعرها وشوَّهَ وجهها ليُطوِّعه على جسدي. حدَثَ خلال الأعوام، نتيجةً للكراهية، نتيجةً للخوف، حدَثَ أنِّي رغبتُ بفقدان أيِّ جذرٍ يصلني بها، حتى أعمق الجذور: إيماءاتها، نبرات صوتها، أسلوبها بإمساك الكأس أو الشرب من الفنجان، كيفيَّة ارتدائها التنُّورة، الفستان، منهجها في ترتيب الأغراض في المطبخ، في الأدراج، طرائقها بغسل الثياب الأكثر خصوصيَّةً، أذواقها الغذائيَّة، نفورها، حماستها، فضلًا عن اللغة، المدينة، وإيقاع الأنفاس. اختلفتُ عنها في كلِّ هذه الأشياء لكي أُكوِّنَ ذاتي وأنبتَّ عنها.

ومن جهةٍ أخرى، لم أشأ أو لم أستطع أن أتجذَّرَ في أحد. سأفقد بعد حينٍ حتى إمكانيَّة إنجاب الأولاد. لن يتمكَّنَ أيُّ كائنٍ بشريٍّ أن ينبتَّ عنِّي باللوعة التي انبتتُّ فيها عن أمِّي لا لشيءٍ سوى لأنِّي أخفقتُ في التعلُّق بها بصفةٍ حتميَّة. لن يكون هناك أحدٌ زائدٌ أو ناقصٌ يحول بيني وبين أيٍّ من شؤوني. سأبقى أنا إلى النهاية، تعيسةً، حزينةً بما كنتُ قد اختلستُهُ من جسد أماليا.

قليلةٌ، قليلةٌ جدًّا هي غنيمتي التي استطعتُ سلبها بانتزاعها من دمها، من بطنها ومن قياس أنفاسها، لكي أخفيها في جسدي، في المادَّة النزويَّة من دماغي. لا يكفي. كان سعيي الحثيث لإضفاء الـ «أنا» على ذلك الفرار القسريّ من جسد امرأة، مثلَ مكياجٍ ساذجٍ ومستهتر، إذ لم أنل منه شيئًا! أنا لستُ أيَّ أنا. ثم إنِّي مرتبكَة: لا أدري إن كان ما سأكتشفه، وما سأرويه على نفسي، منذ أن رحلتْ أمِّي وما عاد بإمكانها الردَّ، سيُشعِرني بالرعب أم البهجة.

XIII

ربَّما اهتززتُ بسبب المطر الذي انهال على وجهي. أو ربَّما لأنَّ الخال فيليبو، إذ وقف بجواري، كان يهزُّني من ذراعي بيده الوحيدة. وفي الحقيقة أحسستُ بما يشبه الصعقة الكهربائيَّة وانتبهتُ أنَّني كنتُ غافيةً.

«إنَّها تمطر» غمغمتُ في حين ما انفكَّ خالي يهزُّني بعنف. كان يزعق كمن أصابته سكتةٌ دماغيَّة، لذا لم أفهم ماذا يقول. شعرتُ أنَّي ضعيفة، مذعورة، لا أقوى على النهوض. كانت الناس تأتي راكضةً وتبحث عن ملاذ. الرجال إمَّا يصرخون وإمَّا يقهقهون، ويصدمون طاولتنا بخطورةٍ وهم يركضون. خشيتُ أن يطيحوني أرضًا. أوقَعَ أحدُهم الكرسيَّ الذي كان الخالُ جالسًا عليه منذ قليل. «ما أجمل هذا الفصل!» قال ودخل إلى المقهى.

حاولتُ النهوض ظنًّا منِّي أنَّ خالي يريد أن يوقفني على قدميَّ. إلَّا أنَّه أسقَطَ ذراعي، وترنَّحَ بين الناس وركض يصيح

بشتائم غريبةٍ عجيبة من على حافَّة الرصيف، مشيرًا بذراعه الممدودة إلى الجانب الآخر من الشارع، ما وراء السيَّارات والحافلات المزدحمة التي ينقر عليها المطر.

نهضتُ وأنا أجرجر الكيس والحقيبة خلفي. أردتُ أن أرى على مَن كان يصبُّ غيظه، لكنَّ الزحمة الخانقة شكَّلَت سورًا مضغوطًا من الصفائح المعدنيَّة، وانهمر المطر بغزارةٍ متزايدة. فتمسَّحتُ بجدار المبنى لأتجنَّبَ البلل ولأعثر على فجوةٍ بين الحافلات والسيَّارات العالقة. وعندما نجحتُ في ذلك، رأيتُ كازيرتا عند بقعة الأوبيم الحمراء. كان يمشي منحنيًا على جذعه أو يكاد، ولكن بسرعة، وما لبث يتلفَّتُ إلى الخلف كأنَّه يخشى أن يكون مُلاحَقًا. وكان يصطدم بالمارَّة دون أن ينتبه على ما يبدو أو يتباطأ: محدودبًا، وذراعاه تتأرجحان، وعند كلِّ اصطدامٍ يدور حول نفسه بلا توقُّف، كما لو أنَّه شكلٌ مُركَّبٌ على محورٍ يجري بانسيابيَّةٍ على امتداد الرصيف بفضل آليَّةٍ سرِّيَّة. كان يبدو من البعيد أنَّه يُغنِّي ويرقص، ولكن من الوارد أنَّه كان يُجدِّف ويُلوِّحُ بذراعيْه لا غير.

سارعتُ خطاي كي لا يخرج من نطاق رؤيتي، إلَّا أنَّ المارَّة احتشدوا في مداخل الأبنية، وفي ردهات المتاجر، وتحت الأفاريز والشرفات، فاضطررتُ إلى التخلِّي عن محاولات الاحتماء بالجدار، وخرجتُ إلى المكشوف، تحت المطر، لأتحرَّكَ بشكلٍ أسرع. رأيتُ كازيرتا ينطُّ ليتخطَّى النباتات وأصص الأزهار التي عرضها بائع الورود على الرصيف. أخفق في ذلك، تعثَّرَ، وارتطم بجذع شجرة. ظلَّ ملتصقًا بلحائها قليلًا، ثم انبتر

عنها واستأنف الركض. كان يخشى من شيءٍ لستُ أدري ما هو. تصوَّرتُ أنَّه رأى خالي ففرَّ بجلده. ربَّما كان العجوزان يتسلَّيان بإحياء مشهدٍ عاشاه في شبابهما: أحدهما يطارد، والآخر يهرب. فكَّرتُ أنَّهما قد يتعاركان على الرصيف المبلَّل، ويتدحرجان تارةً من هنا وتارةً من هناك. لم أكن أعرف بالضبط كيف كنتُ سأتصرَّف، ماذا كنتُ سأفعل.

وعند تقاطع شارع سكارلاتّي بشارع لوكا جوردانو، أدركتُ أنِّي أضعتُه. جلتُ ببصري بحثًا عن الخال فيليبو لكنِّي لم أره هو الآخر. فقطعتُ شارع سكارلاتّي، الذي أصبح إشارة استفهامٍ طويلةً ملؤها مركباتٌ مُتوقِّفة، إلى ميدان ڤانڤيتلّي، وبدأتُ بصعودِ الرصيف الآخر ركضًا، حتى وصلتُ إلى أوَّل شارعٍ فرعيٍّ جانبيّ. كانت الدنيا ترعد بلا صواعق تراها العيْن، والرعود مثل تمزُّقات قماشٍ حادَّة. رأيتُ كازيرتا في آخِرِ شارع مرلياني، تجلده الأمطار تحت شارةٍ ضخمة من معدنٍ أزرق وأحمر، قبالة السور الأبيض لمنتزه فلوريديانا. ركضتُ وراءه لكنَّ شابًّا خرج بشكلٍ مفاجئٍ من ملاذه في أحد المداخل، وأمسك ذراعي وهو يضحك وقال لي باللهجة المحلِّيَّة: «إلى أين تركضين؟ تنشَّفي!». كان الشدُّ عنيفًا لدرجة أنَّني أحسستُ بألمٍ في الترقوة وانزلقتُ بساقي اليسرى. لم أسقط، ذلك أنِّي هويتُ واصطدمتُ بحاوية قمامة كبيرة. استعدتُ توازني وملصتُ من قبضته بقوَّة وفوجئتُ بنفسي أرميه بشتائم لهجويَّة. وعندما وصلتُ إلى سياج المنتزه أنا أيضًا، كان كازيرتا في أعلى الشارع تقريبًا، تفصله أمتارٌ عن محطّة الترام الجبليّ التي كانت قيد الإصلاح.

توقَّفتُ وقلبي ينبض في حلقي. كان هو أيضًا يتقدَّمُ آنذاك بلا جري، على صفّ أشجار الدلب، ما بين السيَّارات المركونة على الجهة اليمنى. يصعد بمشقَّة، منحنيًا على جذعه، مرهقًا، بقدرةٍ على التحمُّل في ساقيْه مُستَغرَبةٍ بالنسبة إلى رجلٍ في عمره. وعندما بدا أنَّ قواه استُنزِفَت، استند إلى سياج موقع بناء بأنفاسٍ لاهثة. رأيتُ جسمه يتلوَّى، في وضع بدا فيه أنَّ حدائد السقَّالات تخرج من رأسه البيضاء، تحت اللافتة المُعلَّقة: «أعمال هدم وإعادة بناء محطّة ميدان ڤانڤيتلّي ـ ترام جبليّ منطقة كيايا». كنتُ واثقةً من أنَّه ما عاد يقوى على التحرُّك من هناك، فإذا بشيءٍ أثار هلعه مجدَّدًا. ضرب السياج بكتفه كأنَّما أراد اختراقه والفرار عبر الثغرة. نظرتُ إلى الجهة اليسرى، لأرى مَن أرعبَهُ بهذا الشكل: رجوتُ أن يكون خالي. ولكن لا. إنَّما بوليدرو، رجل متجر ڤوسّي، يركض تحت المطر. صاح عليه وأشار له بالتوقُّف تارةً، وهدَّدَه مُلوِّحًا بكفِّه العريضة تارةً أخرى.

نطَّ كازيرتا بقدمٍ ثم بالثانية ينظر ما حوله بحثًا عن منجى. وربَّما قرَّرَ التراجع إلى الخلف، إلى الأسفل من شارع شيماروزا، لكنَّه رآني. فأخفى توتُّره، وصفَّفَ شعره الشائب، وسرعان ما بدا مستعدًّا لمواجهة بوليدرو ومواجهتي على حدٍّ سواء. تمسَّحَ بسياج موقع البناء، ثم بسيَّارةٍ واقفة. هممتُ بالركض أنا أيضًا، لأرى بوليدرو يتحرَّك كما لو كان منتعلًا عجلات الأقدام، على البلاط الرصاصيّ، شخصيَّةٌ مكتنزة ورغم هذا رشيقةٌ في اجتياز الأرجوحة العملاقة المُكوَّنة من قضبان حديديَّة صفراء عند المدخل إلى ميدان ڤانڤيتلّي. ولكن في تلك اللحظة تمامًا ظهر خالي. انسلَّ

من محلّ المقليّات الذي لا بدَّ أنَّه لاذ به. رآني آتيةً فصار يمشي باتِّجاهي بارز الصدر، بخطواتٍ سريعة تحت المطر. وفجأةً ظهر في طريقه بوليدرو فتصادما. مدَّ كلٌّ منهما يده نحو الآخر ليتعاونا على النهوض، واستدارا معًا بهذه الطريقة بحثًا عن نقطة توازن. استغلَّ كازيرتا الفرصة ليغطس في الضوء الأبيض الذي فاض بشارع سان فيليتشه، تحت أمطارٍ لامعة، بين زحام الباحثين عن ملاذٍ عند مدخل الترام الجبليّ.

استجمعتُ ما تبقَّى لديَّ من قوَّة وركضتُ خلفه، في جوٍّ من أنفاسٍ غليظة، موحلٍ بفعل المطر، ورماديٍّ بسبب الجير. كان الترام الجبليّ يوشك على الانطلاق والركَّاب يتدافعون نحو ختَّامة التذاكر. وكان كازيرتا مُتقدِّمًا، ينزل العتبات لكنَّه غالبًا ما توقَّف ومدَّ عنقه لينظر إلى الخلف، ثم يُقرِّب وجهه المضرَّج إلى مَن يمرُّ بجانبه ليهمس له بشيءٍ ما فجأةً. أو ربَّما كان يحادث نفسه بصوتٍ يدأب على إبقائه خفيضًا، ويُلوِّحُ بيمينه أعلى وأسفل، الإبهام والسبَّابة مضمومتان، والأصابع الثلاث الأخرى ممدودة. انتظر جوابًا بعض الوقت ولكن بلا فائدة. وفي النهاية عاود النزول.

اشتريتُ تذكرةً واندفعتُ أنا أيضًا نحو المقطورتيْن، الصفراويْن والمضيئتيْن. لم أستطع أن أرى إلى أيِّهما صعد. نزلتُ حتى منتصف الثانية ولم أجد له أثرًا، ثم قرَّرتُ الركوب والبحث عن ممرٍّ في حشد الركَّاب. كان الهواء ثقيلًا ويخلط عرق البشر برائحة الأقمشة المبلَّلة. فتَّشتُ ما حولي بعينيَّ، بحثًا عن كازيرتا. إلَّا أنِّي رأيتُ بوليدرو ينزل العتبات اثنتيْن اثنتيْن متبوعًا

بخالي الذي كان يصرخ عليه لستُ أدري ماذا. أسعفهما الوقت لركوب المقطورة الأولى وسرعان ما انغلقت الأبواب. وبعد ثواني قصيرة رأيتُ وجههما في الزجاج المستطيل للجانب المطلِّ على مقطورتي: كان الرجل ينظر حوله غاضبًا، وخالي يشدُّه من ذراعه. وتحرَّكَ الترام.

XIV

كانت العربات حديثة، مختلفة تمامًا عن المستَخدَمة في صباي. لم يبقَ من تلك سوى الشكل المتوازي السطوح الذي يبدو مرميًّا إلى الخلف بكامل هيكله على إثر صدمةٍ أماميَّةٍ عنيفة. ولكنْ عندما بدأ الترام يهبط في البئر المنحنية على مساره، استحضرتُ قرقعاته واهتزازاته ورجرجاته المعهودة. ومع هذا كانت العربات تنزلق على السفح مُعلَّقةً بحبالٍ فولاذيَّة، بسرعةٍ لا تُشابِه البطء الذي تتخلَّلَه الاهتزازاتُ ويرافقه الدويُّ كما في الماضي. بدا لي الترام قد تحوَّلَ من مسبارٍ متأنٍّ تحت جلد التلّ، إلى حقنةٍ وريديَّةٍ مؤلمة. وانزعجتُ حين أحسستُ بأنَّه يُبدِّدُ ذكريات رحلاتي المحبَّبة مع أماليا، عندما كفَّت عن صناعة القفَّازات وصحبتني معها لتسليم الملابس التي خيَّطتْها من أجل زبوناتها الميسورات من حيّ ڤوميرو. تأنَّقت وتجمَّلت واعتنت بمظهرها كي لا تبدو سيِّدةً أدنى مرتبةً من أولئك اللواتي تعمل من

أجلهنَّ. أمَّا أنا فكنتُ نحيلة ومتَّسخة أو هكذا كنتُ أشعر بنفسي على الأقلّ. كنتُ أجلس بجانبها على المقعد الخشبيّ، أحتضن اللباس التي كانت تشتغل عليه أو أنجزتْهُ للتوّ، مُرتَّبًا بحيث لا يتغضَّن، وملفوفًا بورق تغليفٍ مُثبَّتٍ من أطرافه بدبابيس. كان الطرد يرقد على ساقيَّ وعلى بطني مثل حافظةٍ تختزن رائحةَ أمِّي وحرارتَها. كنتُ أشعر بها في كلِّ مسامي التي تمسُّ ورق التغليف. وكان هذا التماسُّ حينها يمدُّني بوهنٍ حزينٍ على وقْع اهتزازات العربة.

وذاك بخلاف ما يراودني الآن من انطباعٍ بأنِّي أهبط مثل أليس الهرمة وهي تلاحق الأرنب الأبيض. لذا ابتعدتُ عن الباب وقاسيتُ للوصول إلى منتصف العربة. كنتُ في الجانب الأعلى من المقطورة، في قسمها الثاني. حاولتُ أن أشقَّ طريقي، لكنَّ الركَّاب نظروا إليَّ مستائين، كما لو كان في مظهري ما يُثير اشمئزازهم، وراحوا يدفعونني بعدوانيَّة. تقدَّمتُ بعناء، ثم توقَّفتُ عن الحركة وبحثتُ عن كازيرتا بأنظاري. حدَّدتُ مكانه في القسم الأخير من المقطورة، ذي المجال الرحب. كان خلف فتاةٍ في العشرين من عمرها، ملابسها رثَّة. وكنتُ أراه جانبيًّا مثلما أرى الفتاة. بدا أنَّه رجلٌ هادئٌ يعيش شيخوخةً موقَّرة، منشغلًا في قراءة الجريدة التي باتت رماديَّةً بسبب المطر. يحملها بيده اليسرى، وقد طواها إلى أربع طيَّات، وباليمنى يتمسَّكُ بالمسند المعدنيّ البنِّيّ. لكنِّي انتبهتُ فورًا أنَّه كان يتماهى مع تمايل العربة ويتقرَّب أكثر من جسد المرأة الشابَّة. قوَّسَ ظهرَه الآن، ووسَّعَ ساقيْه قليلًا، وأسند بطنه على ردفيْها. لا شيء يُسوِّغ هذا

التماسّ. وعلى الرَّغم من الاكتظاظ، ثمَّة ما يكفي من فراغ خلفه للحفاظ على مسافةٍ مهيبةٍ بينهما. لكنَّ العجوز لم يكفَّ عن فعلته، حتى عندما استدارت الفتاة بغضبٍ غير مضبوطٍ تمامًا ونأت عنه شيئًا فشيئًا. انتظر بضع لحظاتٍ قبل أن يتقدَّمَ نحو السنتمترات التي فقدها، ثم ضمَّ قماشة بنطلونه الأزرق على بنطلونها الجينز. تلقَّى لكزةً خجولة عند ضلوعه لكنَّه ما لبث يتظاهر بالقراءة، حتى اندفع ببطنه إليها بحسمٍ أكبر.

التفتُّ بحثًا عن خالي. رأيتُه في المقطورة الأخرى، مندمجًا، بفمٍ مفتوح. وكان بوليدرو بجانبه، في الزحام، يضرب على الزجاج. ربَّما أراد لفت انتباه كازيرتا. أو انتباهي. لم يعد مظهره يوحي بالحنق الذي رأيتُهُ على وجهه في المتجر. كان يبدو شابًّا مهانًا وقَلِقًا، مرغمًا على التفرُّج من خلف نافذة على مشهدٍ يُعذِّبُهُ. نقلتُ أنظاري منه إلى كازيرتا، وكنتُ مُشتَّتة. خُيِّلَ إليَّ أنَّ لهما الفم نفسه، من بلاستيكٍ أحمر، مُتصلِّبًا من شدَّة الاحتقان. لكنِّي لم أستطع تثبيت هذا الانطباع. توقَّفَ الترام متمايلًا، فرأيتُ أنَّ الفتاة كانت تتحرَّكُ مهرولةً نحو المخرج. لحق بها كازيرتا، كأنَّه ملتصقٌ بها، منحني الظهر ومنفرج الساقيْن، ما بين ذهول رفاقه في الرحلة وقهقهتهم. قفزت الفتاة إلى خارج المقطورة. تردَّدَ العجوز قليلًا، استجمع نفسه ورفع عينيْه. ظننتُ أنَّه فعلها استجابةً لضربات بوليدرو التي تزداد هياجًا. إلَّا أنَّه حدَّدَني من بين الزحام فورًا، كأنَّه لطالما عرف مكاني بدقَّة، وقد استهجن الجميعُ تصرُّفاته. توجَّهَ إليَّ بنظرةٍ إيحائيَّة، ليُفهِمَني بأنَّ التمثيليَّة الإيمائيَّة التي يؤدِّيها تعنيني. وانزلق إلى خارج العربة عندئذٍ،

بأسلوب مُمثِّلٍ مُتمرِّدٍ قرَّرَ عدم الالتزام بالنصّ.

لاحظتُ أنَّ بوليدرو أيضًا كان يحاول النزول. جرَّبتُ بدوري أن أصل إلى الباب لكنِّي كنتُ بعيدةً وقد صدَّني تيَّارُ الذين كانوا يصعدون. تحرَّكَ الترام ثانيةً. نظرتُ إلى الأعلى وأدركتُ أنَّ رجل متجر ڤوسّي لم يتمكَّن. أمَّا خالي فيليبو فبلى.

XV

من الصعب العثور في وجوه الشيوخ على ملامحهم الشبابيَّة. وأحيانًا نعجز حتى عن تصديق أنَّهم مرُّوا بمرحلة الشباب. فبينما كان الترامُ الجبليُّ يستأنف هبوطه، لاحظتُ أنِّي حين نقلتُ أنظاري من بوليدرو إلى كازيرتا والعكس، منذ قليل، كنتُ قد شكَّلتُ رجلًا ثالثًا لا هو كازيرتا ولا هو بوليدرو. كنتُ بصدد رجلٍ شابّ، زيتيِّ البشرة، أسود الشعر، بمعطفٍ من وبر الجَمَل. كانت تلك الهيولى المتجلِّية، والمتلاشية في آنِها، ناجمةً عن انزلاق ملامح جسمانيَّة، كما لو أنَّ نظرتي سبَّبَت خلطًا عارضًا بين عظام وجنتَي كازيرتا وحارس متجر ڤوسّي، بين فم الأوَّل وفم الثاني. أنَّبتُ نفسي. فلقد فعلتُ أشياء كثيرة ما كان ينبغي لي فعلها: ركضتُ، وكابرتُ على خفقان القلب، وأفرطتُ بالانفعال. حاولتُ أن أهدأ.

هلَّت محطَّة كيايا بعد قليل، وكانت عبارةً عن حصنٍ

إسمنتيّ، بإضاءةٍ خافتة. تهيَّأتُ للنزول لكنِّي لم أشعر بالسكينة التامَّة بعد. كانت أماليا، داخل رأسي، تُحدِّقُ بدورها آنذاك إلى تلك التركيبة الجسمانيَّة الخياليَّة التي شكَّلتُها منذ قليل. تمهَّلتُ. كانت هناك ثابتةً، مُتطلِّبة، في إحدى زوايا المحطَّة القديمة التي تراءت لي مثلما كانت قبل أربعين عامًا. ركَّزتُ بصري إليها بناءً على هذه الخلفيَّة، كما لو أنِّي أعمل على تجميع أجزاء صورة البازل التي لم تتحدَّدَ تفاصيلها بعد: لا شيء سوى شعرها المنثور، وهيئتها الداكنة قبالة ثلاثة أشكالٍ من خشبٍ مُلوَّنٍ ربَّما كانت هناك قبل أقلّ من نصف قرنٍ لتأدية إعلان ملابس. خرجتُ من المقطورة حينذاك، كأنِّي دُفِعتُ على العتبة من قِبَلِ ركَّابٍ نفد صبرهم. أحسستُ أنِّي مُتجمِّدة على الرَّغم من القيظ الخانق، اللائق بدفيئةٍ أو سرداب.

ظهرت أماليا كلِّيًّا الآن، فتيَّةً ورشيقة، في بهو محطَّةٍ لم يعد لها وجود، مثلها تمامًا. توقَّفتُ لأمنحها الوقت لتنبهر بالأشكال: لثنائيٍّ أنيقٍ يصحبان كلب الذئب بمقوده. أجل. كان الشكلان من الكرتون والخشب، طولهما متران، وسماكتهما أقلّ من سنتمتر، مُثبَّتان بسواري إسناد خلف ظهرهما. تتبَّعتُ تفاصيل اخترتُها عشوائيًّا بهدف تلوينهما وتلبيسهما. بدا لي الرجل أنَّه يرتدي سترةً وبنطلونًا من طراز أمير ويلز، ومعطفًا من وبر الجَمَل، يده مغلولةٌ بقفَّاز ويمسك قفَّازًا آخر، يعتمر قُبَّعةً من اللباد. وربَّما كانت المرأة ترتدي طقمًا داكنًا بشالٍ طويلٍ من قماشٍ أزرق تحت طرحةٍ مُخرَّمةٍ ومُلوَّنةٍ برهافة: على رأسها قُبَّعة مُريَّشة، وعيناها غائرتان خلف الطرحة. وكان كلب الذئب يقعي على رجليْه الخلفيَّتين،

أذناه مُتنبِّهتان، بمحاذاة ساق صاحبه. وكان الثلاثة جميعًا مستقرِّين بمظهرٍ سليمٍ ومبتهج في بهو المحطَّة، التي كانت في زمانها رماديَّةً ومُغبرَّة، مقسومةً نصفيْن بسورٍ حديديٍّ أسود. وعلى بُعد خطواتٍ عن هذه الأشكال، تسقط من الأعلى حزمُ الضوء العريضة على العتبات، فتلتمع على إثرها صفائحُ الترام الجبليّ الخضراء (أو الحمراء؟) عندما ينزلق ببطءٍ خارج النفق المحفور في التلّ.

بدأتُ بنزول العتبات نحو قضبان البوَّابة الآليَّة. ووقع ما تبقَّى خلال لحظاتٍ وجيزةٍ لكنَّها مُوسَّعةٌ بشكلٍ غريب. أمسكني بوليدرو من يدي، بطريقةٍ خرقاء، من تحت معصمي بقليل. كنتُ متأكِّدةً من أنَّه هو حتى قبل أن ألتفت. سمعتُ أنَّه يطلب منِّي التوقُّف. لم أفعل. قال لي إنَّنا نعرف بعضنا بعضًا جيِّدًا، وأنَّه هو ابن نيكولا بوليدرو. ثم أضاف، في حال لم تكن المعلومة كافيةً لاستبقائي: «ابن كازيرتا».

توقَّفتُ. بحيث توقَّفت أماليا أيضًا قبالة تلك الأشكال بفمٍ موارب، وأسنانها البيضاء مصبوغة بأحمر الشفاه قليلًا، حائرةً بين أن تُدلي بتعليقٍ مضحكٍ أو هتاف تعجُّب. كان الثنائيُّ المصنوع من خشبٍ وكرتون، في آخر السلَّم إلى الجهة اليسرى، غير آبهٍ بنظرات الإعجاب. وأنا التي كنتُ أشعر بحضوري بجانبها حتى لو لم أتمكَّن من رؤية نفسي، ظننتُ أنَّ هذين السيِّديْن نسختان عن أصحاب الترام الجبليّ. أناسٌ قادمون من مكانٍ بعيد: كانا استثنائيَّيْن، وخارجيْن عن المألوف، ومختلفين باقترانهما السحريّ حتى إنَّهما يبدوان من أمَّةٍ أخرى. كان عليَّ أن أراهما، قبل

أربعين عامًا، بوصفهما إمكانيَّةً متاحةً للهرب، ودليلًا على وجود أماكن أخرى بوسعنا الذهاب إليها، أنا وأماليا، إذا رغبنا. فكَّرتُ أنَّ أمِّي، لِما بدا عليها من اندماج، تُقيِّمُ مثلي طريقةً للهرب معي. لكنَّ شكًّا بادرني بأنَّها ما توقَّفت هناك إلَّا لأسبابٍ مغايرة: ربَّما لتتأمَّل ملابس المرأة وكيفيَّة تعاملها مع جسدها لا غير. من الوارد أنَّها أرادت أن تستنسخ ملابسها على الثياب التي تُخيِّطها. أو لتتعلَّمَ أن ترتدي هي نفسها على غرار ذلك الطراز، وأن تقف بهذه الوضعيَّة اللبقة بانتظار الترام. شعرتُ بغصَّةٍ لأنِّي بعد عقودٍ كثيرة على تلك اللحظة، أجدني هناك، في تلك الزاوية من تلك المحطَّة، ولا أتمكَّن بأيِّ وسيلةٍ من التفكُّر بأفكارها من داخلها، من داخل أنفاسها. كان في وسع صوتها، حتى منذ ذلك الحين، أن يقول لي: افعلي هذا، افعلي ذاك؛ ولكنْ لم يعد باستطاعتي أن أكون جزءًا من الجوف الذي يستوعب تلك الأصوات ويُقرِّرُ أيُّها التي سترنُّ في العالم الخارجيّ وأيُّها التي ستبقى أصواتًا بلا رنين. شعرتُ بالأسى.

جاء صوت بوليدرو مثل صدمةٍ على هذا الألم. انتفض البهو مثلما كان عليه قبل أربعين عامًا. واتَّضحَ أنَّ الأشكال من غبارٍ مُلوَّن فتحلَّلَت. فبعد أعوام طويلة، اختفت تلك الألبسة والوضعيَّات من العالم. ارتحلَ الثنائيُّ ومعهما الكلب كما لو أنَّهما استاءا من طول انتظارٍ لا طائل من ورائه فقرَّرا العودة إلى القلعة التي في مكانٍ لا أحد يدري أين. بذلتُ جهدًا لإبقاء أماليا واقفةً قبالة لا شيء. زِدْ على ذلك أنَّني انتبهتُ، قبل لحظةٍ من توقُّف بوليدرو عن الكلام، أنَّ الأمور اختلطت عليَّ، وأنَّ طقم

المرأة الكرتونيَّة الداكن وشالها ليسا لها إنَّما لأمِّي. كانت أماليا هي التي تأنَّقت على ذلك النحو الراقي، قبل زمنٍ بعيد، كأنَّها بصدد موعدٍ يهمُّها أمرُهُ كثيرًا. والآن بدت لي بفمٍ موارب، وأسنانٍ مصبوغة بأحمر الشفاه قليلًا، أنَّها لا تُحدِّقُ إلى الشكليْن إنَّما إليه، الرجل صاحب معطف وبر الجَمَل. والرجل يتحدَّث إليها، وهي تجيبه، ثم يعاود التحدُّث إليها، ولم أفهم عمّا يتحادثان.

توجَّهَ بوليدرو إليَّ بنظرةٍ جذَّابة ليرغمني على الاستماع إليه. كنتُ أنظر إليه مفتونةً، لكنِّي لا أستطيع أن أعيره انتباهًا. كان وجه أبيه في شبابه يتراءى من ملامحه الممتلئة، وكان يساعدني من حيث لا يدري على أن أروي لنفسي بأنَّ كازيرتا قابَلَ أمِّي غالبًا في مجال محطَّة كيايا المدمَّر. هززتُ رأسي فظنَّ بوليدرو أنِّي لا أُصدِّقه. وكنتُ في الحقيقة لا أثق بنفسي أنا. عاد ليُكرِّر: «هذا أنا، أنطونيو، ابن كازيرتا». بدأتُ أُدرك أنَّني لا أحتفظ من تلك الأشكال الخشبيَّة والكرتونيَّة في الواقع إلَّا بانطباعٍ عن بلادٍ بعيدة وعهودٍ غير مصانة. كانت تتلألأ مثل أحذيةٍ مُلمَّعة، ولكن من دون تفاصيل. إذ من الممكن أن يكونا أشكالًا إعلانيَّة لرجليْن، أو امرأتيْن، لا فرق؛ ومن الممكن ألَّا يكون بينهما أيُّ كلب؛ ومن الممكن أن يكون تحت أقدامهما مرجٌ أو حصى على السواء؛ لا أتذكَّر حتى ما الذي كانا يُروِّجانه. لم أعد أعرف. فالتفاصيل التي نبشتُها ـ بتُّ متأكِّدة ـ ليست لتلك الأشكال: كانت مُجرَّد تجميعٍ فوضويٍّ لألبسةٍ وإيماءات. أمَّا الصفاء الوحيد فهو لهذا الوجه الجميل الشابّ، الزيتيّ، ذي الشعر الأسود،

انهيال ملامح بوليدرو الابن على ظلٍّ كان فيما مضى لبوليدرو الأب. كان كازيرتا يتحدَّث بلباقةٍ إلى أماليا، ممسكًا بيد ابنه أنطونيو الذي في عمري تمامًا؛ وأمِّي تُمسك يدي، دون أن تنتبه ليدي التي في يدها بالتأكيد. كنتُ أعرف فم كازيرتا الذي يتحرَّك بسرعة وأرى لسانه، أحمر، مع اللجام الذي يربطه لمنعه من الاندفاع نحو أماليا أكثر ممَّا كان يحاول فعله حقًّا. أدركتُ أنَّ الرجل الكرتونيّ، الذي في رأسي، ارتدى ملابس كازيرتا وأنَّ رفيقته ارتدت ملابس أمِّي. كانت القُبَّعة المُزوَّدة بالريش والطرحة قد أقلعت من حفل زفافٍ مجهول، لتسافر طويلًا، وتهبط هناك. أجهل مصير الشال لكنِّي أعلم أنَّه ظلَّ أعوامًا حول عنق أمِّي وكتفيْها. أمَّا الطقم، فقد خُيِّطَ وتفكَّكَ وقُلِّبَ مرارًا، وهو نفسه الذي ارتدته أماليا عندما استقلَّت القطار إلى روما لتحتفل بعيد ميلادي. كم من الأشياء تعبر الزمن إذ تُنزَعُ عشوائيًّا من أجساد الأشخاص وأصواتهم. كانت أمِّي تُجيد فنون إطالة أمد الألبسة إلى الأبد.

قلتُ لبوليدرو في النهاية، وفاجأتُهُ بنبرةٍ دمثةٍ لم يكن يتوقَّعها، بعد ممانعةٍ صامتة:

«أتذكَّرُ جيِّدًا. أنت أنطونيو. كيف لم أعرفك فورًا؟ ما زالت عيناك مثلما كانتا في السابق».

ابتسمتُ له لأُبيِّنَ أنِّي لستُ مجافيةً بحقِّه، ولكي أفهم كذلك ما إذا كان مجافيًا بحقِّي. حدَّقَ إليَّ مرتبكًا. رأيتُهُ يستعدُّ للانحناء ليُقبِّلني من وجنتي لكنَّه امتنع كأنَّ شيئًا فيَّ قد أثار نفوره.

«ما بك؟» سألتُ رجلَ متجر ڤوسّي، بعد أن انقضى احتقان اللقاء الأوَّل، كان ينظر إليَّ بتهكُّمٍ طفيف «ألم يعد يعجبك فستاني؟»

حسم بوليدرو أمره بعد لحظة تردُّد. ضحك وقال لي:

«انظري ما حلَّ بكِ. ألم تري نفسكِ؟ تعالي، لا يمكنكِ أن تتجوَّلي وأنتِ بهذه الحال».

XVI

دفعني نحو المخرج، ثم نحو محطَّة سيَّارات الأجرة مهرولًا. احتشدت الناس التي فاجأها المطرُ تحت مظلَّات المترو. كانت السماء سوداء، والريح تهبُّ عاتيةً لتدفع ستارةً من ماءٍ ناعمٍ وكثيف يهطل بشكلٍ مائل. أصعدني بوليدرو إلى تاكسي تفوح برائحة التبغ. كان يتكلَّم بطلاقةٍ وثقة، لم يفسح لي مجالًا، كأنَّه متيقِّنٌ من أنِّي سأُبدي اهتمامًا كبيرًا بما يقوله حتمًا. لكنِّي كنتُ أسمعه أو أكاد، عاجزةً عن التركيز. تملَّكني انطباعٌ بأنَّه يُعبِّرُ بلا هدفٍ واضح، بلباقةٍ يؤدِّيها بعصابيَّةٍ لا نفع لها عنده سوى لاحتواء قلقه. ولم أشأ أن يعديني بها.

اعتذر نيابةً عن أبيه، بنبرةٍ جادَّة. قال إنَّه لم يعد يعرف ما الذي ينبغي فعله: الشيخوخة أتلفت عقله نهائيًّا. لكنَّه ما لبث أن أكَّدَ لي بأنَّ العجوز ليس خطيرًا وليس شرِّيرًا حتى. إنَّما كان يخرج عن السيطرة، هذا صحيح: جسمه سليمٌ وقويّ، يتسكَّعُ طوال

الوقت، ومن المستحيل لجمُهُ. وكلَّما استطاع أن يختلس منه بعض المال، اختفى طيلة أشهر. وهمَّ بتعداد أمينات الصندوق اللواتي اضطرَّ إلى إقالتهنَّ لأنَّ أباه إمَّا أفسدهنَّ وإمَّا احتال عليهنَّ.

وبينما كان بوليدرو يتحدَّث، كنتُ أشمُّ رائحته: ليست رائحته الحقيقيَّة المشبعة بروائح العرق والتبغ التي تهيمن على التاكسي؛ إنَّما رائحةٌ مُبتَكَرة انطلاقًا من روائح دكَّانة الحلويات والبهارات حيث غالبًا ما لعبنا معًا. كانت الدكَّانة لجدِّهِ، وتقع على مسافة بضع كتلٍ سكنيَّةٍ عن البناية التي كان والداي يسكنان فيها. لافتتها من خشب، زرقاء، وعلى جوانب اسمها «منتجات من المستعمرات» ثمَّة نخلةٌ وامرأةٌ سوداء ذات شفتيْن من حمرةٍ فاقعة. تلك اللافتة، رسمها والدي وهو في عامه العشرين. وقد رسم المصطبة في الداخل أيضًا، بصبغةٍ تُسمَّى أرض سيينا المحروقة، التي أفاد منها لرسم الصحراء. وفي الصحراء وضع نخلاتٍ كثيرة، وجمليْن، ورجلًا بسترة سفاري وجزمة، وشلَّلاتٍ من القهوة، وراقصاتٍ إفريقيَّات، وسماءً من صبغة اللازورد، وهلالًا. وكان من السهل الوصول قبالة ذلك المنظر. إذ كان الأطفال يحيون في الطرقات، بلا رقابة: كنتُ أبتعد عن فِناء الدار، أنعطف عند الزاوية، أدفع الباب الخشبيَّ والمزوَّدَ بزجاجٍ في جزئه الأعلى وعارضة حديديَّة مُثبَّتة قُطريًّا، وسرعان ما يرنُّ جرسٌ. فأدخل وينغلق الباب خلفي. كانت حوافّه محشوَّةً بالقماش أو ربَّما مكسوَّةً بالمطَّاط لئلَّا يُصفَقَ البابُ ويُحدِثَ دويًّا. رائحة المكان تضوع بالقرفة والقشطة. وعند العتبة هنالك صرَّتان بجوانب ملفوفة، تطفحان بالبنّ. وفي الأعلى، على رخام

المصطبة، أوعيةٌ من زجاجٍ مشغول، برسوماتٍ نافرة، يتراءى منها المُلبَّسُ الأبيض والأزرقُ والورديّ، وسكاكرُ الحليب الليِّنة، وحبَّاتُ سكَّرٍ متعدِّدة الألوان تذوب في الفم وتنسكب على اللسان بسائلٍ حلو المذاق، وأعوادُ عرق السوس السوداء، بأربطةٍ محلولة أو معقودة، على هيئة سمكة أو زورق. وبينما كان التاكسي يقارع الريح، والمطر، والشوارع المغمورة، وزحمة السير، أخفقتُ في مواءمة اشمئزازي من لسان كازيرتا الأحمر، والألعاب المُشوِّقة مع أنطونيو الطفل، والعنف والدم اللذين نَجَما عنها، مع تلك الرائحة الواهنة التي احتفظ بها بوليدرو في أنفاسه.

كان حينذاك يحاول أن يُبرِّرَ لأبيه. صحيحٌ أنَّه يزعج الناسَ في بعض الأحيان ـ قال لي ـ ولكنْ لا بأس بالصبر: فمن دون الصبر يغدو العيش في هذه المدينة صعبًا. لا سيَّما أنَّ العجوز لا يُسبِّبُ أضرارًا بالغة. لا يُلحِقُ الضررَ الأكبر بالغريب، إنَّما ينهال به على متجر ڤوسّي، إذ يتحرَّش بالزبونات. فكانت عينا بوليدرو تحتقنان دمًا ولو أنَّه أمسكه بين يديه لنسيَ أنَّه والده. سألني إن كان أبوه قد أزعجني. هل من المعقول أنَّه لم يدرك أنَّني ابنة أماليا؟ استغرق بضع دقائق ليستجمع أفكاره: لا يمكنني أن أتخيَّلَ مدى سروره برؤيتي من جديد. كان قد ركض خلفي لكنَّني كنتُ قد اختفيتُ. ثم رأى أباه، وهذا ما أفقَدَهُ رشده. لا، لا يمكنني أن أفهم. فهو يخاطر بحاضره ومستقبله، في متجر ڤوسّي. هل أصدِّقُه إنْ قال إنَّه لا يملك لحظة استراحة؟ لكنَّ والده لا يستوعب حجم الاستثمار الاقتصاديّ والعاطفيّ الذي يضخُّهُ في هذا المشروع. لا، لا يستوعب. بل كان يُؤزِّقُهُ بمطالبته بالمال

باستمرار، ويُهدِّدُهُ ليلًا نهارًا على الهاتف ويتحرَّش بزبوناته عمدًا. ومن جهةٍ أخرى، لا يجدر بي أن أظنَّ أنَّه دومًا على الحال التي رأيتُهُ عليها في الترام. فالعجوز، عند الضرورة، يعرف كيف يبدو حَسَنَ السلوك، ويظهر بمظهر السيِّد الراقي، بحيث إنَّ النساء يصغين إليه. وحالما يُبدِّلُ أساليبه تحلُّ المصائب. كان يخسر أمواله بسبب أخطاء أبيه، ولكنْ ماذا عليه أن يفعل؟ هل يقتله؟

وكنتُ أردُّ عليه بلا تركيز: نعم، بالتأكيد، كلَّا، إطلاقًا. كنتُ مستاءة. ثيابي مبلَّلة. نظرتُ إلى نفسي في المرآة الجانبيَّة، ورأيتُ أنَّ المطر ذوَّبَ قناعَ المكياج. بدت بشرتي نسيجًا مبرغلًا وحائلًا، تخترقه جداولُ الماسكارا السوداء والكحليَّة. شعرتُ بالبرد. آثرتُ العودة إلى بيت خالي، لأعرف ما الذي حدث له، وأطمئنَّ، وأتحمَّمَ بماءٍ ساخن، وأستلقي. لكنَّ ذلك الجسد المكتنز بجانبي، المنفوخ بالمأكولات والمشروبات والقلق والنقمة، الذي يدفن في داخله طفلًا يفوح بروائح القرنفل اليابس، وعسل الأزهار المتنوِّعة، وجوزة الطيب العطرة، والذي لعبتُ معه في صغري في السرِّ، كان يثير فضولي أكثر من الكلمات التي يلفظها. استبعدتُ أن يروي عليَّ أشياء لم أروها على نفسي. لم أُعوِّل عليه. لكنَّ رؤيةَ تلك اليديْن الضخمتيْن، العريضتيْن والغليظتيْن، وتذكُّرَ كيف كانتا في طفولته، والشعورَ بأنَّهما ما زالتا على حالهما حتى من غير احتفاظهما بأيِّ أثرٍ من ذلك الزمن، كلُّ هذا كان يمنعني حتى من أن أسأله إلى أين نحن ذاهبان. أحسستُ بجواره أنَّ حجمي يصغر، وأنَّ لي نظرةً وقامةً لم أعهدهما منذ زمن. ها إنِّي أُحاذي الصحراء المرسومة على امتداد

مصطبة المقهى ـ البقّاليَّة، أزيح ستارةً سوداء وأدخل إلى جوٍّ مختلف، حيث لا تصل كلماتُ بوليدرو. هنا جدُّهُ، والد كازيرتا، برونزيُّ البشرة، أصلع لكنَّ قحفَ رأسه غامق، وبياض عينيْه أحمر، وجهه طويل، وفي فمه أسنانٌ قليلة. وكان محاطًا من حوله بعدَّة آلاتٍ غامضة. إحداها، شكلها مُمدَّد، سماويَّة اللون، تجتازها عارضةٌ لامعة، لصنع المثلَّجات. وكان بالأخرى يضع القشطة الصفراء في حوضٍ تدور فيه ذراعٌ آليَّة. وفي عمق المحلّ فرنٌ كهربائيٌّ بثلاثة أدراج، كوُّاتُهُ مظلمة عندما يكون مطفأ، ومقابضه سوداء. وخلف المصطبة الرخاميَّة، كان جدُّ أنطونيو، عابسًا، صموتًا، يضغط قِمعًا قماشيًّا ببراعة، فتخرج القشطة من منقاره المسنَّن. وكانت القشطة تتمدَّد على المعجَّنات ومدار قوالب الحلوى مُخلِّفةً أثرًا مُتموِّجًا بديعًا. كان يعمل ويتجاهلني. فأشعر بغبطةٍ أنّي خفيَّة. أغمس إصبعًا في حوض القشطة، آكل كعكةً، أسرق المُلبَّس الفضّيّ. فلا يرفُّ له رمش. إلى أن يظهر أنطونيو، يغمزني ويفتح باب القبو، من خلف جدّه. وهناك، في مكان العناكب والعفن ذاك، كان غالبًا ما يتراءى كازيرتا بمعطف وبر الجَمَل، وأماليا بالطقم الداكن، بقُبَّعةٍ وطرحةٍ وأحيانًا، وبدونهما أحيانًا، يتراءيان مئة مرَّةٍ مُتتابِعة وفي غضون ثواني. كنتُ أراهما وأحاول أن أغمض عينيَّ.

«لم يكن والدي على ما يرام إلَّا في هذه السنة» قال بوليدرو بنبرة مَن يتجهَّز للتضخيم علَّهُ يكسب بعضًا من إحسان المستمع «أماليا كانت إلى جانبه، وكانت تعامله بلطفٍ وتفهُّمٍ ما كنتُ لأتوقَّعهما».

وفي الحقيقة ـ تابع مُغيِّرًا نبرته ـ إنَّ العجوز اختلس منه أموالًا كثيرة ليرتدي ثيابًا فاخرة تليق بعارض أزياء، ليُبدي انطباعًا حسنًا في نظر أمِّي. لكنَّ بوليدرو لم يكن يشتكي بشأن تلك الأموال، إنَّما لأنَّ أباه أصابه بموقع آخر. وبات يخشى أن يُقحِمَ نفسه في أهوالٍ أشدّ وطأة قريبًا. كلَّا، تلك مصيبةٌ كبرى: ما كان لأماليا أن تفعل ما فعلت. أن تغرق. لماذا؟ خسارة، خسارة. موتها محنةٌ رهيبة.

بدا بوليدرو عندئذٍ مُثقَلًا بذكراه عن أمِّي، وأخذ يعتذر على عدم مجيئه إلى الجنَّاز، وعلى عدم تعزيتي.

«كانت امرأةً استثنائيَّة» ردَّدَ مرارًا، ومن المحتمل أنَّهما لم يتحادثا على الإطلاق. ثم سألني:

«هل تعلمين أنَّها وأبي كانا يتلاقيان؟»

أجبتُهُ بنعم، وأنا أنظر إلى الخارج عبر النافذة. كانا يتلاقيان. رأيتُ نفسي على سرير أمِّي، وأنا أُمعِن النظر مشدوهةً إلى مهبلي بواسطة مرآةٍ صغيرة. أن يرى المرء نفسه: نظرت إليَّ أماليا، مُتردِّدة، ثم أغلقت باب غرفة النوم على مهل.

كان التاكسي حينذاك يحاذي الطريق الساحليَّة، الرماديَّة والمزدحمة: زحمةٌ كثيفةٌ وسريعة، يضربها المطر والريح. وكان البحر يرفع أمواجًا عالية. نادرًا ما رأيتُ، منذ صباي، عاصفةً بحريَّةً هوجاء كهذه في الخليج. تشبه المبالغات الساذجة التي يُصوِّرُها والدي. الأمواج تنهض قاتمةً، وقممها بيضاء، تتسلَّقُ حاجز الصخور الشاطئيَّة بسهولة، ليبلغ رذاذُها الرصيفَ في بعض

الأحيان. جمع المشهدُ حشودَ الفضوليِّين الذين كانوا يصيحون، تحت غابات المظلَّات، وهم يشيرون إلى قمم الزبد في اللحظة التي ينهال فيها الموج بألف شظيَّة ما وراء الصخور.

«أجل، أعلم» ردَّدتُ بيقينٍ أعظم.

سكت لحظة، مستغربًا. ثم راح يُحدِّثني عن حياته: حياةٌ سيِّئة، زواجُهُ مُدمَّر، لديه ثلاثة أبناء لا يراهم منذ عام، حياةٌ قاسية. لم تتحسَّن إلَّا مؤخَّرًا. كان يُحقِّقُ نجاحًا. وأنا؟ هل تزوَّجتُ؟ هل لديَّ أبناء؟ لِمَ لا؟ هل أُفضِّلُ أن أعيش حرَّةً ومُستقلَّة؟ هنيئًا لي. سأستعيد رونقي بعد قليل وسنتغدَّى معًا. عليه أن يقابلَ أصدقاءً مُعيَّنين، ولكنَّه دعاني لمرافقته عمومًا، إن لم يكن لديَّ مانع. إلَّا أنَّ وقته ضيِّق، هذه حال العمل في متجر. سنجد فرصةً للحديث لاحقًا، إن تحلَّيتُ بالصبر.

«هل يناسبكِ؟» تذكَّرَ أن يسألني أخيرًا.

ابتسمتُ إليه متناسيةً حال وجهي، ونزلتُ من التاكسي وتبعتُهُ، وقد أعشتني الأمطار والريح، واضطررتُ إلى الإسراع لأجاري خطواته إذ كان يشبك ذراعي بيده. دفع بابًا وسيَّرَني أمامه كما لو كنتُ رهينة، دون أن يُخفِّفَ قبضته. وجدتُ نفسي في بهو فندقٍ ذي أُبَّهةٍ مُهمَلة، وثراءٍ مُغبرٍّ عبث به السوس. وعلى الرَّغم من الخشب الثمين والمخمل الأحمر، بدا لي المكان بائسًا: أضواؤه خافتةٌ كثيرًا بالنسبة إلى يوم رصاصيٍّ كهذا، همهمةٌ كثيفة لأصواتٍ بلكناتٍ لهجويَّة، قرقعةُ صحونٍ وأدوات طعام آتيةٌ من صالةٍ كبرى على شِمالي، وحراكُ نُدُلٍ يتبادلون شتائم بذيئة، ورائحةُ مطبخٍ ثقيلة.

«هل موقّا موجود؟» سأل بوليدرو موظَّف الاستقبال باللهجة المحلِّيَّة. فأجابه بإيماءةٍ جامدة تعني: موجود وكيف لا؛ إنَّه هنا منذ مدَّة. تركني بوليدرو وذهب مُتعجِّلًا إلى مدخل الصالة حيث الوليمة. فانتهز موظَّف الاستقبال الفرصة ليرميني بنظرةٍ اشمئزاز. رأيتُ نفسي في مرآةٍ عموديَّةٍ كبيرة يحفُّها إطارٌ مُذهَّب. كنتُ أرتدي الفستان الخفيف. أبدو نحيفةً جدًّا وعضلاتي واضحة في الوقت ذاته. شعري ملتحمٌ بقحف رأسي لكأنَّه مرسوم. وجهي يبدو مُتفسِّخًا جرَّاء مرضٍ جلديٍّ خبيث، داكنًا بفعل ذوبان الماسكارا حول عينيَّ، ومُقشَّرًا عند وجنتيَّ. أحمل بيدي المجهَدة كيس البلاستيك الذي حشرتُ فيه كلَّ الأغراض التي وجدتُها في حقيبة أمِّي.

عاد بوليدرو ممتعضًا. ففهمتُ أنَّه تأخَّرَ عن موعده بسبب أبيه أو بسببي ربَّما.

«ماذا أفعل الآن؟» قال لموظَّف الاستقبال.

«اجلسْ، كُلْ، وعندما ينتهي الغداء تكلَّمْ إليه».

«ألا يمكنك أن تجد لي مكانًا على مائدته؟»

«غبيٌّ أنت» قال الرجل. وأخذ يشرح بنبرةٍ مُتهكِّمة، كمن يقول بديهيَّات على مسامع عديمي الفهم، أنَّ مائدة موقّا كان عليها أساتذة جامعيُّون، عميد الجامعة، العمدة، مستشار الثقافة، وزوجاتهم. من غير الوارد إيجاد مكانٍ على تلك المائدة.

نظرتُ إلى صديق طفولتي: بلَّلَهُ المطر هو كذلك وساء مظهرُهُ. رأيتُ أنَّه يبادلني النظرة مُحرَجًا. كان متوتِّرًا، تتجلَّى على

وجهه ملامح الطفل الذي أذكره وسرعان ما تختفي. أشفقتُ عليه ولم أكن مسرورةً بوضعه. فابتعدتُ نحو صالة الطعام لعلَّهُ يُشاجِر موظَّفَ الاستقبال دون أن يضطرَّ إلى مراعاة وجودي معه.

استندتُ إلى الفاصل الزجاجيّ المؤدِّي إلى المطعم، حريصةً على ألَّا يصدمني النُدُل في مجيئهم وذهابهم. بدا لي مستوى الأصوات وقرقعة أدوات الطعام لا يُطاق. كنتُ أشهد على غداء افتتاحيّ، أو ربَّما ختاميّ، لمؤتمرٍ أو ندوةٍ ما. بحضور مئتي شخص على أقلٍّ تقدير. ذُهِلتُ بعدم المساواة الفاضحة بين الجلساء. بعضهم موقَّرون، مُستغرِقون، غير مرتاحين، مُتهكِّمون أحيانًا، ومذعنون أحيانًا أخرى، وفي العموم أنيقون باعتدال. وبعضهم واجمون، يتخبَّطون بين الأكل والثرثرة، أثقلوا أجسادهم بكلِّ ما يمكن أن يشير إلى إنفاق المال بغزارة. وكان من اختصاص النساء تلخيص الفروقات بين أزواجهنَّ. نحافةٌ محبوسةٌ بأطقمٍ من صناعةٍ فاخرة، يتغذَّيْن بتقتيرٍ شديد ويتألَّقن بابتساماتٍ محترَمة، ويجلسن بجوار أجسادٍ مُتضخِّمة، محصورةٍ ببدلاتٍ باهظة الثمن بقدر ما هي صارخة، مُلوَّنة وتلتمع بالذهب والمجوهرات، صامتين على وشك الانفجار، أو مهذارين وضاحكين.

لا تتيح زاويتي إدراكَ ماهيَّة المكاسب والتواطؤ وحسن النوايا التي قد تجمع أناسًا مختلفين إلى هذه الدرجة على مائدةٍ واحدة. وما كنتُ مُهتمَّةً بمعرفة ذلك من ناحيةٍ أخرى. سوى أنِّي صُدِمتُ بأنَّ الصالة بدت أحد الأماكن التي تخيَّلتُ في طفولتي أنَّ أمِّي تهرب إليها حالما تخرج من المنزل. فلو أنَّ أماليا دخلت بطقهما

الأزرق الذي اشترتْهُ منذ عقود، والشال ذي الألوان الرهيفة والقبَّعة بالطرحة، تشبك ذراع كازيرتا الذي يرتدي معطف وبر الجمل، لكانت ستضع ساقًا فوق ساق بشكلٍ ملحوظ وبكلِّ تأكيد، وكانت عيناها ستقدحان شررًا يمينًا شِمالًا بابتهاج. كنتُ أظنُّ أنَّها تذهب إلى حفلات طعام ومرحٍ كهذه عندما كانت تترك المنزل من دوني وأكون واثقةً من أنَّها لن تعود أبدًا. كنتُ أتخيَّلُ أنَّها مُحمَّلةٌ بالذهب والفضَّة، تأكل بلا حياء. كنتُ متأكِّدةً من أنَّها هي الأخرى، ما إن تخرج من المنزل، تستلُّ من فمها لسانًا أحمر طويلًا. كنتُ أبكي في حُجرة المهملات، بجانب غرفة النوم.

«سيعطيكِ المفتاح الآن» قال لي بوليدرو مُتكلِّمًا من خلف ظهري، وقد تخلَّى عن لباقته، بل تكلَّمَ بأسلوبٍ فظّ «تضبطين هيئتكِ وتلحقين بي إلى تلك الطاولة هناك».

رأيتُهُ يجتاز الصالة، ويمرُّ بجانب مائدةٍ طويلة، ويُوجِّهُ تحيَّة تبجيل إلى رجلٍ كبيرٍ في السنِّ يُكلِّمُ بصوتٍ هامسٍ سيِّدةً أنيقة، موقَّرة، شعرها فيروزيّ، وتسريحتها لم تعد رائجة. تجاهل الرجلُ التحيَّة. نظر بوليدرو إلى جهةٍ أخرى حانقًا وذهب ليجلس، موليًا إليَّ ظهره، إلى طاولةٍ عليها رجلٌ بدين، أسود الشاربيْن، وامرأةٌ مُتزيِّنة كثيرًا، فستانها ضيِّقٌ بحيث صعدت أهدابُهُ إلى فوق ركبتيْها، يلتهمان طعامهما بصمتٍ وامتعاض.

لم تعجبني الطريقة التي تحدَّثَ بها إليَّ. كانت نبرة صوته لمن يقرُّ تدابير ولا يتقبَّلُ ردودًا. فكَّرتُ أن أجتاز الصالة وأقول لرفيق ألعابي السابق إنَّني سأُغادر. لكنَّني أحجمتُ عن ذلك نظرًا إلى مظهري وتلك الصيغة: رفيق ألعاب. أيُّ ألعاب؟ لم يكن بيننا

ألعابٌ سوى تلك التي أردتُ التحقُّق بها ممَّا إذا كنتُ أُجيدها مثلما تصوَّرتُ أنَّ أماليا تلعبها في الخفاء. كانت أمِّي تدوس طوال اليوم على ماكينة الخياطة مثل درَّاجٍ فارّ. تعيش في المنزل صاغرةً وزاهدة، مخفيةً شعرها وشالاتها وملابسها. لكنِّي كنتُ مثل والدي تمامًا أظنُّ أنَّها تضحك خارج المنزل بطريقةٍ مختلفة، وتتنفَّسُ بطريقةٍ مختلفة، وتُناغِمُ حركات جسمها بحيث تجعل الجميع بأعينٍ منبهرة. كانت تنعطف عند الزاوية وتدخل إلى دكَّانة جدّ أنطونيو. تدور حول المصطبة، تأكل الحلويَّات والملبَّس الفضِّيّ، تترنَّح بين القدور والقوالب من دون أن تُوسِّخَ نفسها. ثم يأتي كازيرتا، يفتح الباب الحديد وينزلان معًا إلى قاع القبو. هناك حيث تنثر أمِّي شعرها الأسود الطويل، فيمتلئ الهواء المعتم والفائح برائحة التراب والعفن، يمتلئ بالبريق بفضل هذه الحركة الخاطفة. ثم ينبطحان معًا على الأرض ويزحفان ضاحكيْن. ويصبح القبو مثل مجالٍ فارغٍ وطويلٍ فعلًا، لكنَّه منخفض السقف. لا يمكن التقدُّم فيه إلَّا على أربع، بين حطام الخشب والحديد، وصناديق كثيرة ومليئة بالزجاجات القديمة لمعجون الطماطم، وأنفاس الخفافيش وصفير الفئران. كان كازيرتا وأمِّي يزحفان وهما يُحدِّقان إلى نوافذ الضوء البيضاء والكبيرة التي تنفتح على فتراتٍ منتظمة على شِمالهما. وهي عبارةٌ عن منافذ للتهوية تتخلَّلها تسعة قضبان ومحجوبة بشبكةٍ منعًا لتسلُّل الفئران. وكان الأطفال، من الخارج، يُحدِّقون إلى الظلام وآبار الضوء، فتنطبع آثار الشبكة على أنوفهم وجباههم. أمَّا الثنائيّ، من الداخل، فكانا يراقبانهم ليتأكَّدا من أنَّهم لا يرونهما. وحالما يستتران

بالأنحاء الأشدّ ظلمةً، يتلمَّسُ كلٌّ منهما بين فخذي الآخر. وكنتُ في أثناء ذلك ألهو كي لا أبكي، وألتهم السكاكر اللذيذة، وعرق السوس، والقشطة المقحوطة من قعر الحوض التي صُنِعَت فيه، طالما أنَّ جدَّ أنطونيو لا يُبدي نيَّةً لمنعي عن ذلك، ولأنَّه كان يأمل أن ينتقم من أماليا بتعريضي للموت بسبب عسر الهضم.

«208، في الطابق الثاني» قال لي الخادم. أخذتُ المفتاح ورفضتُ المصعد. ابتعدتُ بخطواتٍ متثاقلة وصعدتُ عتباتٍ عريضةً، على امتدادها سجَّادةٌ حمراء مُثبَّتةٌ بأوتادٍ ذهبيَّة.

XVII

كانت الغرفة 208 رديئة كأنَّها في فندقٍ من الدرجة الثالثة. تقع في آخر ممرٍّ أعمى ذي إضاءةٍ سيِّئة. وتجاور حُجرةً مفتوحةً بلا اكتراث ومليئةً بمكانس القشّ والعربات والمكانس الكهربائيَّة والبياضات المتَّسخة. وكانت الجدران مُصفرَّة اللون، وفوق السرير الزوجيّ أيقونةُ عذراء بومبي حاملةً غصن زيتون يابس ومربوط بين المسمار والمثلَّث الحديديّ الذي يسند الصورة المؤطَّرة. أمَّا مقعدة المرحاض، خلافًا لمزاعم الفندق بأنَّها مختومة، فكانت قذرة كما لو أنَّها استُخدِمَت منذ قليل. وسلَّة المهملات ليست مُفرَّغة. وما بين السرير الزوجيّ والجدار ممرٌّ يفضي إلى النافذة. فتحتُها مؤملةً بأنَّها تشرف على البحر، وبطبيعة الحال كانت تطلُّ على فِناءٍ داخليّ. رأيتُ أنَّ السماء لم تعد تمطر.

حاولتُ في البداية أن أتَّصل. جلستُ على السرير وتجنَّبتُ

النظر إلى المرآة قبالتي. رنَّ الهاتف طويلًا لكنَّ خالي لم يردّ. ففتَّشتُ في الكيس البلاستيكيّ الذي حشرتُ فيه الأغراض التي كانت أمِّي قد وضعتها في حقيبتها، أخرجتُ المنامة ذات لون بودرة الوجه والفستان الأزرق القصير جدًّا. تجعَّدَ الفستان إذ كان محشورًا في الكيس بصورةٍ عشوائيَّة. ففردتُهُ على السرير ومسَّدتُهُ بيديَّ. ثم حملتُ المنامة وذهبتُ إلى الحمَّام.

تعرَّيتُ ونزعتُ السدَّادة القطنيَّة: بدا الحيض أنَّه توقَّفَ فجأة. لففتُها في منديلٍ صحِّيٍّ ورميتُهُ في السلَّة. تحقَّقتُ من حوض الاستحمام: كان فيه زغبٌ مقرفٌ وأسود مُوزَّعًا على الجوانب البورسلان. رششتُ الماء طويلًا قبل أن أدخل تحت الدوش. لاحظتُ بسرورٍ أنَّني أستطيع التحكُّم بحاجتي إلى العجلة. انفصلتُ عن نفسي: المرأة التي كانت تودُّ أن تُطرَدَ بعينيْن جاحظتيْن، كانت مُراقَبةً بفتورٍ من قِبَلِ المرأة التي تحت الماء. استعملتُ الصابون بعناية، بحيث تنتمي كلُّ حركةٍ إلى عالم خارجيٍّ ليس فيه مُهَل. لم أكن أتعقَّبُ أحدًا ولا أحد كانَ يتعقَّبني. لا أحد كان ينتظرني ولا كنتُ أنتظر زيارةً من أحد. شقيقتاي انصرفتا إلى الأبد. أبي جالسٌ في منزله القديم أمام مسند اللوح ويرسم غجريَّات. وأمِّي التي غدت منذ أعوام مجرَّد عبءٍ ثقيل، ووسواسٍ مُؤرِّقٍ أحيانًا، ماتت. لكن بينما كنتُ أفرك وجهي بقوَّة، حول عينيَّ خاصَّةً، أدركتُ بحنانٍ غير مُتوقَّعٍ أنَّ أماليا خلافًا لذلك كانت تسكن تحت جلدي، مثل سائلٍ دافئٍ لا أدري متى حُقِنتُ به.

عصرتُ شعري المبلَّل جيِّدًا حتى نشف تقريبًا، وتحقَّقتُ في

المرآة ما إذا تبقَّى شيءٌ من الماسكارا على رموشي. رأيتُ أمِّي هكذا مثلما ظهرت في هويَّتها الشخصيَّة فابتسمتُ لها. ثم ارتديتُ منامة الساتان، وللمرَّة الأولى في حياتي، وعلى الرَّغم من ذلك اللون الكريه، تملَّكني انطباعٌ بأنِّي جميلة. أحسستُ ـ دون مُسوِّغٍ صريح ـ بالدهشة المحبَّبة نفسها التي كانت تنتابني حين أعثر على هدايا تخفيها أماليا في أماكن لا تخطر على بال متظاهرةً بأنَّها نسيتْ تواريخ أعيادها وأسباب الاحتفال بها. كانت تجعلنا نتشوَّق إلى أن تخرج الهديَّةُ بغتةً من إحدى زوايا الحياة اليوميَّة التي لا شأن لها بفرادة المكافأة. وعندما ترانا سعيدات تصبح أسعد منَّا.

ففهمتُ على حين غرَّة أنَّ محتوى الحقيبة لم يكن مُوجَّهًا إليها إنَّما إليّ. فالأكذوبة التي رويتُها على البائعة في متجر ڤوسّي كانت هي الحقيقة عينها في واقع الحال. بل وحتى الفستان الأزرق الذي ينتظرني على السرير كان من مقاسي بما لا يقبل الشكّ. استوعبتُ الأمر دفعةً واحدة كما لو أنَّ المنامة التي على جلدي هي التي تُخبرني به. وضعتُ يديَّ في الجيبيْن، واثقةً من أنَّني سأجد في أحدهما بطاقة تهنئة. ووجدتُها بالفعل، تتأهَّبُ لتفاجئني. فتحتُ الظرف وقرأتُ خطَّ أماليا الابتدائيّ، بتلك الأحرف المنمَّقة التي ما عاد أحدٌ يُجيد كتابتها: «عيدَ ميلادٍ سعيدًا يا ديليا. أمُّكِ». وسرعان ما لاحظتُ أنَّ أصابعي متَّسخةً بالرمل قليلًا. أعدتُ يديَّ إلى الجيبيْن واكتشفتُ أنَّ في عمقهما طبقةً خفيفةً من الرمل. كانت أمِّي قد ارتدت هذه المنامة قبل أن تغرق.

مكتبة
t.me/soramnqraa

XVIII

لم ألحظ أنَّ الباب كان ينفتح. لكنِّي أحسستُ بأنَّ أحدًا يقفله مرَّةً أخرى. نزع بوليدرو سترته ورماها على كرسيّ. وقال بالعامِّيَّة:

«لن يعطوني ليرةً واحدة».

نظرتُ إليه حائرةً. لم أفهم عمَّا كان يتحدَّث: قرضٌ مصرفيّ، أو استدانةٌ بالربا، أو ربَّما رشوة. بدا أنَّه زوجٌ مُنهَك يحلو له أن يقصَّ عليَّ أهواله كما لو كنتُ زوجته. وبعد أن نزع سترته رأيتُ قميصه المنفوخ عند حزام بنطلونه، وصدره وثدييه العريضيْن والثخينيْن. حضَّرتُ نفسي لأطالبه بالخروج من الغرفة.

«بالمقابل يريدون أن أُعيد لهم النقود التي سلَّفوني إيَّاها» تابع المونولوج من الحمَّام ووصلني صوتُهُ عبر الباب المفتوح

مصحوبًا بقرقرة البول في المرحاض «ذهب أبي ليطلب النقود من موفّا دون أن يُبلِّغني. يريد استعادة مخبز الحلويات في شارع جانتوركو، وما أدراني ما الذي ينوي فعله به، وهو في هذه السنّ. وقد تفوَّهَ بالأكاذيب كعادته. بحيث إنَّ موفّا لن يثق بي بعد. يقول إنَّني أخفق في إيقاف العجوز عند حدِّه. سيسحبون منِّي المتجر».

«أما كنَّا نريد أن نتغدَّى معًا؟» سألتُ.

مرَّ أمامي كأنَّه لم يسمعني. اتَّجه إلى النافذة وأخفض دفَّاتها الخشبيَّة. ولم يبقَ سوى الضوء الخافت الآتي من باب الحمَّام المفتوح.

«لقد استرحتِ أكثر من اللازم» أنَّبني في النهاية «هذا يعني أنَّ الغداء سيفوتكِ: ففي الرابعة عليَّ أن أفتح المتجر من جديد، ليس لديَّ وقتٌ كثير».

نظرتُ تلقائيًّا إلى العقارب الفوسفوريَّة للساعة: الثالثة إلَّا عشر دقائق.

«دعني أرتدِ ثيابي» قلتُ.

«مظهركِ لائقٌ هكذا» أجاب «ولكنْ، حضِّري نفسكِ لتعيدي إليَّ كلَّ شيء: الثياب، والمنامة، والسراويل».

بدأتُ أشعر أنَّ قلبي يخفق. لم أكن أطيق لهجته، والعدائيَّة التي تفوح منها. كما أنِّي لم أعد أرى تعبير وجهه، الأمر الذي لا يساعدني على إدراك إلى أيِّ حدٍّ كان يستعرض نموذجه الرجوليّ البدائيّ جدًّا، وإلى أيّ حدٍّ يُجسِّدُ هذا النموذج مساعٍ

حقيقيَّةً لاستخدام العنف. لم أرَ إلَّا طيفه القاتم وهو يفكُّ ربطة العنق.

«هذه أغراضي» اعترضتُ ونطقتُ كلماتي بدقَّة «أهدتها لي أمِّي من أجل عيد ميلادي».

«هذه أغراضٌ أخذها أبي من المتجر. لذا ستُعيدينها إليَّ» أجاب بنبرةٍ صبيانيَّةٍ طفيفةٍ في صوته.

استبعدتُ فرضيَّة أنَّه يكذب. تصوَّرتُ كازيرتا وهو ينتقي هذه الملابس من أجلي: ألوان، مقاس، موديلات. شعرتُ بالنفور.

«سأحتفظ بالفستان فقط وأترك لك ما تبقَّى» قرَّرتُ. مددتُ يدي نحو السرير لأمسك الثوب وألوذ بالحمَّام، لكنَّ الحركة قطعت الهواء بسرعةٍ مفرطة فسحبت خلفها الجدار الذي تعتليه أيقونة العذراء وغصن الزيتون اليابس. كان عليَّ أن أتحرَّك ببطءٍ أكبر. فرضتُ على ذراعي حركةً موزونة كي لا تتوتَّر الغرفة برمَّتها ويتزحزح فيها كلُّ شيء جرَّاء القلق. كنتُ أكره اللحظات التي تتغلَّب فيها العصبيَّة. مكتبة سُر مَن قرأ

لاحظ بوليدرو تردُّدي فأمسكني من معصمي. لم أتفاعل، وذلك لكي أمنعه من أن يجرَّني إليه بشدَّةٍ بغية إحباط أيّ ممانعةٍ من جانبي. كنتُ أعلم أنَّني قادرةٌ على احتواء كلّ أشكال العنف المُهدِّد شرط أن أختار بنفسي سرعة الحركات.

قبَّلَني دون أن يعانقني، لكنَّه ما زال يشدُّ قبضته على معصمي. أرسى شفتيْه على شفتيَّ أوَّلًا ثم حاول أن يفتحهما بلسانه. فعلها بطريقةٍ طمأنتني: أجل، كان يتصرَّف مثلما يظنُّ أنَّه

الأسلوب الوحيد الذي يسلكه أيُّ رجلٍ في مثل هذه الظروف، ولكن من دون عدوانيَّةٍ حقيقيَّة وربَّما من دون اقتناع. ومن الوارد أنَّه أخفض دفَّات النافذة لينتهز الظلام ويُغيِّرَ نظرته خلسةً، ويريح عضلات وجهه.

فتحتُ شفتيّ. قبل أربعين عامًا، تخيَّلتُ برعبٍ مثيرٍ أنَّ لأنطونيو الطفل لسانَ كازيرتا نفسه، غير أنَّه لم يكن لديَّ دليل. أنطونيو في صغره لم يكن مهتمًّا بالقُبَل: كان يُفضِّل استكشاف مدخل مهبلي بأصابعه المتَّسخة وفي الوقت ذاته يُوجِّه يدي نحو بنطلونه القصير. ومع مرور الوقت اكتشفتُ أنَّ لسان كازيرتا كان من صنع الخيال. لا قُبلةً تلقَّيْتُها تشبه تلك التي تخيَّلتُ كازيرتا يعطيها لأماليا. حتى أنطونيو وقد أمسى راشدًا يُثبِتُ لي بأنَّ مستواه لا يرقى إلى تلك التخيُّلات. لم يُقبِّلني باقتناعٍ تامّ. وما إن لاحظ أنّي وافقتُ على فتح فمي، دفع لسانه بين أسناني بنزقٍ كبير، وما لبث أن وجَّهَ يدي التي ما زال يمسك بمعصمها إلى بنطلونه. فشعرتُ أنَّه ما كان ينبغي أن أفتح شفتيّ.

«لماذا في الظلام؟» سألتُهُ بصوتٍ هامس، وفمي على فمه. أردتُ أن أسمعه يتكلَّم لكي أتأكَّدَ كلِّيًّا من أنَّه لن يحاول إيذائي. لكنَّه لم يجبني. تنهَّدَ تنهيدةً قصيرة، قبَّلَني على خدِّي، لعق عنقي. وما فتئ يضغط يدي بشدَّةٍ على قماش بنطلونه. كان يفعلها بإصرار، لكي أعي أنَّه لا ينبغي لي البقاء مكتوفة اليديْن. ضغطتُ على قضيبه. فأطلق يدي عندئذ وعانقني بقوَّة. غمغم بكلماتٍ لم أفهمها وانحنى قليلًا ليبحث عن حلمتيَّ، وذلك بدفع جذعي إلى الخلف، وراح يتذوَّق بفمه قماشة الساتان ويُبلِّل المنامة بلعابه.

عرفتُ حينذاك أنَّه لن يقع شيءٌ جديد. الطقس إيَّاه يتكرَّر، وغالبًا ما خضعتُ له في شبابي، مؤملةً بأنَّني إذا واظبتُ على تغيير الرجل سيبتكر جسدي تجاوباتٍ ملائمة عاجلًا أم آجلًا. إلَّا أنَّ التجاوب كان هو نفسه دومًا، مطابقًا للذي أُقدِّمه الآن. فتح بوليدرو المنامة ليمصَّ نهديَّ وبدأتُ أشعر بلذَّةٍ خفيفة، غير مُحدَّدة الموقع، كما لو أنَّ ماءً ساخنًا ينسكب على جسدي المتصلِّب من البرد. وكان في الأثناء يتلمَّس فرجي بيده بحماسةٍ مفرطة، حريصًا على ألَّا يزعج يدي التي تمسك قضيبه من تحت القماش، مُتهيِّجًا من اكتشافه بأنَّني كنتُ بلا سروال. لكنِّي لم أشعر بشيء سوى تلك اللذَّة المنتشرة، الممتعة رغم أنَّها غير مُلحّة.

كنتُ متأكِّدةً منذ زمنٍ من أنِّي لن أتجاوز تلك العتبة. كان عليَّ أن أنتظر أن يقذف وحسب. ومن جهةٍ أخرى، وكالعادة، لم أشعر بأيّ دافعٍ لمساعدته، بل كنتُ أستصعب الحركة. أتكهَّنُ أنَّه يتوقَّع منِّي أن أفكَّ أزرار بنطلونه، وأن أُخرِجَ قضيبه، وألَّا أقتصر على دعكه. أحسُّ بأنَّه يهزُّ حوضه محاولًا أن ينقل إليَّ إرشاداتٍ محمومة. ومع هذا لا أتمكَّن من التجاوب. أخشى أن تنقطع أنفاسي كلِّيًّا وقد كانت ثقيلةً بالأساس. كما أنِّي كنتُ مُتحجِّرةً بسبب خجلٍ متصاعدٍ من السوائل الغزيرة التي كانت تتصبَّبُ منِّي.

كان هذا يحدث لي حتى عندما كنتُ أُجرِّب العادة السرِّيَّة في صباي. ينتشر الإحساس باللذَّة فاترًا، بلا أيّ تصعيد، وسرعان ما يبدأ جلدي بالتبلُّل. ومهما داعبتُ جوانحي، ما حصلتُ إلَّا على أمزجةٍ تطفح من جسمي: فمي، عوضًا عن الجفاف يمتلئ بلعابٍ يبدو لي مُتجمِّدًا؛ العرق يسيل من جبيني، من أنفي، من وجنتيَّ؛

وإبطاي تغدوان بئريْن؛ لا مسام في جلدي تظلُّ ناشفة؛ وفرجي يُرطِّبُ لدرجة أنَّ أصابعي تنزلق عليه دون احتكاك، بحيث ما عدتُ أعرف إنْ كنتُ ألمسه أو أنَّني أتخيَّل ذلك لا غير. لم يكن ضغط الجسد يرتفع، لذا أبقى مُجهَدةً وغير راضية.

بدا بوليدرو أنَّه لم يلحظ أيَّ شيءٍ من هذا. دفعني نحو السرير، حيث جلستُ برفق، لئلَّا نسقط معًا بسبب السرعة التي حدَّدها وزنه، ثم تمدَّدتُ مُذعِنةً. رأيتُ طيفَهُ يتأخَّرُ متردِّدًا. ثم خلع حذاءه، وبنطلونه، وسرواله. وصعد على السرير على ركبتيْه وفَرَجَ ساقيْه، مستندًا بخفَّةٍ إلى بطني، دون أن يُثقِلَ عليَّ.

«إذًا؟» غمغم.

«تعال» قلتُ له لكنِّي بقيتُ مُتحجِّرة. تأوَّهَ وكان جذعه بارزًا: يأمل أن تمتزج شهواتُ عضوه، العريض والثخين في العتمة، بالشهوات التي كان يُنسِبُها إلى فرجي. وحين لم يقع شيء، زفر طويلًا ومدَّ يده ليعاود فرك ما بين فخذيَّ. لعلَّهُ ظنَّ أنَّه بهذه الطريقة سيقتادني إلى التفاعل أخيرًا: لم يبدُ له شكلُ هذا التفاعل مُهمًّا، بسبب الشغف، أو بسبب الشفقة الأموميَّة؛ إنَّما كان يبحث عن نقرةٍ لكي يغويني. إلَّا أنَّ موافقتي الخالية من المشاركة شتَّتَت ذهنه. ففكَّرتُ، كعاتي في مثل هذه المواقف، أنَّه يجدر بي أن أتظاهر بتأوُّهاتٍ عصابيَّةٍ وغير منضبطة أو أن أصدَّهُ عنِّي. لكنِّي لم أجرؤ على الأولى ولا على الثانية: خشيتُ أن أُهرَعَ للتقيُّؤ على إثر موجات الزلزال الذي سينجم عنها. كان عليَّ أن أنتظر. إذ لم أعد أشعر حتى بأصابعه: ربَّما سحبها مشمئزًّا، وربَّما ما زال يداعبني في حين فقدتُ حساسيَّتي كلِّيًّا.

خاب أمله فأمسك يديَّ ووضعهما على عضوه. فأدركتُ حينئذٍ أنَّه لن يُقدِمَ على الإيلاج، ما دام غير متيقِّنٍ من رغبتي فيه. ولاحظتُ أيضًا أنَّ انتصابه بدأ يرتخي مثل مصباح نيون مُعطَّل. انتبه إلى الأمر هو كذلك فتحرَّكَ إلى الأمام ليجعل بطنه قريبًا من فمي. أحسستُ باستلطافٍ غامضٍ تجاهه، كما لو أنَّه أنطونيو الطفل الذي عرفتُهُ في الماضي حقًّا؛ وأردتُ أن أخبره بذلك لكنَّ صوتي لم يصدر: كان يحتكُّ بشفتيَّ برفق، فخشيتُ أنَّ أيَّ حركةٍ لاإراديَّة من فمي قد تخرج عن السيطرة بحيث تُمزِّقُ عضوه.

«لماذا أتيتِ إلى المتجر؟» سألني عندئذٍ ساخطًا، متراجعًا نحو الخلف على جسدي الذي يتصبَّبُ عرقًا «أنا لم أبحث عنكِ».

«لم أكن أعرف حتى مَن تكون» أجبتُهُ.

«وما تلك القصص إذًا؟ الفستان، والسراويل... ماذا كنتِ تريدين؟»

«لم آتِ لمقابلتك» قلتُ له ولكن من دون عداء «إنَّما أردتُ مقابلة أبيك. أردتُ أن أعرف ما الذي حدث لأمِّي قبل أن تغرق».

لاحظتُ أنَّه لم يكن يقتنع وأنَّه يحاول مداعبتي من جديد. هززتُ رأسي لكي يفهم: كفى. أطبق عليَّ لكنَّه لم يستغرق أكثر من لحظة. وسرعان ما انسحب بحركةٍ تنمُّ عن قرفه من جسمي الرطب.

«لستِ بخير» قال حائرًا.

«أنا بخير. ولكن حتى لو كنتُ مريضةً، فقد فات وقت العلاج كثيرًا».

استلقى بوليدرو إلى جانبي مستسلمًا. رأيتُ أنَّه يُنشِّفُ أصابعه ووجهه وساقيْه بالملاءة؛ ثم أضاء المصباح الذي على الدُّرج.

«تبدين كالشبح» قال لي وهو ينظر إليَّ جادًّا، وراح يُنشِّفُ وجهي بطرف قميصه الذي ما زال يرتديه.

«ليس ذنبك» طمأنتُهُ ورجوتُهُ أن يُطفِئ الضوء. لم أشأ أن يراني ولم أشأ أن أراه. كان بضياعه وحزنه يشبه كازيرتا كثيرًا مثلما كنتُ أتصوَّره أو مثلما رأيتُهُ حقًّا قبل أربعين عامًا. كان انطباعي مُكثَّفًا لدرجةٍ فكَّرتُ فيها أن أروي عليه فورًا، تحت الظلام، عمَّا كان يزدحم حول وجهه المختلف جدًّا عن طلعته المنتفخة واللائقة برجل مافيا التي أبداها عليَّ طوال الصباح. أردتُ بكلامي أن أمحوه وأمحوني، في ذلك السرير، إذ كنَّا مختلفين عمَّا كنَّا عليها في طفولتنا. لم يكن بيننا ما نتشاركه سوى لحظات العنف التي شهدنا عليها صغارًا.

وفكَّرتُ أن أروي له على مهل: لم يُضيِّع والدي وقته عندما علم أنَّ أمِّي وكازيرتا يتلاقيان في القبو سرًّا. بدأ بأماليا، لحق بها في الممرّ، وعلى السلالم، ثم في الطريق. شممتُ رائحته المشبعة بالألوان الزيتيَّة حين مرَّ بجانبي، وبدا لي مُلوَّنًا هو كذلك.

هربت أمِّي تحت جسر المحطَّة، تزحلقت ببركة ماء، فأمسك

بها وأشبعها لكمًا وصفعًا، وركلةً على جنبها. وبعد أن لقَّنَها الدرس، أعادها إلى المنزل نازفةً. وكلَّما حاولت أن تنطق بكلمة عاد ليضربها. نظرتُ إليها طويلًا، مرضوضة، متَّسخة، فنظرت إليَّ طويلًا، بينما كان والدي يشرح لخالي فيليبو ما حدث. كانت نظرة أماليا مشدوهة: تُحدِّقُ إليَّ ولا تستوعب شيئًا. فانصرفتُ مستاءةً لأتلصَّصَ على الرجلَيْن.

وقف أبي وخالي على انفراد فاستطعتُ مراقبتهما من النافذة: كانا مثل جنود اللعبة، يتَّخذان قراراتٍ مصيريَّة في الفِناء. أو ضبَّاطٌ، تُقَصُّ صورهم وتُلصَقُ في الألبوم، أحدهما بجوار الآخر لكي يتمكَّنا من التخاطب بصوتٍ خفيض. انتعل والدي جزمةً وارتدى سترة سفاري. وكان خالي ببزَّةٍ خضراء باهتة، أو ربَّما بيضاء، أو سوداء. ليس هذا وحسب: كان معه مُسدَّس.

أو ربَّما ظلَّ بلباسٍ مدنيّ، مع أنَّ الصوت في عتمة الغرفة 208 ما زال يقول: «سيقتله، لقد حمل المسدَّس». لعلَّ تلك الأصوات هي التي جعلتني أرى والدي منتعلًا الجزمة، وخالي فيليبو بالبزَّة، وذراعاه مسنودتان إلى جذعه والمسدَّس في يده اليمنى. كانا معًا يطاردان كازيرتا الشابّ، الداكن بمعطف وبر الجمل، على سلالم بيته. وكانت أماليا بطقهما الأزرق وقبَّعتها المريَّشة، خلفهما بمسافةٍ لكي لا تُذبَحَ من جديد، أو لأنَّها كانت مُجهَدةً ولا تقدر على الركض، تقول بصوتٍ خفيض، وتزداد ذهولًا: «لا تقتلاه، لم يفعل شيئًا».

كان كازيرتا يعيش في الطابق الأعلى، لكنَّهما أمسكاه في الطابق الثاني أوَّلَ مرَّة. هناك حيث توقَّفَ الرجال الثلاثة كأنَّهم

في اجتماعٍ سرِّيّ. أصدروا بصوتٍ واحدٍ صخبًا من شتائم بذيئة باللهجة المحلِّيَّة، وقائمةٍ طويلة من كلماتٍ تنتهي بأحرفٍ ساكنة، كما لو أنَّ الأحرف الصوتيَّة الأخيرة تسقط في هاوية، فيما تولول بقيَّة الكلمة من الأسى بصمت.

وبعد أن انتهت القائمة، دفعا كازيرتا إلى الأسفل فتدحرج على السلالم حتى الطابق الأوَّل. نهض وصعد راكضًا، ولم أدرِ إن كان قد صمَّمَ على مواجهة المنتقمين بشجاعة أم ليحاول الوصول إلى بيته وعائلته في الطابق الرابع. وفي واقع الأمر استطاع المرور، والتفَّ على الدرجات حتى وصل إلى بيته، بيدٍ تنساب على الدرابزين بسرعة لكنَّها تتشبَّثُ به عندما ينحني بجسده دون أن تكفَّ ساقيْه عن القفز على العتبات ثلاثًا ثلاث، مُتملِّصًا من بعض الركلات، وبعض البصاق الذي ينهال عليه كالشُّهُب.

وصل إليه والدي أوَّلًا وطرحه أرضًا. رفع رأسه من شعره وصفقها بالدرابزين. انتشر دويُّ الارتطام في صدًى ليس له حدود. وتركه في النهاية بين الحياة والموت، دمه على الأرض، بنصيحةٍ من أخ زوجته الذي كان أكثر حكمةً وإن حمل مُسدَّسًا. أمسك فيليبو بذراع أبي وجرَّهُ بلباقة، وإلَّا كان والدي سيترك كازيرتا هناك على الأرض ميِّتًا. حتى زوجة كازيرتا كانت تسحب أبي: تعلَّقت بذراعه الأخرى. أمَّا أماليا فلم يبق منها سوى صوتها وهي تقول: «لا تقتلاه، لم يفعل شيئًا». وأنطونيو، رفيق ألعابي، كان يبكي مطأطئ الرأس، بين قضبان الدرابزين كأنَّه يطير.

أحسستُ أنَّ بوليدرو يشهق بجانبي صامتًا فأشفقتُ على

الطفل الذي كان عليه. «سأنصرف» قلتُ له.

نهضتُ وارتديتُ الفستان الأزرق فورًا لأتحاشى نظرته إلى طيفي. شعرتُ أنَّ اللباس كان على مقاسي تمامًا. فبحثتُ في الكيس البلاستيك عن سروال أبيض ولبستُهُ أيضًا، بتمريره من تحت الفستان. وأشعلتُ الضوء. كانت نظرات بوليدرو هائمة. نظرتُ إليه ولم أعد أقوى على رؤية أنطونيو فيه، الذي يشبه كازيرتا. كان جسده الثقيل راقدًا على السرير، عاري الساقيْن. كان جسد رجلٍ غريب، لا روابط منطقيَّة له بحياتي الماضية والحاضرة، باستثناء البصمة الرطبة التي خلَّفتُها على جنبه. لكنِّي كنتُ ممتنَّةً له عمومًا على جرعة الإذلال والألم الصغيرة التي أنزَلَها بي. درتُ حول السرير، جلستُ على الحافَّة من جانبه واستمنيتُهُ بيدي. تركني أفعلها، مغمض العينيْن. قذف بلا تأوُّه، كأنَّه لم يشعر بأيِّ لذَّة.

XIX

أمسى البحرُ عجينةً أرجوانيَّة. وكانت أصوات الموج الهائج وأصوات المدينة تُصدِرُ مزيجًا غاضبًا. قطعتُ الشارع متحاشيةً السيَّارات وبرك الماء. خرجتُ من ذلك سالمةً تقريبًا، فوقفتُ أتفرَّجُ إلى واجهات الفنادق الكبرى المصطفَّة على امتداد تدفُّق العربات الجارف. وكلُّ فتحات تلك الأبنية موْصدةٌ بشكلٍ مستفزٍّ إزاء ضجيج الازدحام والبحر.

ذهبتُ بالحافلة حتى ساحة بليبيشيتو. وبعد أن طفتُ على كبائن الهاتف المحطَّمة والسمَّاعات المعطَّلة في الحانات، وجدتُ هاتفًا في النهاية واتَّصلتُ بخالي فيليبو. لم أتلقَّ ردًّا. فاتَّجهتُ إلى شارع طليطلة عندما كان أصحاب المحلَّات يرفعون المغاليق الحديديَّة وتغدو حركة المارَّة أكثف. تتكتَّلُ الناسُ حصرًا عند منافذ الأزقَّة، الوعرة والسوداء تحت أشرطة سماءٍ واجمة. اشتريتُ قليلًا من الشوكولاتة بجوار ساحة دانتي، لا لشيء سوى

لاستنشاق الهواء المُنكَّهِ في المحلّ. وفي الواقع لم يكن لديَّ رغبةٌ في شيء: كنتُ شاردةً لدرجة أنّي نسيتُ الشوكولاتة في فمي وكانت تذوب بين أصابعي. ولم أُعِر اهتمامًا كبيرًا بنظرات الرجال الملحّة.

كان الطقس حارًّا وفي بورتالبا لا هواء ولا نور. انجذبتُ إلى كرزٍ منتفخٍ ولامع تحت بيت أمّي. فحصلتُ على نصف كيلو منه، ودخلتُ المصعد على مضض، وطرقتُ باب الأرملة دي ريزو.

فتحت لي المرأة بتحفُّظٍ معتاد. أريتُها الكرز، قلتُ إنَّني اشتريتُهُ من أجلها. اتَّسعت عيناها. أزاحت السلسلة من على الباب وطلبت منّي الدخول، مسرورةً بشكلٍ واضح من تلك الهبة التي تشي بمؤانسةٍ غير مُتوقَّعة.

«لا» قلتُ «تعالي حضرتكِ إليَّ. فأنا أنتظر مكالمة». ثم أضفتُ شيئًا ما عن الأرواح: طمأنتُها بأنّي واثقةٌ من أنَّ الأرواح تغدو في غضون ساعاتٍ أقلَّ استقلاليَّة. «بعد قليل سيقولون ويفعلون ما نأمرهم بقوله وفعله فقط. إن أردنا أن يسكتوا، فسيستكون لا محالة».

وضعت كلمةُ «السكوت» السيِّدةَ دي ريزو في حالٍ من الإذعان اللغويّ. فاجتهدت لبلوغ مستوًى من اللغة الإيطاليَّة يضاهي مستواي لتُعبِّرَ عن قبول الدعوة؛ ثم قفلت باب بيتها بينما كنت أفتح باب بيت أمّي.

كانت الشقَّة سعيرًا خانقًا. سارعتُ إلى فتح النوافذ على

مصراعيْها ووضعتُ الكرز في وعاءٍ بلاستيكيّ. فتحتُ الصنبور في حين كانت السيِّدة العجوز، بعد إلقاء نظرةٍ بانوراميَّة ملؤها الشكّ، تتَّجه لتجلس تلقائيًّا إلى طاولة المطبخ. قالت لي، لتُسوِّغَ لنفسها، إنَّ أمِّي لطالما أجلستْها هناك.

وضعتُ الكرز تحت تصرُّفها. انتظرتْ أن أدعوها لتتناول منه، وعندما دعوتُها حملتْ واحدةً إلى فمها بحركةٍ صبيانيَّةٍ أعجبتني: أمسكتْها من عنقها وأودعتْها في فمها بتدوير الثمرة بين لسانها وسقف حلقها، وكان العنق الأخضر يرقص بين شفتيْها الشاحبتيْن؛ ثم أمسكتْهُ بأصبعيْها واقتلعتْهُ مُصدِرةً تكَّةً خفيفة.

«لذيذة» قالت، وأخذت تمتدح فستاني الذي كنتُ أرتديه بنبرةٍ أكثر انشراحًا: «لقد قلتُ لها إنَّ هذا الأزرق يليق بكِ أكثر من الثوب الآخر».

نظرتُ إلى الفستان ثم إليها لأتأكَّدَ من أنَّها تتحدَّثُ عنه تمامًا. ليس لديها شكّ، تابعت قائلةً إنَّه يليق بي جدًّا. عندما أرتْها أماليا هدايا عيد ميلادي، علَّقت مباشرةً بأنَّ هذا هو الأنسب لي. وأمِّي كذلك بدت مُقتَنِعة. روت عليَّ دي ريزو أنَّها كانت في منتهى السرور. وضعت الأغراض هناك في المطبخ، أمام هذه الطاولة تحديدًا، الملابس الداخليَّة أوَّلًا، ومِن ثَم الفساتين، وهي تُردِّد: «ستليق بها كثيرًا». وكانت راضيةً جدًّا من الطريقة التي تحصَّلتْ بها على هذه الأغراض.

«كيف؟» سألتُ.

«صديقُها ذاك» قالت الأرملة دي ريزو. عرض على أمِّي

مبادلة: أراد كلَّ ملابسها الداخليَّة القديمة مقابل تلك الأشياء الجديدة. لم تكن المقايضة لتُكلِّفَهُ شيئًا. فهو صاحب متجرٍ فخم في حيّ ڤوميرو. وظنَّت أماليا، التي تعرفه منذ الصبا وتعلم أنَّه موهوبٌ في مجال الأعمال، أنَّه ينوي الاعتماد على تلك السراويل البالية والتنانير الداخليَّة المُرقَّعة ليبتكر لستُ أدري أيَّ منتج جديد. لكنَّ دي ريزو خبيرةٌ بالحياة. قالت لها إنَّه يجب الحذر من الرجال على الدوام، سواء أكانوا محترمين أم لا، عُجَّزًا أم شبَّانًا، أثرياء أم فقراء. وكانت أمِّي سعيدةً لدرجة أنَّها لم تُصْغ إليها.

كدتُ أضحك على إثر سماع نبرة دي ريزو المفعمة بالغموض عمدًا، لكنِّي كتمتُها. رأيتُ كازيرتا وأماليا معًا في هذا البيت، يُخطِّطان مساء تلو مساء، لإطلاق ملابس داخليَّة نسائيَّة من موضة الخمسينيَّات، اعتمادًا على الخِرَق الرثَّة التي كانت أماليا ترتديها. تخيَّلتُ كازيرتا موغلًا في الإيحاء وأماليا واقعةً تحت تأثيره، عجوزيْن كليهما، وحيديْن كليهما، مفلسيْن كليهما، في هذا المطبخ الكئيب، على بُعد أمتارٍ معدودة من أذن الأرملة المصغية التي تفوقهما شيخوخةً ووحدة. بدا لي المشهد معقولًا. لكنِّي قلتُ:

«ربَّما لم تكن مقايضةً بحقّ. ربَّما أراد صديقها أن يسدي إليها معروفًا وكفى. ألا ترين ذلك؟»

أكلت الأرملة كرزةً أخرى. لم تعرف أين ترمي البذور، كانت تبصقها في كفِّ يدها وتتركها هناك.

«وارد» أقرَّت، ولكن على غير اقتناع «هو كان محترمًا جدًّا. كان يأتي إليها كلَّ مساءٍ تقريبًا، فإمَّا يتعشَّيان في الخارج، وإمَّا يتَّجهان إلى السينما، وإمَّا إلى التنزُّه. عندما كنتُ أسمع صوتهما عند المستراح، كان هو يثرثر بلا توقُّف وهي تضحك دومًا».

«لا بأس في هذا. الضحك جميل».

تردَّدت الأرملة وهي تمضغ الكرز.

«أبوكِ جعلني أتشكَّك» قالت.

«أبي؟»

أبي. استبعدتُ فكرةَ أن يكون هناك في المطبخ، لا أحد يدري منذ متى. شرحت لي دي ريزو أنَّه جاء خلسةً ليطلب منها أن تُخطِرَهُ في حال أقدمت أماليا على أفعالٍ طائشة. ولم تكن المرَّة الأولى التي يظهر فيها بغتةً بطلباتٍ من هذا القبيل. لكنَّه في تلك المناسبة كان لحوحًا للغاية.

تساءلتُ كيف يرى أبي الفرقَ بين ما هو طائشٍ وغير طائش. بدا أنَّ دي ريزو لاحظت تساؤلي فحاولت أن تشرح لي الأمر على طريقتها. الطيش هو التعرُّض لمخاطر الوجود باستخفاف. كان والدي قَلِقًا على زوجته، مع أنَّهما انفصلا قبل ثلاثٍ وعشرين سنة. وما زال الرجل المسكين يحبُّها. كان لطيفًا جدًّا و... بحثت السيِّدة دي ريزو عن المفردة الإيطاليَّة الملائمة. قالت: «تعيسًا جدًّا».

كنتُ أعلم ذلك. حاول كعادته أن يظهر بأحسن مظهرٍ في عين الأرملة. فكان ودودًا، ووصف نفسه بأنَّه منشغل البال.

ولكن في الواقع ـ فكَّرتُ ـ لم يكن ثمَّة حاجزٌ عمرانيٌّ بينهما يمنعه من سماع أصداء ضحكة أماليا. لم يكن أبي يطيق ضحكتها. كان يعتبر أنَّ لها رنينًا يلائم الحالة، لذا فهي ضحكةٌ زائفة بشكلٍ واضح. كلَّما دخل منزلَنا غريبٌ (كالرجال المريبين الذين يظهرون بمواعيد مُحدَّدة ويطالبونه برسم فتية شوارع وغجريَّات وبركان الفيزوف مع بعض أشجار الصنوبر)، يأمرها: «لا تضحكي». كانت تلك الضحكة تبدو له سُكَّرًا مرشوشًا عنوةً لإذلاله. في حين أنَّ أماليا لم تقصد إلَّا أن تمنح صوتًا للنساء ذوات المظهر السعيد اللواتي يتألَّقن بالصور واللوحات في بوسترات الأربعينيَّات ومجلَّاتها: أفواهٌ عريضةٌ ومرسومة، أسنانٌ لامعة، نظراتٌ حيويَّة. هكذا تصوَّرت كينونتها، فمنحت نفسها الضحكة الأليق على هذا الأساس. ولا بدَّ أنَّها ذاقت الأمرَّيْن في انتقاء الضحكة والأصوات والإيماءات التي يوافق عليها زوجها. إذ كان من الصعب التكهُّن بالسلوك الأنسب. يمرُّ أحدٌ بجانبها في الطريق وينظر إليها. يُدلي بتعليقٍ على سبيل المزاح. تُقابله باستلطافٍ عفويّ. وها إنَّهم يقرعون جرس الباب. ها هم يُسلِّمونها الورود. وها إنَّها لا تمانع. إنَّما تضحك وتختار مزهريَّةً زجاجيَّةً زرقاء، تملأها بالماء وتضع فيها الورد. وفي الفترة التي توالت فيها تلك الهِبات الغامضة، والمجهولة المصدر (مع أنَّنا كنَّا نعلم جميعًا أنَّها من كازيرتا، وأماليا كانت تعلم) بمواعيد مُحدَّدة، كانت أمِّي شابَّةً وتبدو أنَّها تلهو في سرِّها، بلا خبث. خصلةٌ مُجعَّدةٌ سوداء على جبينها، جفناها يرفرفان، تعطي إكراميَّةً للباعة، وتسمح بإبقاء البضاعة في منزلنا بعض الوقت كما لو أنَّها

مشروعة. ثم يلاحظ والدي الأمر ويُحطِّم كلَّ شيء. كان يحاول أن يسحقها هي الأخرى، لكنَّه كان يتوقَّف دومًا على خطوةٍ من المذبحة. وكانت الدماء بكافَّة الأحوال تشهد على النيَّة. وبينما كانت السيِّدة دي ريزو تُحدِّثني، كنتُ أروي على نفسي عن الدماء. في المغسلة. يرعف أنفُ أماليا قطراتٍ كثيفة، تكون في البدء حمراء، ثم يبهت لونُها ما إن تلامس ماء الصنبور. وكان يسيل على ذراعها كذلك، حتى مرفقها. تحاول أن تسدَّهُ بيدٍ لكنَّه يتسرَّب من الكفّ عمومًا ويُخلِّفُ خطوطًا حمراء كالجروح. لم يكن ذاك دمًا بريئًا. بالنسبة إلى والدي لا شيء بريئًا يصدر عن أماليا أبدًا. فهو الغَضوب، الناقم، والتوَّاق إلى المتعة في الآن ذاته، هو النزق والعاشق لنفسه، لم يستطع تقبُّلَ أن تقيم مع الدنيا علاقةً ودِّيَّة، ومَرِحةً أحيانًا. فكان ما يلبث أن يرى في الأمر شبهة خيانة. ليست الخيانة الجنسيَّة وحسب: بتُّ لا أعتقد أنَّه تخوَّفَ من الخيانة في الجنس حصرًا. إنَّما أيقنتُ أنَّه كان يخشى الهجران على وجه الخصوص، وانتقالها إلى جبهةٍ معادية، وتبنِّي منطق ولغة وذوق أناسٍ مثل كازيرتا: سماسرةٌ لا يؤتمن جانبُهم، ليس لديهم ثوابت، مُضلِّلون سفلة يُضطرُّ إلى مداراتهم للضرورة. كان يحاول إذًا أن يفرض عليها ضوابط أخلاقيَّة لرسم مسافةٍ أو خصومة دفعةً واحدة. لكنَّه سرعان ما ينفجر بالشتائم. أماليا في نظره تستعمل طبقاتٍ صوتيَّةً مثيرةً أكثر ممَّا ينبغي؛ وحركات يديها رخوة أكثر ممَّا ينبغي؛ ونظرتها متَّقدة إلى حدِّ الوقاحة. لا سيَّما أنَّها كانت تنجح في نيل الإعجاب من دون جهودٍ ومن دون طموحٍ لنيل الإعجاب. كان هذا ما يحدث لها، خارجًا عن

إرادتها. آه، نعم: بسبب أنَّها محطُّ استحسانٍ كان يجازيها بالصفعات واللكمات. كان يؤوِّل إيماءاتها ونظراتها باعتبارها دلائل على أعمالٍ مشبوهة، ولقاءاتٍ سرِّيَّة، وتفاهماتٍ لا هدف لها سوى تهميشه. لم أعد أستطيع انتزاعه من عينيَّ، متألِّمًا للغاية، وعنيفًا للغاية. القوَّة. كان يُحجِّرني. صورة والدي وهو يسحق الورود ويُفتِّتها ما زالت تصرخ وتصرخ في رأسي منذ عقود. ثم إنَّه حرق فستانها الجديد الذي لم تردُّهُ، ولبستْهُ في السرّ. لم أتحمَّل رائحة القماش المحروق. مع أنِّي فتحتُ النوافذ.

«هل عاد وضربها؟» سألتُ.

أقرَّت الأرملة على مضض:

«ظهر ذات مرَّة هنا في الصباح الباكر، لم تكن الساعة قد تجاوزت السادسة، وهدَّدَ بأنَّه سيقتلها. أسْمَعَها وعيدًا شنيعًا».

«متى حدث ذلك؟»

«في منتصف مايو: قبل أسبوعٍ على سفر أمّكِ».

«وهل كانت أماليا قد تلقَّت الفساتين والملابس الداخليَّة الجديدة؟»

«أجل».

«وهل كانت مسرورة؟»

«أجل».

«كيف تصرَّفت؟»

«مثلما تتصرَّف عادةً. نسيت الموضوع ما إن انصرف. رأيتُهُ يخرج: كان شاحبًا مثل سمكةٍ في الطحين. أمَّا هي فلا شيء البتَّة. قالت: لقد خُلِقَ هكذا، حتى الشيخوخة لم تُغيِّره. لكنِّي فهمتُ أنَّ الصورة ليست واضحة كلّيًا. وكرَّرتُ على مسامعها إلى أن غادرت، إلى أن ركبت القطار: أماليا، خذي حذركِ. لا شيء. كانت تبدو هادئة. لكنَّها في الطريق كانت تستصعب المشي بخطًى متَّزنة. كانت تُبطِئ عمدًا. وفي المقصورة راحت تضحك بلا سبب وبدأت تُلوِّح بأهداب التنُّورة».

«وما العيب في هذا؟» سألتُها.

«لا يجوز» أجابت الأرملة.

أمسكتُ كرزتيْن متَّحدتيْن من عنقهما وعلَّقتُهما على سبَّابتي المشدودة، فتأرجحتا يمينًا شِمالًا. من المحتمل أنَّ أماليا خلال وجودها امتنعت عن فعل أشياء كثيرة كان بوسعها أن تفعلها، مثل أيّ إنسان، بطريقةٍ مشروعة أو غير مشروعة. ولكنَّها ربَّما اقتصرت على التظاهر بأنَّها لم تفعلها. أو ربَّما تظاهرت بأنَّها تتظاهر بذلك لكي يبقى والدي يلهج كلَّ لحظة في استحالة الوثوق بها ومِن ثَم يتألَّمُ بسبب هذا. ربَّما تكون تلك طريقتها في التصرُّف. لكنَّها لم تضع في الحسبان أنَّنا كنّا نلهج بذلك نحن أيضًا، بناتها، على الدوام: أنا خاصَّةً. لم أستطع أن أتصوَّرها ساذجة كالسابق. ولا حتى الآن. من الممكن أنَّ كازيرتا، في سعيه لمصاحبتها، لم يكن يلاحق إلَّا جزءًا من شبابه. لكنِّي واثقةٌ من أنَّ أماليا كانت ما تزال تلعب في سرِّها لتفتح له الباب بإغراء الصبايا، وتشدَّ خصلتها المُجعَّدة إلى حاجبها وترفرف جفنيْها. ومن الممكن أنَّ

العجوز، بحكاية أنَّه رجل أعمال غنيٌّ بالأفكار، إنَّما أراد أن يُلمِّحَ لها عن ميوله الفيتشيَّة بأسلوبٍ رصين. لكنَّها لم تتراجع. سخرتْ عن وعيٍ من تلك المقايضة على الفور، ودعمتْ غرائزهما الهرمة متذرِّعةً بي وبعيد ميلادي. كلَّا، نعم. انتبهتُ أنِّي كنتُ أنبش امرأةً لا تتمتَّع بالحياء ولا بفضيلة الخوف. لديَّ ذكرى منها. فحتى عندما كان أبي يرفع قبضتيْه ويضربها لقولبتها مثل صخرةٍ أو جذع شجرة، ما كانت تُوسِّع حدقتيْها من الخوف بل من الدهشة. ولا بدَّ أنَّ عينيْها جحظتا بالشكل نفسه حين اقترح كازيرتا عليها المقايضة. بدهشةٍ ممتعة. دُهِشتُ أنا كذلك، مثلما لو كنتُ بصدد تمثيليَّةٍ عن العنف، لعبة لمتنافسَيْن اثنيْن أساسُها المواثيق: فزَّاعةٌ لا تُفزِع، ضحيَّةٌ لا تُباد. خطر في ذهني أنَّ أماليا منذ طفولتها قد اعتبرت الأيدي مثل القفَّازات، أشكالٌ من ورقٍ في البدء ثم من جلد. ولطالما خاطت منها وخاطت. ثم انتقلت لتحيل أرامل ضبَّاط، وزوجات أطبَّاء أسنان، وأخوات قضاة، إلى مقاييس جذع وخصر. وكانت تلك المقاييس، التي أخذتْها بمعانقةٍ رزينةٍ لأجسادٍ نسائيَّةٍ من كافَّة الأعمار باستخدام متر الخيَّاطين الأصفر، قد غدت أطرزةً ورقيَّةً تُطبَّقُ بالدبابيس على القماش، فترسم عليه ظلال صدورٍ وخواصر. ثم كانت تقصُّ القماش، متأنِّيةً، مشدودةَ الأعصاب، باتِّباع المسار الذي حدَّدَتْه الأطرزة. وعلى مدى حياتها أحالت ضيق الأجساد إلى ورقٍ ونسيج، ولعلَّها حصلت من ذلك على عادةٍ ضمنيَّةٍ تعتبر من خلالها الغلوَّ مستوفيًا للمعايير. لم يخطر لي هذا من قبل، والآن وقد خطر لي ما عاد في وسعي أن أسألها إن كان صحيحًا أم لا.

كلُّ شيءٍ ضاع. لكنِّي في حضور دي ريزو التي كانت تأكل الكرز، رأيتُ أنَّ اللعبة الأخيرة القائمة على الأقمشة بين أماليا وكازيرتا، أي تحويل حكاية القبو إلى اتِّفاقيَّة تبادل ألبسة قديمة بألبسة جديدة، هي محض مهزلة. تبدَّلَ مزاجي فجأةً. سررتُ على حينْ غرَّة باعتقاد أنَّ خفَّتها كانت خفَّةً عميقة. أبهرتني تلك المرأة على غير المتوقَّع إذ ابتدعتْ نسخةً عن نفسها بطريقةٍ أو بأخرى في نهاية الحكاية لتلعب بأقمشةٍ فارغة على نفقتها الخاصَّة. تصوَّرتُ أنَّها ماتت راضية فتنهَّدتُ تنهيدة رضا كان حتى اللحظة مُستَبعدًا. وضعتُ على أذني الكرزتيْن التي كنتُ ألهو بهما وضحكتُ.

«كيف أبدو؟» سألتُ العجوز التي عبَّأت كفَّها بقبَّةٍ من عشر بذورٍ على الأقلّ.

عبَّرت بتكشيرةٍ حائرة.

«جميلة» قالت على غير اقتناع من تصرُّفي الغريب ذاك.

«أعلم» أكَّدتُ باستحسانٍ مغاير. واخترتُ كرزتيْن أخريين متَّحدتي العنق. أردتُ وضعهما على الأذن الأخرى، لكنِّي غيَّرتُ الفكرة وأعطيتُهما لدي ريزو.

«لا» تمنَّعت العجوز.

نهضتُ، وذهبتُ خلف ظهرها، وبينما كانت تهزُّ رأسها وتضحك باحتقان، أزحتُ شعرها الرماديّ عن أذنها اليمنى وأسندتُ الكرزتيْن على الصيوان. ثم تراجعتُ لأتأمَّل المنظر.

«في منتهى الروعة» هتفتُ.

«غير صحيح» غمغمت الأرملة مُحرَجةً.

اخترتُ كرزتيْن أخريين وعدتُ إلى خلف ظهرها لأزيِّنَ بهما أذنها الأخرى. ثم عانقتُها بتكتيف ساعديْها على صدرها الكبير وضممتُها بشدَّة.

«أمَّاه» قلت لها «أنتِ مَن أطلَعَ والدي على كلّ شيء، أليس كذلك؟»

قبَّلتُها على عنقها المجعَّد الذي كان يحتقن بسرعة. اهتزَّت بين ذراعيَّ لستُ أدري أكان من الضيق أم لتُخلِّصَ نفسها. أنكرت، قالت إنَّها ما كانت لتُقدِمَ على هذه الفعلة: كيف يخطر في بالي شيءٌ كهذا؟

لكنِّي فكَّرتُ أنَّها فعلت ذلك، تنصَّتت لتسمعه يصرخ ويصفق الأبواب ويُكسِّر الأطباق، لتستمتع مُرتعِدةً في وكر شقَّتها.

رنَّ الهاتف. قبَّلتُها مرَّةً أخرى، بقوَّة، على رأسها الرماديَّة، قبل أن أذهب لأردّ عند الرنَّة الثالثة.

«ألو» قلت.

صمت.

«ألو» كرَّرتُ بهدوء بينما كنتُ ألاحظ أنَّ السيِّدة دي ريزو تُحدِّقُ إليَّ بارتباك وتنهض عن الكرسيّ بمشقَّة.

أغلقتُ الخطّ.

«هلَّا بقيتِ حضرتكِ بعض الوقت» دعوتُها وعدتُ أخاطبها برسميَّة «هلَّا أعطيتِني البذور؟ تناولي مزيدًا من الكرز. كرزة واحدة على الأقلّ. أو خذيه معكِ».

لكنِّي أحسستُ بعجزي عن التحدُّث بنبرةٍ مطمئنة. وقفت العجوز على قدميْها، وكانت تتَّجه نحو الباب، وما زال الكرز يتأرجح على أذنيْها.

«هل غضبتِ منِّي حضرتكِ؟» سألتُها بلهجةٍ مسالمة.

نظرت إليَّ مصعوقةً. لا بدَّ أنَّ شيئًا خطر في بالها بغتةً وأوقفها في منتصف الطريق.

«هذا الفستان» قالت باضطراب «كيف استطعتِ الحصول عليه؟ لا يمكنكِ. كان في الحقيبة مع الأغراض الأخرى. والحقيبة لم يُعثَرْ عليها قطّ. من أين أتيتِ به؟ مَن أعطاه لكِ؟»

لاحظتُ وهي تتكلَّم أنَّ حدقتيْها ما لبثتا أن طغى عليهما الخوف محلَّ الدهشة. لم يسرُّني هذا، لم أقصد إخافتها، لا أحبُّ إثارة الخوف. مسَّدتُ الثوب بكفّيَّ كأنَّني أريد إطالته واعتراني الحرج إذ شعرتُ أنِّي مُقمَّطةٌ بهذا اللباس القصير، الضيِّق، الأنيق أكثر ممَّا يجب، وغير الملائم لعمري.

«إنَّه مجرَّد قماشٍ بلا ذاكرة» غمغمتُ. قصدتُ أنَّه لا يمكنه إلحاق الأذى لا بي ولا بها. لكنَّ الأرملة دي ريز فحَّت قائلةً:

«إنَّه غرضٌ قذر».

فتحت الباب وأغلقتْه بعجالةٍ خلفها. وفي تلك اللحظة رنَّ الهاتف من جديد.

XX

تركتُ الهاتف يرنُّ مرَّتيْن أو ثلاث. ثم رفعتُ السمَّاعة: طنين، أصوات بعيدة، ضجَّة غير مفهومة. كرَّرتُ «ألو» بلا أمل، لمجرَّد أن يفهم كازيرتا أنَّني موجودة، وأنِّي لستُ خائفة. وأغلقتُ الخطّ. جلستُ إلى طاولة المطبخ، نزعتُ الكرزتيْن عن أذنيّ وأكلتُهما. بتُّ واثقةً من أنَّ كلَّ المكالمات اللاحقة ستكون وظيفتها النداء ليس إلَّا، مثل الصفير الذي كان يستخدمه الرجال في الماضي ليُعلِنوا في الشارع عن عودتهم إلى البيت لكي يتسنَّى للنساء إلقاء الباستا في الماء الساخن.

نظرتُ إلى الساعة: الثامنة عشر وعشر دقائق. رفعتُ السمَّاعة واتَّصلتُ بخالي فيليبو، لأمنع كازيرتا من إرغامي على سماع صمته. وتهيَّأتُ لسماع الرنَّة الطويلة للخطّ المتاح.

إلَّا أنَّ فيليبو ردَّ ولكن على مضض، يكاد يبدو منزعجًا من أنَّني المتَّصلة. قال إنَّه عاد للتوّ، وأنَّه متعبٌ ومصابٌ بالزكام،

وأنَّه ينوي الاستلقاء على السرير. أصدَرَ سعلةً مصطنعة. وما كان ليشير إلى كازيرتا إلَّا بناءً على طلبي، وفعلها ممتعضًا. قال إنَّهما تحادثا طويلًا ولم يتشاجرا. ثم أدركا على حين غرَّة أنَّه لم يعد ثمَّة داعٍ لذاك. فأماليا ماتت، والحياة انقضت.

صمت برهةً ليسمح لي بالكلام: كان ينتظر ردَّة فعلي. لم يحصل عليها. فاستأنف هذره عن الشيخوخة، والوحدة. قال لي إنَّ كازيرتا طرده ابنُهُ من البيت، وأمسى وحيدًا هائمًا، بلا سقف، هكذا، أسوأ من كلب. سرق منه الشابُّ كلَّ المال الذي ادَّخره أوَّلًا ثم رماه على قارعة الطريق. ولم يكن لديه من ثروةٍ سوى لطف أماليا. باح له كازيرتا بأنَّهما تلاقيا بعد مضيّ أعوامٍ طويلة: قدَّمت له المساعدة، وتصاحبا ولكن بعفَّة، واحترامٍ متبادلٍ. والآن بات يعيش كالمتشرِّدين، تارةً هنا وتارةً هناك. وهذا وضعٌ لا يستحقُّهُ أحد، بمن فيهم كازيرتا نفسه.

«رجلٌ صالح» علَّقتُ.

تزايد فتور فيليبو.

«ثمَّة لحظاتٌ تستدعي أن نتصالح مع الآخر».

«وماذا عن الفتاة في الترام؟» سألتُ.

ارتبك خالي.

«هذا يحدث بعض الأحيان» قال. ما زلتُ أجهل الشيخوخة، لكنِّي قد أُجرِّبها أنا أيضًا لأكتشف أنَّها حيوانٌ كاسرٌ وشرس. ثم أضاف: «ثمَّة رذالاتٌ أدهى من هذه». وفي النهاية قال بنقمةٍ ما عاد قادرًا على احتوائها:

«لم يقع شيءٌ بينه وبين أماليا».

«قد يكون هذا صحيحًا» اعترفتُ.

رفع صوته:

«فلماذا رويتِ علينا تلك الأشياء إذًا؟»

أجبتُ:

«ولماذا صدَّقتماني؟»

«كان عمركِ خمسة أعوام».

«تمامًا».

شهق خالي بأنفه. وغمغم:

«انصرفي من هنا. واتركيه بحاله».

«اعتنِ بنفسك» نصحتُهُ وأنهيتُ الاتِّصال.

أطلتُ النظر في الهاتف. كنتُ أعلم أنَّه سيرنّ: لا بدَّ أنَّ كازيرتا في مكانٍ ما ينتظر إتاحة الخطّ. وسرعان ما صدرت الرنَّة الأولى. فحسمتُ أمري وخرجتُ بعجالة، دون أن أقفل باب البيت.

لم يعد هناك غيوم، ولا رياح. ثمَّة ضوءٌ أقرب إلى البياض ينزع العمقَ عن مقرِّ رابطة الأخويَّة سانتا ماريًا ديلِّي غراتسيه، فيبدو صغيرًا بين الواجهات الشفَّافة للمباني المتدنِّية، المُثقَلة بالعبارات الإعلانيَّة. اتَّجهتُ نحو سيَّارات الأجرة، ثم غيَّرتُ فكرتي ودخلتُ إلى مبنى محطَّة المترو الأصفر. كان حشد الناس يخشخش حولي كأنَّهم من ورقٍ مقصوصٍ عمدًا لتسلية الأطفال.

البذاءات بالعامِّيَّة ـ وهي البذاءات الوحيدة التي يتطابق فيها المعنى باللفظة في رأسي بحيث تُجسِّدُ في واقعيَّتها العدائيَّة والشهوانيَّة واللزجة جنسًا مُتحرِّشًا: وأيُّ صياغةٍ من خارج هذه اللهجة تبدو لي بلا معنى، وغالبًا ما تُنطَقُ بهدف المزاح، وتُقالُ من دون إبداء التقزُّز ـ ترقَّقَت لفظاتُها على غير المتوقَّع، لتغدو أشبَهَ بخشخشة ورق إكسترا سترونغ على أسطوانة آلةٍ كاتبةٍ قديمة. وبينما كنتُ أهوي في سراديب ميدان كافور السحيقة، التي تجتازها ريحٌ ساخنة تتماوج على إثرها الجوانب المعدنيَّة وتختلط ألوان السلَّم المتحرِّك الحمراء والزرقاء، تخيَّلتُ أنَّني إحدى رتب لعبة الورق النابوليتانيَّة: ثمانية السيوف، المرأة الهادئة والمسلَّحة التي تتقدَّمُ على قدميْها، مستعدَّةً لدخول حيِّز اللعب أثناء مباراة بريسكولا. زممتُ شفتيَّ بأسناني حتى شعرتُ بالألم.

تلفَّتُّ إلى الخلف طوال مسيري. لم أر كازيرتا. ولكي أراقب المناطق شبه الخالية من الرصيف بشكلٍ أفضل، ما بين فتحات النفق السوداء، اختلطتُ بأكبر حشدٍ للمسافرين المنتظرين. وصل القطار مزدحمًا، وما لبث أن خوى بعد قليل، تحت ضياء النيون الواهن لمحطَّة ساحة غاريبالدي. نزلتُ في نهاية الرحلة، وبعد عتباتٍ قليلة وجدتُ نفسي في جانب مصنع التبغ القديم، على هامش الحيّ الذي نشأتُ فيه.

تحوَّلت الأجواء القرويَّة التي لطالما اتَّسم بها المكان، بأبنيته البيضاء المكوَّنة من أربعة طوابق وسط الريف المغبرّ، تحوَّلت على مدى الأعوام إلى أجواء ضاحيةٍ يرقانيَّة تفتك بها ناطحات السحاب، وتخنقها الازدحامات المروريَّة وأفاعي القطارات التي

تحاذي البيوت بمساراتٍ بطيئة. انعطفتُ إلى الشِمال فورًا، نحو جسرٍ علويٍّ بثلاثة أنفاق، كان أوسطها مغلقًا بسبب أشغال الترميم. كنتُ أذكر ممرًّا واحدًا لا ينتهي، خاليًا ويتزلزل باستمرار على وقع قطارات الفرز التي تمرُّ فوق رأسي. إلَّا أنِّي مشيتُ ما لا يزيد على مئة خطوة في عتمةٍ تفوح برائحة البول، بوتيرةٍ متثاقلة، محشورةً بين جدارٍ يرشح بسيول لعابٍ رطب، وحاجز حماية متَّسخ يقيني من مسار السيَّارات المكتظّ.

كان الجسر العلويّ هناك منذ أن كانت أماليا في عامها السادس عشر. إذ كان عليها أن تقطع تلك الأنفاق الباردة والظليلة، عندما تذهب لتسليم القفَّازات. ولطالما تخيَّلتُ أنَّها تحملها في المجال الذي خلَّفتُهُ وراء ظهري، إلى مصنعٍ قديم أسقُفُهُ من القرميد تظهر عليه الآن لافتة بيجو. لكنَّه لم يكن كذلك بالتأكيد. ولكن ما الذي كان كذلك؟ لم يبقَ أيُّ أثرٍ باقٍ بين الحجارة والظلال، مثلما كان عليه حينها، قد يساعدني في التوجُّه الآن. كانت أماليا يتعقَّبُها تحت الجسر عاطلون، وجوَّالون، وعاملون بالسكك الحديديَّة، وعمَّالُ بناءٍ يلتهمون أرغفةً محشوَّةً بالبروكولي والنقانق أو يزدردون النبيذ من القناني. وتروي، عندما يطيب لها أن تروي، أنَّهم كانوا يمشون بحذائها، جنبًا إلى جنب، وغالبًا ما يزفرون في أذنها. يحاولون أن يلمسوا شعرها، كتفها، ذراعها. ويحاول أحدهم أن يمسك يدها ويمطرها بكلامٍ فاحشٍ بالعامِّيَّة. فتُخفِضُ أبصارها وتُسرِّعُ خطواتها. وأحيانًا تنفجر من الضحك إذ لا تتمكَّن بعدُ من تمالك نفسها. ثم تهمُّ بالركض أسرع من المتحرِّش. وكان يبدو من شكل ركضتها أنَّها تتسلَّى.

هي تركض الآن في رأسي. هل من المعقول أنَّني بمروري من هناك أحملها داخل جسدي الهَرِم ذي الملابس غير اللائقة؟ هل من المعقول أنَّ جسدها ذا الستَّة عشر عامًا، بفستانها المصنوع منزليًّا، يجتاز العتمة مستعينًا بجسدي، الحَذِرِ من البِرَكِ برشاقة، راكضًا نحو قوس الضوء الأصفر الذي يحتوي على محطَّة الوقود موبيل التي تجاوزها الزمن؟

ربَّما، في نهاية المطاف، لا يهمُّ من ذينك اليومَيْن اللذين لا هوادة فيهما، سوى نقل الحكاية من رأسٍ وزرعِها في أخرى، كزراعة عضوٍ سليمٍ وهبتْهُ لي أمِّي حنانًا. حتى أبي لاحقها في هذا الجزء من الشارع، قبل أن تتمَّ أعوامها العشرين. تروي أماليا أنَّها ذُعِرَت عندما أحسَّت به يتعقَّبها. لم يكن مثل الآخرين، الذين يتحدَّثون إليها محاولين دغدغة مشاعرها. فلقد حدَّثَها عن نفسه: تفاخر بأشياء خارقة يقدر على فعلها؛ قال إنَّه أراد أن يرسم لها بورتريه، ربَّما ليُثبِتَ كم هي جميلة وكم هو بارع. أشار إلى الألوان التي يراها فيها. كم من الكلمات ضاعت لا أحد يدري أين. وكانت أمِّي، التي لا تنظر أبدًا في وجه أيٍّ من المتحرِّشين بها وتكبت ضحكتها حين يتحدَّثون إليها، قد أخبرتنا بأنَّها نظرت إليه بطرف العيْن مرَّةً واحدةً فقط وأدركت كلَّ شيء فورًا. لكنَّنا نحن بناتها لم نفهم. لم نفهم بماذا أعجبها. لم يكن والدنا يبدو لنا استثنائيًّا، بحاله المزرية، وسمنته، وصلعته، وإهماله نظافته، وبنطلونه المترهِّل والمُبقَّع بالألوان، دائم الشكوى والغضب من المصائب اليوميَّة، ومن النقود التي يتقاضاها لتأتي أماليا ـ يصيح علينا ـ وترميها من النافذة. ورغم هذا، لم تقل أمُّنا لرجلٍ بأن

يأتي إلى بيتها إن أراد التحدُّث معها، إلَّا له بالتحديد وهو الذي بلا عمل؛ فهي لا تمارس الحبَّ خلسةً، لم تفعلها مع أحد إطلاقًا. وحين كانت تنطق عبارة «ممارسة الحبّ»، كنتُ أصغي إليها بفمٍ مفتوح، فحكاية تلك اللحظة كانت تعجبني، من دون تبعاتها، مُتوقِّفةً عند ذلك الحدّ قبل أن تستمرَّ وتتلف. ما زلتُ أحتفظ بصورٍ وأصواتٍ منها. ربَّما أنا تحت هذا الجسر الآن لكي تتكاثفَ الصور والأصوات من جديد ما بين الحجارة والظلال، ولكي تكون أمِّي ـ قبل أن تصبح أمّي ـ مُلاحَقَةً من قِبَلِ الرجل الذي كان سيمارس الحبَّ معها، ويُغطِّيها بكنيته، ويمحوها بأبجديَّته.

سارعتُ الخطى، بعد أن تأكَّدتُ مرَّةً أخرى أنَّ كازيرتا لا يلاحقني. ما زال الحيُّ في نظري محافظًا على شكله، على الرَّغم من اختفاء سلسلةٍ من التفاصيل (في مكان المستنقع الأخضر العفن حيث كنتُ أذهب للعب نهضت بنايةٌ من تسعة طوابق). كان الأولاد يزعقون في الشوارع غير المُمهَّدة مثلما في السابق عند بداية كلِّ صيف. ما زال الصياح باللهجة المحلِّيَّة في البيوت يصدر من النوافذ المفتوحة. وكان توزيع المباني الحديثة يعتمد المساحات الهندسيَّة نفسها بلا إبداع. وقد صمدت بعض المؤسَّسات التجاريَّة الفقيرة المنشأة قبل عقود: فعلى سبيل المثال، المحلُّ المغروز في الأرض، الذي كنتُ أقصد إليه لشراء الصابون والمنظِّفات لأمِّي، ما زال يفتح بابه الصغير في البناية إيَّاها التي تسلَّخَ طلاؤها. والآن يعرض على العتبة كلَّ نوعٍ من المكانس، والأوعية البلاستيكيَّة وعبوات المساحيق. أطلَّيتُ

برأسي برهةً ظنًّا منِّي أنِّي سأجد في هذا المكانِ كهفَ ذاكرتي الواسع. إلَّا أنَّه انغلق عليَّ مثل مظلَّةٍ مُحطَّمة.

تقع البناية التي يسكن فيها والدي على بُعد أمتار. لقد وُلدتُ في ذلك المنزل. اجتزتُ البوَّابة وتجوَّلتُ بأمانٍ بين المباني المنخفضة والفقيرة. دخلتُ من بابٍ كبيرٍ ومغبرّ، بلاط البهو مُفكَّك، لا وجود لمصعد، العتبات الرخاميَّة مُكسَّرة ومُصفرَّة. الشقَّة في الطابق الثاني، لم أدخلها منذ عشرة أعوامٍ على الأقلّ. وأثناء صعودي حاولتُ أن أُعيد رسم الخريطة بحيث لا تؤلمني الصدمة بهذا المكان كثيرًا. كان للمنزل غرفتان ومطبخ. الباب يفضي إلى ممرٍّ بلا نوافذ. وفي آخره من الجهة اليسرى توجد غرفة الطعام، غير المنتظمة، فيها خزانةُ فضِّيَّات ولم نمتلك يومًا فضِّيَّات، وطاولةٌ استُخدِمَت لمأدبة غداء نادرًا، وسريرٌ زوجيٌّ نرقد فيه أنا وشقيقتاي بعد المشاجرات المسائيَّة لتقرير مَن ستضحِّي بنفسها من بين الثلاث لتنام في الوسط. وبجانب تلك الغرفة كان المرحاض، الطوليّ، بكوَّةٍ ضيِّقة، وفيه مقعدة واحدة وشطَّافة متحرِّكة من معدنٍ مصقول. يليه المطبخ: حوض المغسلة حيث كنَّا نتحمَّم بالتناوب في الصباح، وموقدٌ خزفيٌّ أبيض خرج عن الخدمة سريعًا، ومرجلٌ نحاسيٌّ مُعبَّأ بقدورٍ أخرى كانت أماليا تُلمِّعها بعناية. وفي النهاية غرفة نوم والديَّ، وبجوارها حُجرة المهملات الخانقة، عديمة الإنارة، التي تغصُّ بأغراضٍ لا نفع منها.

كان الدخول ممنوعًا إلى غرفة أبي وأمِّي: المجال ضيِّقٌ للغاية. هنالك خزانةٌ بدفَّةٍ وسطى مُزوَّدة بمرآة، قبالة السرير

الزوجيّ. وعند الجدار الأيمن ثمَّة دُرجٌ بمرآةٍ مثلَّثة. وفي الطرف المقابل، ما بين حافَّة السرير والنافذة، أعدَّ أبي مسند اللوح، وهو شيءٌ ضخم، مرتفع، أرجلُهُ غليظة، نخرَهُ السوس، تتدلَّى منه مناشفُ كريهة لتجفيف الرِّيَش. وعلى بُعد سنتيمترات عن حافَّة السرير صندوقٌ رُمِيَت فيه عبوات الألوان عشوائيًّا: عبوة الأبيض هي الكبرى ومن السهل تحديدها، حتى لو كانت معصورةً وملفوفةً حتى عنقها الملولب. كما أنَّ عبواتٍ أخرى كانت مميَّزة، تارةً باسم أمير الحكايات، مثل أزرق بروسيا، وتارةً بهالة الحريق الساحق، مثل أرض سيينا المحروقة. وكان غطاء الصندوق من الأبلكاش، يمكن تحريكه، وعليه جرَّةٌ تحوي الرِّيَش، وأخرى فيها زيت التربنتين، وخليجٌ من الألوان تخلطها الريشةُ في بحرٍ مُتعدِّد التدرُّجات. اختفى البلاط ذو الأضلاع الثمانية في تلك الجهة تحت طبقةٍ رماديَّة تقطَّرَت من الرِّيَش على مرِّ الأعوام. وكان حوله لفائفُ لوحاتٍ جاهزة، يستلمها أبي من مُشغِّليه؛ هم أنفسهم الذين سيعطونه ليراتٍ قليلة لاحقًا، ويُخطِّطون لتوزيع المنتج المنجز على الباعة المتجوِّلين، الذين يُروِّجون البضاعة على أرصفة المدينة، وفي الأسواق الشعبيَّة، ومعارض الضواحي. ورغم أنَّ المنزل كان مشبعًا برائحة الألوان الزيتيَّة والتربنتين، لا أحد منَّا كان باستطاعته أن يشمَّها. فأماليا نامت مع أبي نحو عقديْن من الزمن ولم تتذمَّر يومًا.

غير أنَّها تذمَّرت عندما كفَّ عن رسم بورتريهات النساء للبحَّارة الأميركيِّين أو مناظر الخليج، وأخذ يعمل على الغجريَّة الراقصة شبه العارية. أحتفظ بذكرى مُشوَّشة من تلك الفترة،

تشكَّلت بفضل سرديَّات أماليا أكثر من التجارب المباشرة: لم أكن قد أتممتُ عامي الرابع بعد. احتشدت جدران غرفة النوم بنساءٍ أجنبيَّات بألوانٍ زاهية، تتخلَّلها مُسوَّداتٌ أوَّليَّة لعراةٍ بالأحمر القاني. وغالبًا ما كانت وضعيَّات الغجريَّة منسوخةً بشكلٍ رديءٍ من بعض صور نساءٍ أخفاها والدي في علبةٍ داخل الخزانة، حيث كنتُ أتلصَّصُ خلسةً عن الأعيُن. وهناك مُسوَّداتٌ زيتيَّةٌ أخرى تتَّخذ أشكال العراة المرسومين بالأحمر القاني أحيانًا.

لم يكن لديَّ شكٌّ في أنَّ المُسوَّدات الأوَّليَّة تستنسخ جسد أماليا. كنتُ أتخيَّل أنَّها، بعد أن يغلقا باب غرفتهما، في المساء، تنزع ثيابها، وتتَّخذ وضعيَّات النساء العاريات في الصور المخبَّأة بالخزانة وتقول: «ارسمْ». فيأتي بلفافة ورق مُصفرّ، ويقتطع منها جزءًا ويرسم. كان يُجيد رسم الشعر أكثر من التفاصيل الأخرى. يترك تلك النسوة بلا وجه لكنَّه في الفراغ البيضويّ يبرع في رسم ملامح تشكيلٍ مهيب، مطابقٍ بالتأكيد للتسريحة التي تصنعها أماليا بشعرها الطويل. وكنتُ أتخبَّطُ في السرير ولا أستطيع النوم.

عندما أنجز والدُنا الغجريَّة، كنتُ واثقة وأماليا كذلك: إنَّها هي. أقلُّ جمالًا منها، غير متناسقة، مُلطَّخة بالألوان؛ لكنَّها هي. رآها كازيرتا وقال إنَّها لا تصلح، لن تُباع. كان يبدو مُحبَطًا. تدخَّلت أماليا، وقالت إنَّها توافقه الرأي. نجَمَ عن ذلك نقاش. اصطفَّت إلى جانب كازيرتا ضدَّ أبي. كنتُ أسمع أصواتهم تعبر السلالم. وحين انصرف كازيرتا، قام والدي بلا أيّ إنذار مسبق وصفع أماليا مرَّتيْن على وجهها بيده اليمنى، الأولى بالكفِّ والثانية بظاهر اليد. أذكر تلك الحركة الدقيقة، التي تشبه

الموجة، في البدء تغدو ثم تعود: رأيتُه يفعلها للمرَّة الأولى. هربت أمِّي إلى آخر الممرّ، لتختبئ في الحُجرة، وحاولت أن تغلق على نفسها. فأخرجها بالركل: ركلةٌ أولى على خاصرتها وبالثانية جعلها ترتطم بالخزانة في غرفة النوم. نهضت أماليا ومزَّقَت كلَّ الرسوم على الجدران. فوصل إليها، وأمسكها من شعرها وصفق وجهَها بمرآة الخزانة، فتهشَّمت.

لاقت الغجريَّةُ إعجابًا واسعًا، لا سيَّما في معارض الضاحية. مرَّت عليها أربعون عامًا وما انفكَّ أبي يرسمها. وأصبح فائق السرعة مع مرور الوقت. يُحدِّقُ إلى القماش الأبيض المعلَّق على المسند ويرسم الخطوط الأولى والأطراف بيدٍ خبيرة. ثم يغدو الجسم برونزيًّا بلمعانٍ ضاربٍ إلى الحمرة. يتقوَّس البطن، ينتفخ الثديان، وتنتصب الحلمتان. وفي الأثناء تبرز عينان مشرقتان، وشفتان حمراوان، وينبت شعرٌ غزيرٌ فحيم السواد ومُسرَّحٌ على طريقة أماليا، التي أضحت مع الزمن غير رائجة لكنَّها مثيرة. تكتمل اللوحة في غضون ساعات. يفكُّ عنها الدبابيس الصغيرة، ويُثبِّت القماشة على جدارٍ لتنشف، ويضع واحدةً جديدة، بيضاء، على المسند. ويبدأ من جديد.

كنتُ في سنِّ المراهقة أرى تلك الأشكال النسائيَّة تخرج من المنزل محمولةً على أكفّ غرباء لا يدَّخرون تعليقاتهم السمجة باللهجة المحلِّيَّة. لم أكن أفهم، وربَّما لم يكن هناك ما يُفهَم. كيف من المعقول أنَّ والدي كان يُسلِّمُ ذلك الجسدَ المرسوم بأساليب جريئة وإغرائيَّة، لرجالٍ سوقيِّين، وهو الذي كان يدافع عنه بغضبِ قاتلٍ عند الضرورة؟ وبأيِّ حقٍّ كان يفرض عليها

وضعيَّاتٍ ماجنة في حين أنَّه يقسو عليها بضراوةٍ لا ترحم جرَّاء ابتسامةٍ وقحة أو نظرةٍ غير محتشمة؟ ولماذا كان يترك في الطرقات وفي بيوت الغرباء عشرات ومئات النسخ منها، إذا كان غيورًا على الأصل إلى تلك الدرجة؟ كنتُ أنظر إلى أماليا وهي منحنية على آلة الخياطةِ حتى ساعةٍ متأخِّرةٍ من الليل. وكنتُ أعتقد أنَّها، بينما تعمل هكذا، صموتةً ومُجهَدةً، كانت هي أيضًا تطرح على نفسها تلك الأسئلة.

XXI

كان باب الشقَّة مواربًا. شعرتُ بالتردُّد لذا دخلتُ بحسمٍ حتى إنَّ الدفَّة انصفقت بالجدار مُدوِّيةً. ما من ردَّة فعل. سوى أنِّي أُحِطتُ برائحةٍ مُكثَّفةٍ من الألوان والتبغ. دخلتُ غرفة النوم بانطباعٍ بأنَّ بقيَّة الشقَّة تعرَّضت للدمار على مرِّ الأعوام. لكنِّي كنتُ واثقةً من أنَّ كلَّ ما في تلك الغرفة قد بقي على حاله: السرير الزوجيّ، الخزانة، الدُّرج والمرآة المثلَّثة، مسند اللوح بجانب النافذة، لفائف اللوحات في كلِّ زاوية، مناظر البحر المائج، والغجريَّات، والحياة الرعويَّة الهانئة. كان أبي موليًا ظهره إلى الباب، بدينًا ومحدودبًا، بقميصه الداخليّ. رأسه المدبَّب أصلع، مُلطَّخٌ ببقعٍ داكنة. ورقبته مغطَّاةٌ بشعرٍ أبيض.

تنقَّلتُ على مهل في الجانب الأيمن لأستعين بالضوء لرؤية اللوحة التي يعمل عليها. كان يرسم وفمه مفتوح، ونظَّارته الطبِّيَّة على طرف أنفه. بيده اليمنى ريشةٌ تنساب بيسرٍ على اللوح، بعد

أن تنغمسَ بالألوان قليلًا؛ وما بين سبَّابة اليسرى ووسطاها سيجارةٌ مشتعلة، نصفها رمادٌ يوشك على السقوط أرضًا. كان يتراجع بجذعه ويبقى مُتحجِّرًا ثوانٍ طويلة، ثم يُصدِرُ ما يشبه الصوت الخفيف، «آه»، ويعاود مزج الألوان وهو يسحب من السيجارة. لم تكن اللوحة بمرحلةٍ جيِّدة: الخليج مسترخٍ ببقعةٍ زرقاء. لكنَّه اشتغل على بركان الفيزوف تحت سماءٍ حمراء ملتهبة.

«لا يمكن للبحر أن يكون أزرق إذا كانت السماء حمراء ملتهبة» قلتُ.

التفت أبي ونظر إليَّ من فوق نظَّارته.

«مَن أنتِ؟» سألني بالعامِّيَّة، وكان واجمًا ونبرته حادَّة. تشكَّلت حول عينيْه هالاتٌ كبيرة وسوداء. لم تستطع أحدَثُ ذكرى لي عنه أن تتطابق بسهولة مع وجهه الشاحب والغارق بأمزجةٍ جامدة.

«ديليا» قلتُ.

وضع الريشة في إحدى الجرَّتيْن. نهض عن كرسيِّه بأنينٍ حلقوميٍّ طويل وتوجَّهَ نحوي منفرج الساقيْن، منحني الجذع، يفرك يديْه المتَّسختيْن بالألوان على بنطلونه المرتخي. نظر إليَّ بارتباكٍ متصاعد. ثم قال بدهشةٍ صريحة:

«لقد أمسيتِ عجوزًا».

لاحظتُ أنَّه كان حائرًا في أن يعانقني ويُقبِّلني ويدعوني للجلوس، أم يصرخ غاضبًا ويطردني من المنزل. كان متفاجئًا

ولكنْ ليس على نحوٍ جيِّد: يشعر بأنَّ وجودي خارج السياق، وربَّما لم يكن حتى واثقًا من أنَّني ابنته الكبرى. ففي المرَّات النادرة التي تلاقينا فيها، بعد انفصاله عن أماليا، تشاجرنا. ولا بدَّ للبنت الحقيقيَّة في فكره أن تظلَّ عالقةً في مرحلة مراهقةٍ ثابتة وبكماء وطيِّعة.

«سأنصرف فورًا» طمأنتُهُ «إنَّما مررتُ لأستفسر عن أمِّي».

«لقد ماتت» قال «كنتُ أفكِّر أنَّها ماتت قبلي».

«لقد قتلت نفسها» نطقتُ بإيضاح، ولكن دونما تضخيم.

كشَّرَ والدي فانتبهتُ أنَّ قواطعه العلويَّة كانت مفقودة. أمَّا السفلى فقد غدت طويلةً وصفراء.

«ذهبت لتسبح في سباكّافنتو» غمغم «ليلًا. مثل الفتيات الصغيرات».

«لماذا لم تأتِ إلى الجنَّاز؟»

«إذا مات المرء، مات».

«كان يجب أن تأتي».

«وهل ستأتين إلى جنازتي؟»

فكَّرتُ قليلًا ثم أجبتُ:

«لا».

أمست هالات عينيْه الكبيرة بنفسجيَّة.

«لن تأتي لأنَّني سأموت بعدكِ» غمغم. ثم ضربني بقبضته على غفلةٍ منِّي.

تلقَّيْتُ الضربة على كتفي اليمنى واستصعبتُ السيطرة على جزئي الذي محقتْهُ تلك الحركة. لكنَّ الألم الجسدي بدا لي يسيرًا.

«أنتِ ساقطة مثل أمّكِ» قال بنَفَسٍ واحد، وتمسَّكَ بالكرسيّ كي لا يقع «تركتماني هنا كأنَّني حيوان».

بحثتُ عن صوتي في حنجرتي وحين تأكَّدتُ من وجوده سألتُ:

«لماذا ذهبتَ إلى بيتها؟ لقد أقلقتَها حتى الرمق الأخير».

حاول أن يضربني ثانيةً لكنَّني في هذه المرَّة كنتُ يقظة. لم يصبني فغضب أكثر.

«ماذا كان رأيها فيَّ؟» أخذ يصيح «لم أعرف رأيها فيَّ يومًا. كانت كاذبة. وأنتنَّ كاذبات جميعًا».

«لماذا ذهبتَ إلى بيتها؟» ردَّدتُ بهدوء.

فقال:

«لكي أقتلها. لأنَّها كانت تريد أن تستمتع بشيخوختها وتتركني أتعفَّنُ في هذه الغرفة. انظري ماذا لديَّ هنا. انظري».

رفع ذراعه اليمنى وأظهَرَ لي إبطه. ثمَّة دمامل بنفسجيَّة بين الزغب المتجعِّد من التعرُّق.

«لن تموت بسبب هذا» قلتُ.

أخفض ذراعه، مُرهَقًا من الانفعال. حاول أن يُعدِّلَ جذعه لكنَّ عموده الفقريّ رفض أن ينتصب كلِّيًا ما عدا سنتمترات قليلة.

ظلَّ منفرج الساقيْن، ويده مُتشبِّثة بالكرسيّ، وكان صدره يبثُّ حشرجةً بلغميَّة. لعلَّه كان يُفكِّر هو أيضًا أنَّ في تلك اللحظة لم يبقَ في العالم سوى أرضيَّة الغرفة والكرسيّ الذي يستند إليه.

«تعقَّبتُهما طيلة أسبوع» غمغم «كان يأتي كلَّ مساء عند السادسة، متأنِّقًا، بسترةٍ وربطة عنق: كأنَّه عارض أزياء. ثم يخرجان بعد نصف ساعة. كانت ترتدي ثيابها البالية دومًا ولكنْ تُهيِّئها بحيث تبدو شابَّة. أمُّكِ كانت امرأةً كاذبة، بلا حساسيَّة. كانت تمشي بجانبه ويتحادثان. ثم يدخلان إلى مطعم أو صالة سينما. ويخرجان متشابكيْن، وكانت تتصنَّع بإيماءاتها التي تؤدِّيها ما إن ترى رجلًا: بصوتها هكذا، وبيدها هكذا، وبرأسها هكذا، وبخصرها هكذا».

وبينما كان يتحدَّث كان يُلوِّحُ بيده الرخوة على مستوى صدره، ويهزُّ رأسه ويرفرف بجفنيْه، ويبسط شفتيْه، ويرجرج ردفيْه باحتقار. كان يُغيِّر استراتيجيَّته. في البدء أراد أن يخيفني والآن يريد أن يُسلِّيني بالسخرية من أماليا. لكنَّه لم يكن يعرف شيئًا عنها، ولا عن أيٍّ من نسخها التي ابتدعناها، حتى نسختها الأسوأ. لم يكن سوى رجلٍ عجوزٍ حرمَهُ الغيظُ والضراوةُ من كلِّ إنسانيَّته. ربَّما كان ينتظر قليلًا من التواطؤ، ابتسامةً وجيزة. لكنِّي أبيتُ. بل ركَّزتُ كلَّ قواي لأكبت نفوري. فلاحظ ذلك وارتبك. كانت اللوحة التي يعمل عليها خلفه، فانتبهتُ فجأةً أنَّه كان يفيد من ذاك اللون الأحمر الملتهب ليحاول أن يرسم ثورانًا بركانيًّا.

«لقد أهنتَها كالعادة» قلتُ له.

هزَّ أبي رأسه مُتشوِّشًا وجلس ثانيةً بأنينٍ طويل.

«ذهبتُ لأقول لها إنِّي ما عدتُ أطيق البقاء وحيدًا» غمغم وحدَّقَ إلى السرير الذي بجانبه باستياء.

«هل كنتَ تريد منها أن تعود لتعيش معك؟»

لم يردّ. تسرَّبَ من النافذة ضوءٌ برتقاليٌّ يضرب الزجاج، لينتهي في مرآة الخزانة، ويتمدَّدُ في أرجاء الغرفة ليُوضِّح حالة الفوضى والكآبة التي تهيمن عليها.

«لديَّ أموالٌ كثيرة مُدَّخَرة» قال «قلتُ لها: لديَّ أموالٌ كثيرة».

وأضاف كلامًا آخر لم أسمعه. فبينما كان يتحدَّث، نظرتُ بطرف عيني إلى تحت النافذة، حيث اللوحة التي أحببتُها في صباي والتي كانت معروضةً على واجهة متجر الأخوات ڤوسّي. المرأتان اللتان، من منظورٍ جانبيٍّ، تصيحان وتكادان-تتماهيان ـ تندفعان من اليمين إلى الشِمال، بحركةٍ منزوعة اليديْن والقدميْن وجزء من الرأسيْن، كأنَّ اللوحة لم تستطع استيعابهما أو أنَّ أحدًا بليدًا قصَّها ـ انتهى بهما المطاف هناك، في تلك الغرفة، بين العواصف البحريَّة والغجريَّات والراعيات. أطلقتُ تنهيدة طويلة تنمُّ عن الإجهاد.

«أعطاك إيَّاها كازيرتا» قلتُ مشيرةً إلى اللوحة. وأدركتُ أنِّي أخطأتُ: ليست دي ريزو مَن أخبره عن كازيرتا وأماليا. كان كازيرتا بعيْنه. جاء إلى هنا، وأعطاه هذه الهديَّة التي يحبُّها منذ عقود، وحدَّثه عن نفسه، وقال له إنَّ الشيخوخة بشعة، وأنَّ ابنه

رماه على قارعة الطريق، وأنَّ ما بينه وبين أماليا صداقةً قائمة على الإخلاص والاحترام منذ البداية. وصدَّقَهُ والدي. وربَّما حدَّثه عن نفسه بدوره. ولا بدَّ أنَّهما اكتشفا أسفهما وعبَّرَ كلاهما عن تضامنه مع الآخر في الشقاء. أحسستُ أنَّني شيءٌ، مُتَّزنٌ بأعجوبةٍ في وسط الغرفة.

انفعل أبي على الكرسيّ.

«أماليا كذبت عليَّ» انفجر غاضبًا «لم تقل لي إنَّكِ لم تري ولم تسمعي شيئًا».

«كنتَ تتوق لقتل كازيرتا من الضرب. أردتَ أن تتخلَّصَ منه ظنًّا منك بأنَّ رسم الغجريَّات سيدرُّ عليك أموالًا طائلة. وكنتَ تشتبه في أنَّ أماليا معجبةٌ به. وعندما أتيتُ وأخبرتُك بأنِّي رأيتُهما معًا في قبو المخبز، كنتَ قد تخيَّلتَ أشياء أكثر من التي قلتُها لك. أمَّا كلامي، فقد اتَّخذتَه مُسوِّغًا ليس إلَّا».

رمقني متفاجئًا.

«هل تتذكَّرين؟ أنا لم أعد أتذكَّر شيئًا».

«أتذكَّر كلَّ شيء تقريبًا. لا تنقصني سوى الكلمات المستخدمة في حينها. لكنِّي ما زلتُ أحتفظ برعب تلك الكلمات وأشعر به كلَّما فتح أحدهم فمه في هذه المدينة».

«ظننتُ أنَّك لا تتذكَّرين» غمغم.

«أتذكَّر لكنِّي لا أتمكَّن من أن أروي على نفسي ما حدث».

«كنتِ صغيرة. فكيف كان بإمكاني أن أتخيَّل أنَّ...»

«كان بإمكانك أن تتخيَّل. ولقد تمكَّنتَ من التخيُّل دومًا

حينما يتعلَّق الأمر بإيذائها. ذهبتَ إليها لكي تراها تتعذَّب. وقلتَ لها إنَّ كازيرتا جاء إليك لا سيَّما ليُخبِرَك عن علاقتهما. قلتَ لها إنَّه حدَّثَك عنِّي، وعن كيف كذبتُ قبل أربعين عامًا. فألقيتَ باللائمة عليها كلِّيًّا. واتَّهمتَها بأنَّها جعلتني مريضةً وكاذبة».

حاول أبي النهوض عن الكرسيّ من جديد.

«كنتِ قذرة منذ صغركِ» صرخ «أنتِ التي دفعتِ أمَّكِ للانفصال عنِّي. لقد استخدمتماني ثم تخلَّصتما منِّي».

«أنتَ دمَّرتَ حياتها» أجبتُ «ولم تساعدها يومًا لكي تعيش سعيدةً».

«سعيدة؟ حتى أنا لم أكن سعيدًا».

«أعرف».

«كان كازيرتا يبدو لها رجلًا أفضل منِّي. أتذكرين الهدايا التي كان يبعثها إليها؟ وكانت تعلم جيِّدًا أنَّ كازيرتا وراء ذلك، لتصفية حسابات، لكي ينتقم: فاليوم فاكهة، وغدًا كتاب، وبعده فستان، ثم أزهار. كانت تعلم أنَّه يفعل ذلك لكي أشكَّ بها وأقتلها. كان بإمكانها أن تكتفي برفض تلك الهدايا. لكنَّها لم تفعل. بل كانت تأخذ الأزهار وتضعها في مزهريَّة. وتقرأ الكتاب علنًا حتى. وترتدي الفستان وتخرج. ثم كانت تستسلم للعنف الدامي. لم أستطع أن أثق بها. لم أفهم ما الذي تخفيه في رأسها. لم أفهم ما الذي تُفكِّر فيه».

غمغمتُ مشيرةً إلى اللوحة التي خلفه:

«وأنت كذلك لا تقاوم هدايا كازيرتا».

استدار ونظر إلى الرسم ممتعضًا.

«هذه اللوحة، رسمتُها بنفسي» قال «ليست هديَّة. إنَّها لي».

«لم تكن في حياتك كلِّها قادرًا على رسم شيء كهذا» غمغمتُ.

«بل لقد رسمتُها في شبابي» ألحَّ وشعرتُ أنَّه يتوسَّل إليَّ لأُصدِّقه «لقد بعتُها للأخوات ڤوسّي في العام 1948».

جلستُ على السرير دون أن أسأله، بجانب كرسيِّه. قلتُ له برقَّة:

«سأنصرف».

انتفض جفلًا.

«انتظري».

«لا» قلتُ.

«لن أزعجكِ. بإمكاننا أن نعيش معًا بمستوًى جيِّد. ماذا تعملين؟»

«أرسم قصصًا مُصوَّرة».

«هل أجورها عالية؟»

«ليست لديَّ مُتطلِّباتٌ كثيرة».

«أنا لديَّ أموالٌ مُدَّخَرة» كرَّر.

«اعتدتُ العيش على القليل» قلت. فكَّرتُ أن أطرده من منطقة الطفولة في ذاكرتي، وذلك بمعانقته هنا، الآن، لأجعله إنسانًا مثلما هو في الواقع ربَّما، على الرَّغم من كلّ شيء. لكنَّ

الوقت لم يسعفني. ضربني من جديد، على صدري. تظاهرتُ بأنّي لم أشعر بألم. دفعتُهُ عنّي، نهضتُ وخرجتُ دون أن ألقي حتى نظرةً إلى الجانب الآخر من الممرّ.

«أنتِ أيضًا عجوز» زعق خلفي «انزعي عنكِ هذا الثوب. إنَّك مقرفة».

وبينما كنتُ ذاهبةً نحو الباب، شعرتُ أنّي في اختلال توازنٍ على بلاط المنزل المتصدِّع الذي عشتُ فيه قبل أربعين عامًا: ما زال يحمل أبي، ومسنده، وَغرفة النوم، لكنّي خشيتُ أنَّ وزني سيجعله ينهار. خرجتُ بعجالةٍ إلى المستراح وجذبتُ الباب بحذر. وعندما أصبحتُ في الهواء الطلق، نظرتُ إلى الفستان. فاكتشفتُ حينذاك، باشمئزاز، بقعةً واسعة بيضاء الحوافّ على مستوى العانة. كان القماش في تلك النقطة أشدَّ قتامةً، ويبدو من ملمسه أنَّه مُنشًّى.

XXII

قطعتُ الشارع. وعند الناصية عرفتُ محلَّ «منتجات من المستعمرات» بسهولة، الذي كان لوالد كازيرتا. كان المحلُّ مغلقًا بعارضتيْن خشبيَّتيْن متقاطعتيْن على مغلاقٍ حديديٍّ مثنيٍّ من أحد جوانبه كطيَّة زاوية الصفحة من كتابٍ ما. وفي الأعلى لافتةٌ مُلطَّخةٌ بالطين بالكاد يُقرَأ منها: صالة ألعاب. خرج هرٌّ أصفرُ العينيْن، وذنبُ الفأر يتدلَّى من بين شفتيْه، خرج من ذلك المثلَّث الأسود، المفتوح في المغلاق المتخلخل: نظر إليَّ مُتوجِّسًا ثم انسلَّ بحذرٍ بين العارضتيْن والمغلاق وابتعد.

تحرَّكتُ على امتداد جدار البناية. وجدتُ منافذ تهوية أقبية المبنى. كانت مثلما أذكرها تمامًا: فتحاتٌ مثلَّثةٌ على ارتفاع نصف مترٍ عن الأرض، تتخلَّلها تسعة قضبان، ومغطَّاةٌ

بشبكةٍ كثيفة. وكانت نسمةٌ باردةٌ تتسرَّبُ منها، مصحوبةً برائحة رطوبةٍ وغبار. وسَّعتُ حدقتيَّ ونظرتُ إلى الداخل محاولةً أن أعتاد الظلام. لم أرَ شيئًا.

عدتُ إلى مدخل المحلّ إذًا، وتفحَّصتُ الطريق. هناك جلبةُ أولادٍ لا تدعو للقلق في شارعٍ مريبٍ بكآبته عند الغسق. والهواءُ الحارُّ مُشبَعٌ برائحة غازٍ ثقيلةٍ، مُنبعِثةٌ من مصافي النفط. وبرك المياه مُتوَّجةٌ بحشدٍ من الحشرات. وعلى الرصيف قبالتي أطفالٌ أعمارهم بين أربع سنواتٍ وخمس يتسابقون على درَّاجاتٍ بلاستيكيَّة ثلاثيَّة العجلات. ويبدو أنَّ هناك رجلًا يناهز الخمسين عامًا يراقبهم على مضض، بنطلونه مشدودٌ على بطنه ويرتدي قميصًا داخليًّا مُصفرًّا ومنتفخًا. كانت ذراعاه مكتنزتيْن، وجذعه طويلٌ ومشعر، وساقاه قصيرتان. وكان مستندًا إلى الحائط، بجانب قضيبٍ حديديٍّ يبدو أنَّه ليس له: طوله يقارب السبعين سنتمترًا، حادُّ الرأس، كأنَّه حطامُ بوَّابةٍ حديديَّة قديمة، رماه أحد الأولاد هناك بعد أن عثر عليه في القمامة ليلعب به ألعابًا خطيرة. كان الرجل يُدخِّنُ سيجار توسكانو ويرمقني.

قطعتُ الشارع وسألتُهُ باللهجة المحلِّيَّة أن يعطيني أعواد ثقاب. أخرج من جيبه علبة كبريت يُستَخدم في المطابخ ومدَّها إليَّ على مضض، وكان يُوجِّه نظرة ادِّعاء إلى البقعة التي على فستاني. أخذتُ خمسة أعواد واحدًا تلو الآخر، لأوحي له بأنَّ نظرته لا تربكني. سألني بنبرةٍ محايدة إن كنتُ أريد سيجارًا. فشكرتُهُ: لا أدخِّن السيجار ولا السجائر. فقال لي عندئذٍ أنَّني

أخطئ بالتجوُّل بمفردي. المكان ليس آمنًا: هنالك سفلةٌ يؤذون حتى الأطفال. أشار إليهم إذ أمسك القضيب وبرمَهُ بخفَّةٍ باتِّجاههم. كانوا يتبادلون شتائم لهجويَّة نابية.

«أبناء أم أحفاد؟» سألتُهُ.

«أبناء وأحفاد» أجاب بنبرةٍ مسالمة «مَن يتجرَّأ على مسِّهم قتلتُهُ».

شكرتُهُ ثانيةً وقطعتُ الشارع من جديد. تخطَّيتُ إحدى العارضتيْن، وانحنيتُ ودخلتُ المغلاق الحديديّ عبر ذلك المثلَّث المعتم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

XXIII

حاولتُ أن أتحرَّكَ كما لو أنَّ أمامي المصطبة المتَّشحة بالمشاهد الأجنبيَّة التي رسمها والدي قبل أعوامٍ طويلة. أحسستُ أنَّها ضخمة، ومرتفعة لدرجة أنَّها تعلو رأسي بخَمسة سنتيمتر على الأقلّ. واكتشفتُ عندئذٍ أنَّني نموتُ بما لا يقلّ عن سبعين سنتيمترًا، منذ آخر مرَّة توقَّفتُ فيها فعلًا قبالة ذلك الشيء المُحمَّل بالملبَّس وعرق السوس. وسرعان ما انزلق الجانبُ الخشبيُّ والمعدنيُّ، الذي بدا بارتفاع مترَيْن تقريبًا، واستقرَّ على مستوى خصري. درتُ حوله بحذر. حتى إنِّي رفعتُ قدمي لأطأ الدوَّاسة الخشبيَّة خلف المصطبة، ولكن بلا جدوى: لم يكن هناك أيُّ أثرٍ لمصطبة أو دوَّاسة بطبيعة الحال.

قرَّرتُ أن أشعل عود ثقاب. كان المكان خاويًا ولا وجود لذاكرةٍ في وسعها أن تملأه: إلَّا من كرسيٍّ مقلوب يفصلني عن الفتحة التي تفضي إلى حيث كان والد كازيرتا يحتفظ بآلاته لصنع

الحلويات والمثلّجات. أسقطتُ العودَ كي لا تُلذَعَ يدي ودخلتُ زاوية المخبز القديم. لاحظتُ هناك أنَّ الجدار الأيمن كان في ظلمة تامَّة، بخلاف الأيسر الذي يحتوي في أعلاه على ثلاث فتحات مستطيلة، مُدعَّمة بقضبانٍ وشبكة. وكان المكان مضاءً بما يكفي لأميِّزَ فيه سريرًا يستلقي عليه جسدٌ قاتمٌ كما لو أنَّه نائم. نحنحتُ صوتي لأُسْمِعَ نفسي ولكنْ لم يحدث شيء. أشعلتُ عودًا آخر، واقتربتُ ومددتُ يدي نحو الظلّ المستلقي على السرير. وأثناء ذلك ارتطمت خاصرتي بأحد صناديق الفاكهة. تدحرج شيءٌ ما على الأرض، لكنَّ الخيال لم يتحرَّك. جثوتُ على ركبتيَّ بالشعلة التي تضيء أناملي. تحسَّستُ بيديَّ على الأرض حتى وصلتُ إلى الغرض الذي سمعتُهُ يقع: مشعلٌ كهربائيٌّ معدنيّ. انطفأ عود الثقاب. وما لبث أن أضاء شعاع المشعل كيسًا بلاستيكيًّا أسود، مرميًّا على السرير كأنَّه إنسانٌ نائم. ووجدتُ على الفراش الذي بلا شرشف تنُّورةً داخليَّة وسراويل قديمة مبعثرة تعود لأماليا.

«أأنت هنا؟» سألتُ بصوتٍ مبحوح، لم أتحكَّم به جيِّدًا.

لا جواب. رحتُ أُنقِّلُ شعاع المشعل إذًا. وجدتُ في إحدى الزوايا حبلًا مُعلَّقًا من حائطٍ إلى آخر. تتدلَّى منه عكَّازاتٌ بلاستيكيَّة وقميصان، وسترة رماديَّة والبنطلون التابع لها والمطويّ بعنايةٍ فائقة، وسترة مطريَّة. عاينتُ القميصيْن: الماركة ذاتها للقميص الذي عثرتُ عليه في بيت أمِّي. رحتُ أفتِّشُ في جيوب السترة فوجدتُ فيها بعضَ النقود، سبعَ رقائق للهاتف العموميّ، تذكرةَ قطار درجة ثانية نابولي ـ روما على مسار فورميا بتاريخ 21

مايو، ثلاثَ تذاكر نقل داخلي مستخدمة، سكاكرَ بطعم الفاكهة، إيصالَ فندقٍ في فورميا، حسابًا واحدًا لغرفتيْن فرديَّتيْن، ثلاثَ فواتير لثلاثة مقاهٍ مختلفة، وفاتورةَ طعام مُفصَّلة في أحد المطاعم في مينتورنو. وكانت تذكرة القطار صادرةً في اليوم نفسه الذي غادرت فيه أمِّي من نابولي. أمَّا إيصال الفندق، وفاتورة المطعم فيحملان تاريخ 22 مايو. وكان عشاء كازيرتا وأماليا عامرًا: حساب طاولة لشخصيْن 6,000 ليرة؛ 2 مُقبِّلات بحريَّة 30,000 ليرة؛ 2 باستا بجراد البحر 20,000 ليرة؛ 2 تشكيلة مشويَّات بحريَّة 40,000 ليرة؛ 2 خضروات مسلوقة 8,000 ليرة؛ 2 مُثلَّجات 12,000 ليرة؛ 2 نبيذ 30,000 ليرة.

الكثير من الطعام، والنبيذ. كانت أمِّي تأكل القليل جدًّا، وتكتفي برشفة نبيذ لتدوخ فورًا. تذكَّرتُ المكالمات التي أجرتها لي، والبذاءات التي أسمعتْني إيَّاها: ربَّما لم تكن مذعورة، ربَّما كانت مبتهجة وحسب؛ ربَّما كانت مبتهجة ومذعورة. إحدى ميزات أماليا هي عدم القدرة على التنبُّؤ بأفعالها، مثل الشظيَّة، لا يمكنني إجبارها على الوقوع في فخّ الصفة الواحدة. لقد سافرتْ مع رجلٍ يقلقها بقدر ما أقلقها زوجُها على الأقلّ. وخرجت معه عن مسار نابولي ـ روما للانحراف نحو غرفةٍ في فندق، نحو شاطئٍ ليلًا. لا يبدو أنَّها كانت مرتبكةً للغاية عندما برزت فيتشيَّةُ كازيرتا بحسم أكبر. كنتُ أحسُّ بها، هناك في العتمة، كما لو أنَّها في هذا الكيس الممدَّد على السرير، منكمشة على نفسها ويثيرها الفضول، ولكن ليست مرتبكة. لا شكَّ أنَّها تألَّمت عند اكتشافها بأنَّ هذا الرجل ما زال يلاحقها باستمرارٍ ضلاليّ، مثلما

فعل قبل أعوام حينما أرسل إليها هداياه وهو على يقين بأنَّ تصرُّفَه هذا سيُعرِّضها لوحشيَّة زوجها. تصوَّرتُها مُشتَّتة الذهن حين علمتْ بأنَّ كازيرتا ذهب إلى أبي وحكى له عنها، وعن الوقت الذي أمضياه معًا. رأيتُها متفاجئة لأنَّ أبي لم يقتل خصمه المزعوم، مثلما توعَّدَ مرارًا، إنَّما أصغى إليه باحترام ليتفرَّغَ بعد ذلك للتجسُّس عليها، ومعاملتها بقسوة، وتهديدها، وسعيه ليفرض عليها وصاله من جديد. فسافرتْ بعجالة، ومن الوارد أنَّها كانت متأكِّدة من أنَّ زوجها السابق يلاحقها. ولا بدَّ أنَّها كانت على يقينٍ من ذلك، وهي في الطريق، صحبة دي ريزو. وما إن استقلَّت القطار تنفَّست الصعداء، وربَّما أملت أن يظهر كازيرتا ليوضِّحَ أسبابه وتتبيَّنَ حقيقة الأمر. تصوَّرتُها مضطربةً وعازمة، لا سند لها إلَّا الحقيبة التي تحتوي على هداياها لأجلي. اقشعرَّ بدني وأعدتُ إلى جيوب سترة كازيرتا كلَّ تلك الأدلّة على مشوارهما. وفي قاع الجيوب، ما بين الخيوط، ثمَّة رمل.

وحين استأنفتُ استطلاعي انقطعت أنفاسي. عبر شعاع المشعل، في جولانه، طيفًا نسائيًّا واقفًا إلى الجدار قبالة السرير. سلَّطتُ دائرة الضوء على الشكل الذي تراءى لي. عكَّازةٌ مُثبَّتةٌ بمسمارٍ وعليها طقمُ أمِّي الأزرق الذي ارتدته لسفرها بكامل أناقته: السترة والتنُّورة من قماشٍ ممانع، استطاعت أماليا قبل عقودٍ أن تضبطه بتدخُّلاتٍ محدودةٍ من جانبها كلَّما بدا لها أنَّ الظرف مناسب. وكانت كلتا القطعتيْن مرفوعةً على العكَّازة بحيث يبدو أنَّ الشخص الذي لبسهما قد انسلَّ منهما برهةً مُتعهِّدًا بالرجوع إليهما قريبًا. تحت السترة قميصٌ أزرق قديم أعرفه

جيِّدًا. أدخلتُ يدي المتردِّدة في فتحة الصدر فوجدتُ إحدى حمَّالات صدر أماليا البائدة مرتبطةً بالقميص بدبُّوسٍ مشبك. وإذ فتَّشتُ تحت التنُّورة، ظهر لي سروالها المرتَّق. وعلى الأرض رأيتُ حذاءها البالي الذي ولَّى زمانه، بكعبه المنخفض المُجدَّد غير مرَّة، يربض فوقه الكولون كأنَّه حجاب.

جلستُ على حافَّة السرير. لأحرص على ألَّا يسقط الطقم عن الجدار. أردتُ أن تبقى تلك الألبسة هناك، ثابتة، لتستهلك ما تبقَّى من طاقة أماليا التي أودعتْها فيها. سأتركها بحيث تتفكَّك الخيوط، ويعود القماش الأزرق نسيجًا بلا قطع، فائح الرائحة من جديد، كأنَّما لم تمسَّه أماليا التي في شبابها، حين كانت ترتدي ثوبًا أميركيًّا بأزهارٍ حمراء وزرقاء، وتنتقي أحد الأقمشة الملفوفة، داخل متجرٍ يتضوَّعُ بعطور الأنسجة. كانت تناقش بمرح، وما زالت تُفكِّرُ بتخييطه على مقاسها، وما زالت تتلمَّس حواشيه، وما زالت ترفع أهدابه لتُقدِّرَ ثناياه. لكنِّي لم أستطع إبقاءها طويلًا. كانت أماليا تعمل بدأبٍ كبير. تُمدِّد على القماشة ورقةً تُمثِّلُ أنحاء جسدها. تُثبِّتها بالدبابيس، جزءًا تلو جزء. ثم تستخدم المقصّ باليمنى وتمسك القماشة بسبَّابة اليسرى ووسطاها. تُحيك الغُرَزَ الأوَّليَّة. تُخيِّطُ الغرزَ المتباعدة. تقيس، ثم تُفتِّقُ، فتعاود الخياطة. تُبطِّن. آهٍ كم كنتُ مفتونةً بفنِّها في إنشاء أثوابٍ بقطعتيْن. كنتُ أشاهد الطقم ينمو كما لو أنَّه جسدٌ جديد، جسدٌ يتيح الولوج فيه. كم مرَّةً دخلتُ خزانة غرفة النوم خلسةً، وأغلقتُ الدفَّة، وبقيتُ في الظلام بين ملابسها، تحت تنُّورة هذا الطقم العطرة، أتنفَّسُ رائحة جسمها، وأرتديها ثانيةً؟ كان يسحرني أنَّها

بحياكة النسيج وخياطته قادرةٌ على الخروج بشخصٍ جديد، بقناعٍ يتغذَّى على الدفء والرائحة، ليبدو أنَّه شخصيَّة، مسرحيَّة، قصَّة. وإن لم تسمح لي بلمسه إطلاقًا، فإنَّ قالبها هذا كان حتى أعتاب المراهقة سخيًّا بالإيحاءات والصور والمُتَع. إنَّ هذا الطقم يضجُّ بالحياة.

ولا بدَّ أنَّ كازيرتا أيضًا يراه كذلك. إذ إنَّ جسده تمدَّدَ على هذا الطقم بالتأكيد، عندما نشأ بينهما خلال السنة الأخيرة تفاهمٌ شيخوخيٌّ لم أتمكَّن من تقديره بكامل كثافته وبكامل انعكاساته. وقد سافرت بهذا الطقم عجولةً، مضطربةً بعد اكتشافات والدي، مرتابةً ومُتخوِّفةً من أنَّ هناك مَن لا يكلُّ عن التجسُّس عليها. وكانت أماليا ترتدي هذا الطقم حين لامسَها كازيرتا، إذ جلس بجوارها في القطار فجأة. هل كان بينهما موعد؟ أراهما الآن معًا، يتقابلان في المقصورة، حالما تشيح الأرملة دي ريزو أنظارها عنها. أماليا النحيلة، الرقيقة، بتسريحة شعرها غير الرائجة؛ وكازيرتا الطويل القامة، الهزيل، المتأنِّق: عجوزان رائعان. ولكن ربَّما لم يكن بينهما أيُّ اتِّفاق: كازيرتا لحق بها إلى القطار بمبادرةٍ منه، وجلس بجوارها، وبدأ يُحدِّثها بأسلوبه الجذَّاب. وفي المحصِّلة، وأيًّا كانت مجريات الأحداث، أشكُّ في أنَّ أماليا كانت تُعوِّلُ على المجيء إلى بيتي بصحبته: لعلَّ كازيرتا تطوَّعَ لمرافقتها خلال الرحلة لا أكثر، ولعلَّها في الطريق راحت تروي عن إجازاتنا الصيفيَّة، ولعلَّها بدأت تفقد معنى الأشياء، مثلما صار يحدث لها في الآونة الأخيرة، ونسيت أبي، ونسيت أنَّ الرجل الجالس بجانبها مهووسٌ بها، وبشخصيَّتها،

وجسمها، وكيانها، ومهووسٌ كذلك بثأرٍ يزداد تجرُّدًا وتتناقص فرص تنفيذه، محض شبحٍ بين الكثير والكثير من أشباح الشيخوخة.

أو على النقيض من ذلك: هي التي دأبت على أخذ الأمر بالحسبان، ورسمت منعطف الأحداث الأخيرة لحياتها، مثلما كانت تفعل بالثياب. وبكلِّ الأحوال، تغيَّرت الوجهة على حين غرَّة، وذلك ليس وفقًا لرغبة كازيرتا. كانت أماليا هي التي دفعتْهُ للنزول في فورميا. لم يكن لديه أدنى اهتمام بالعودة إلى الأماكن التي سبحنا على شواطئها (أبي، هي، أنا، شقيقتاي) في عقد الخمسينيَّات. بل كان من الممكن أنَّ أماليا، المتيقِّنة من أنَّ أبي يصرُّ على التجسُّس عليهما، قرَّرت أن تجرجره على طرقٍ من شأنها أن تصدمه.

تناولا الطعام في إحدى الحانات، شربا الخمر، ولا بدَّ أنَّهما بادرا إلى لعبةٍ جديدةٍ لم تتوقَّعها أماليا لكنَّها أغرتها. فالمكالمة الأولى التي أجرتها معي تشهد على فوضى تثير حماستها وفي الآن ذاته تربكها. وعلى الرَّغم من أنَّهما اتَّخذا غرفتيْن مستقلَّتيْن في الفندق، فإنَّ المكالمة الثانية تدعوني للشكِّ في أن تكون أماليا انطوت على نفسها في غرفتها. كنتُ أشعر أنَّ في هذا الطقم القديم المخصَّص للمناسبات الكبرى طاقةً تدفعها إلى الخروج من المنزل، بعيدًا عنِّي، وقد لا تعود أبدًا. كنتُ أرى في نسيجه الأزرق الليلةَ التي أمضيتُها في حُجرة المهملات بجانب غرفة نومها، حيث انحبستُ لأصارع بالخوف خوفي من فقدانها إلى الأبد. كلَّا، أماليا لم تبقَ في غرفتها.

لا بدَّ أنَّهما في اليوم التالي اتَّجها إلى مينتورنو، ربَّما بالقطار، ربَّما بالحافلة. وفي المساء تعشَّيا بلا اكتراثٍ بالتكاليف، تغمرهما البهجة حتى إنَّهما طلبا قنِّينتيْن من النبيذ. ثم خرجا للتنزُّه على الشاطئ ليلًا. أعلم أنَّ أمِّي، على الشاطئ، ارتدت الألبسة التي كانت تقصد إهداءها لي في المقام الأوَّل. ربَّما أقنعها كازيرتا بنزع ثيابها، وارتداء الفستان والسروال وحمَّالة الصدر والتنُّورة الداخليَّة التي سرقها لأجلها من متجر ڤوسّي. وربَّما فعلتْ أماليا ما فعلتْهُ عفويًّا، تحت تأثير الكحول، وهي تلهج بالرقابة العصابيَّة التي يجريها زوجها السابق. ومن المستبعد أن تكون قد تعرَّضت للعنف: التشريح لم يُثبِتْ وقوع عنف.

رأيتُها تنزلق من طقمها القديم وشعرتُ أنَّ اللباس ظلَّ مُتصلِّبًا وحزينًا، مُمدَّدًا على الرمل البارد مثلما هو الآن مُعلَّقٌ على الجدار. رأيتُها وهي تبذل جهدها للدخول في تلك الملابس الداخليَّة الفاخرة، في تلك الفساتين الشبابيَّة، وتترنَّح من الثمالة. رأيتُها وهي منهكةٌ تُغطِّي نفسها بالمنامة الساتان. لا بدَّ أنَّها أدركت بأنَّ شيئًا ما يتفتَّت إلى الأبد، مع أبي، مع كازيرتا، أو ربَّما حتى معي، عندما قرَّرت أن تُغيِّرَ مسار رحلتها. هي نفسها كانت تتفتَّت: فاتِّصالاتها بي، بوجود كازيرتا أغلب الظنّ، وفي وسط خيبتهما البهيجة، كان هدفها إبلاغي بفوضى الموقف الذي كانت فيه، والتشتُّت الذي كانت تعيشه. ومن المؤكَّد أنَّها عندما نزلت الماء عاريةً، إنّما فعلتْها بمحض إرادتها. أحسستُ أنَّها تخيَّلتْ نفسها مُحاصَرةً بأربع حدقات، ومُصادَرةً من نظرتيْن. وأحسستُ بها وهي خائرة القوى تكتشف أنَّ أبي غير موجود،

وأنَّ كازيرتا كان عجوزًا يلاحق خيالاته فاقد الرشد، وأنَّ المتفرِّجين على تلك التمثيليَّة كانوا مُتغيِّبين. تركت منامتها الساتان، وبقيت بحمَّالة الصدر من ماركة ڤوسّي فقط. ومن المحتمل أنَّ كازيرتا كان هناك يشاهد دون أن يرى. لكنِّي لستُ متأكِّدة. لعلَّه كان قد انصرف من قبل حاملًا ملابس أماليا. أو ربَّما كانت هي التي أمرتْه بالانصراف. أشكُّ في أنَّه حمل الثياب والملابس الداخليَّة بمبادرةٍ منه. إلَّا أنِّي متأكِّدة من أنَّ أماليا أمرته بتسليمي الهدايا وأنَّه وعدها بذلك: مقايضةٌ أخيرة للحصول على الملابس الداخليَّة القديمة التي كان مولعًا بها. لا بدَّ أنَّهما تحدَّثا عنِّي، وعمَّا فعلتُه في صغري. أو ربَّما كنتُ مُندَرِجةً أساسًا في لعبة الساديَّة التافهة التي يلعبها كازيرتا. ممَّا لا شكَّ فيه أنِّي جزءٌ راجحٌ من تخيُّلات شيخوخته وأراد أن ينتقم منِّي كما لو أنِّي ما أزال الطفلة التي كنتُ عليها قبل أربعين عامًا. تخيَّلتُ كازيرتا على الرمل، وقد أضناه دويُّ الموج والرطوبةُ، مُشتَّتًا بقدر أماليا، وثملًا مثلها، عاجزًا عن فهم مآلات اللعبة. خشيتُ أنَّه حتى لم يلحظ بأنَّ الفأر الذي تسلَّى معه على مدى فترةٍ طويلةٍ من حياته كان يهرب منه ويتَّجه إلى الغرق.

XXIV

نهضتُ عن السرير كي أكفَّ عن رؤية الشكل الأزرق المعلَّق على الجدار قبالتي. حدَّدتُ موقع العتبات التي تؤدِّي إلى باب فِناء البناية. خمس عتبات، أتذكَّرها جيِّدًا: كنتُ ألعب مع أنطونيو بالقفز عليها بينما كان جدُّه يُحضِّر الحلويات. أحصيتُها وأنا أصعد عليها. وحين وصلتُ إلى الأعلى، فوجئتُ بأنَّ الباب لم يكن مغلقًا إنّما مواربًا: القفل مُحطَّم. العجوز يدخل ويخرج من هنا بطبيعة الحال. فتحتُه وأشرفتُ على المدخل: البوَّابة المؤدِّية إلى الفِناء من جهة، والسلالم التي كانت شقَّة كازيرتا في أعلاها في الماضي من الجهة الأخرى. على هذه العتبات لاحقه أبي وخالي ليقتلاه. حاول في البدء أن يدافع عن نفسه؛ ثم تراجع عن هذا.

نظرتُ إلى الأعلى، من أسفل السلالم، وأحسستُ بألمٍ في الرقبة. كانت نظرتي عمرُها عقود، تريد أن تريني أكثر ممَّا أستطيع

رؤيته الآن. وكانت الحكاية، المُهشَّمة إلى ألف صورةٍ متضاربة، تحاول جاهدةً أن تتكيَّفَ مع الحجارة والحديد. غير أنَّ العنف يتحقَّقُ الآن، مُتشبِّثًا بدرابزين السلالم، يُخيَّلُ إليَّ أنَّه ظلَّ هنا ـ هنا وليس هناك ـ لأربعين عامًا، يصيح. تراجع كازيرتا عن الدفاع عن نفسه لا بسبب انهيار قواه أو اعترافه بالذنب أو لأنَّه كان جبانًا؛ إنَّما لأنَّ الخال فيليبو أمسك أنطونيو في الطابق الرابع، ليقلبه على عقبه ويُعلِّقُهُ من كاحليْه وهو يُجدِّفُ بعامِّيَّةٍ سمجة، كلغة أمِّي. كان خالي شابًّا، بكلتا ذراعيْه، يُهدِّدُ بإسقاط الطفل إن بدرت من كازيرتا مُجرَّد حركة. وهكذا غدت مهمَّة والدي سهلة.

تركتُ الباب مفتوحًا وعدتُ إلى القبو. بحثتُ بالمشعل عن الباب الصغير الذي يفضي إلى الطابق الأدنى. أذكر أنَّه من حديدٍ مطليٍّ، ربَّما باللون البنِّيّ. فإذا بي أجد بابًا خشبيًّا، لا يزيد طوله عن خمسين سنتيمترًا: كوَّة أكثر منها باب، مواربة، وفيها فتحةٌ بالدفَّة وأخرى بالإطار: وجدتُ في الثانية قفلًا مفتوحًا.

وعندما رأيتُها سرعان ما اعترفتُ بأنَّ صورة كازيرتا بمعطف وبر الجمل وأماليا بالطقم، يخرجان منها أو يدخلانها متألِّقيْن ومنتصبي القامة، بأذرعٍ متشابكة أحيانًا وبأيدٍ مضمومة أحيانًا أخرى، ما هي إلَّا أكذوبةٌ من الذاكرة. فحتى أنا وأنطونيو، عندما كنَّا نمرُّ من هناك، كان ينبغي لنا أن ننحني. إنَّ الطفولة مصنع أكاذيب تدوم بالماضي المستمرّ: هكذا حال ذاكرتي على الأقلّ. لكنِّي سمعتُ صياح الأولاد في الشارع وبدوا لي أنَّهم ليسوا مختلفين عمَّا كنتُ عليه: يصرخون باللهجة نفسها؛ كلٌّ منهم يشعر

أنَّه شيءٌ آخر: كانوا بدعةً، وهم يحيون المساء على الرصيف الكئيب تحت مراقبة الرجل ذي القميص الداخليّ. يركضون على الدرَّاجات ثلاثيَّة العجلات ويتبادلون الشتائم التي تتخلَّلها صيحاتٌ ثاقبة ملؤها فرح. شتائم بخلفيَّة جنسيَّة: يصبُّ صوت الرجل، في لهجتهم البذيئة، على فترات، آتيًا ببذاءةٍ أكثر دمويَّةً.

أصدرتُ أنَّةً طفيفة. سمعتُني أكرِّرُ على مسمع أنطونيو كلماتٍ ليست مختلفة عن تلك التي أسمعها الآن من خلف هذا الباب، في القبو؛ وكان يُردِّدها بدوره عليَّ. لكنِّي كنتُ أكذب حين أتلفَّظُ بها. كنتُ أتظاهر أنَّني لستُ أنا. لم أكن أريد أن أتلبَّسَ أيَّ «أنا»، ما لم تكن «أنا» أماليا. كنتُ أفعل ما أتخيَّلُ أنَّ أماليا تفعله في السرّ. وأفرض عليها، مع انعدام تحرُّكاتها التي يتسنَّى لي أن أشاركها معها، تحرُّكاتي من البيت إلى محلّ والد كازيرتا. كانت تخرج من البيت، تنعطف عند الزاوية، تدفع الباب الزجاجيّ، تتذوَّق القشطة على أنواعها، وتنتظر رفيق ألعابها. فكنتُ أنا ذاتي وكنتُ هي. أنا ـ هي نلتقي كازيرتا. وبالفعل لم أكن أرى وجه أنطونيو، عندما يطلُّ أنطونيو من باب الفِناء، إنَّما وجه أبيه.

كنتُ أحبُّ كازيرتا بالكثافة ذاتها التي تصوَّرتُ أنَّ أمِّي تحبُّهُ بها. وكنتُ أكرهه، لأنَّ تخيُّلات هذا الحبّ السرِّيّ كانت حيويَّةً وملموسةً حتى إنَّني شعرتُ بعدم قدرتي أبدًا أن أكون محبوبةً بالطريقة نفسها: محبوبةٌ لا منه، ولكن منها، من أماليا. استولى كازيرتا على كلِّ ما كان مُستحقًّا لي. وبينما كنتُ أطوف حول المصطبة الملوَّنة، كنتُ أتحرَّك مثلها، أتحدَّث بمفردي مُقلِّدةً

صوتها، أرفرف رموشي، أضحك بأسلوبها الذي ينفر منه أبي. ثم أصعد الدوَّاسة الخشبيَّة وأدخل زاوية المخبز بإيماءات امرأة. وكان جدُّ أنطونيو يعصر القمع القماشيّ لإخراج القشطة وينظر إليَّ بعينيْن عميقتيْن، تحجبهما حرارة الأفران.

سحبتُ النافذة إلى الخلف وغمرتُ المكان بشعاع المشعل. جلستُ القرفصاء، صدري على ركبتيَّ، وحنيتُ رأسي. ونزلتُ بهذا الشكل ثلاث درجات زلقة. وعلى امتداد هذه الحركة، قبلتُ أن أروي على نفسي كلَّ شيء: كلَّ الحقيقة التي تخفيها الأكاذيب.

كنتُ أنا أماليا بالتأكيد، عندما وجدتُ المخبز خاويًا وذلك الباب الصغير مفتوحًا ذات يوم. كنتُ أنا أماليا، العارية مثل الغجريَّة التي رسمها والدي، والتي حامت حولها شتائمُ وعهودٌ وتهديداتٌ طيلة أسابيع، وهي تذهب لتزحف في القبو المعتم رفقة كازيرتا. كنتُ أنا، بالماضي المستمرّ. كنتُ أشعر أنَّني هي، بأفكارها، حرَّةً وسعيدةً، وهاربةً من ماكينة الخياطة، ومن القفَّازات، ومن الخيط والإبرة، ومن أبي، ومن لوحاته، ومن الورق المصفرّ الذي آلَت إلى سطحه بخربشةٍ مُلطَّخة. كنتُ أتطابق بها ورغم هذا أتألَّم من عدم اكتمال هذا التطابق. بتُّ لا أستطيع أن أكون «أنا» إلَّا عن طريق اللعب، وكنتُ على علمٍ بهذا.

سوى أنَّ كازيرتا، جالسًا القرفصاء عند آخر الدرجات الثلاث ما بعد الباب الصغير، نظر إليَّ بطرف عيْنه وقال لي: «تعالي». وبينما كنتُ أتخيَّلُ أنَّ صوته أضاف إلى هذا الفعل كلمة «أماليا»، مرَّرَ إصبعًا هَرِمًا ومُلطَّخًا بالقشطة على ساقي بخفَّة، من

تحت الفستان التي نسجتْهُ لي أمّي. شعرتُ باللذّة على إثر هذه اللمسة. ولاحظتُ أنَّ الكلمات الفاحشة التي كان الرجل يوشوشني بها بصوتٍ مبحوح وهو يلمسني، كانت تحقَّقَت في ذهني بحذافيرها. وكنتُ أُخزِّنها في ذاكرتي، ويُخيَّلُ إليَّ أنَّه ينقطها بلسانٍ أحمر طويل لا يتحدَّثُ به من فمه إنّما من سرواله. كنتُ محبوسة الأنفاس. أشعر بالمتعة والرعب في آنٍ معًا. أحاول أن أستوعب كلا الشعوريْن، لكنّي انتبهتُ مستاءةً بأنَّ اللعبة غير ناجحة. إذ إنَّ أماليا هي التي كانت تشعر بالمتعة كلِّها، في حين أنَّني لا أجني سوى الرعب. وكلَّما توالت الأحداث ازددتُ غيظًا، لأنَّني لا أستطيع أن أكون «أنا» في متعتها، إنَّما أرتجف رعبًا.

وفي المحصِّلة لم يكن أداء كازيرتا مقنعًا بالنسبة إليَّ. ففي بعض الأحيان يتمكَّن من أن يكون ذاتَهُ، وأحيانًا يفقد ملامحه. وهذا ما يجعلني أكثر توجُّسًا. مثلما كان يحدث لي مع أنطونيو: فخلال ألعابنا، كنتُ على يقينٍ من أنَّني أماليا، في حين أنَّه لا يثبت على هيئة أبيه، ربَّما بسبب خللٍ في المخيِّلة. فأكرهه حينذاك. لأنِّي إذا شعرتُ بأنَّه أنطونيو فهذا يجعلني نسخةً رديئةً عن أماليا، هناك في الأسفل، في القبو، أتلمَّسُ عضوه بيدي؛ وفي الأثناء نفسها تلعب أماليا باعتبار أنَّها أماليا الحقيقيَّة في مكانٍ ما، وبذا تستبعدني عن لعبتها مثلما كانت الطفلات أحيانًا يفعلن بي في الفِناء.

وهكذا تعيَّنَ عليَّ حينئذٍ أن ألينَ وأقرَّ بأنَّ الرجل الذي قال لي «تعالي» من آخر درجات القبو الثلاث هو البائع صاحب

المحلّ، العجوز العابس الذي يصنع المثلّجات والحلويات، جدّ أنطونيو الصغير، والد كازيرتا. ليس كازيرتا، كلّا: كازيرتا كان في مكانٍ آخر بالتأكيد، صحبة أمّي. فصددتُهُ عنّي إذًا وهربتُ باكيةً. قفزتُ على البلاط المتصدِّع الذي كان عليه أبي ومسند اللوح وغرفة النوم. نقلتُ إليه، بلهجة الفِناء الفظَّة، الفواحشَ التي كان ذلك الرجل يقولها لي ويفعلها بي. كنتُ أبكي. ما زال واضحًا في ذهني الوجهُ الهرمُ والمشوَّهُ جرَّاء حرارة الجلد والخوف.

كازيرتا، قلتُ لأبي. قلتُ له إنَّ كازيرتا فعل بأماليا وقال لها، بناءً على موافقتها، في قبو المخبز، كلَّ الأشياء التي قالها وربَّما فعلها في الواقع جدُّ أنطونيو بحقِّي. فكفَّ عن العمل وانتظر عودة أمِّي إلى البيت.

إنَّ القول هو ربط الأزمنة والأمكنة الضائعة بعضها ببعض. جلستُ على العتبة الأخيرة، موقنةً بأنَّها التي جلستُ عليها في تلك الحادثة. كرَّرتُ بهمسٍ على مسمعي تلك العبارات البذيئة، واحدةً في تلو أخرى، التي أمطرني بها والد كازيرتا بانفعالٍ متصاعدٍ قبل أربعين عامًا. وأدركتُ أنَّها، من حيث الجوهر، هي نفسها التي صرخت بها أمِّي عليَّ عبر الهاتف وهي تقهقه، قبل أن تتَّجه إلى الغرق. كلماتٌ لتضيع أو لتعثر على نفسها. ربَّما أرادت أن تُخبرني بأنَّها هي كذلك تكرهني لِما فعلتُهُ بها أربعين عامًا مضت. ربَّما أرادت بتلك الطريقة أن تُلمِّحَ لي عن هويَّة الرجل الذي كان معها هناك. ربَّما أرادت أن توصيني بتوخِّي الحذر، والبقاء مُتيقِّظةً من نوبات غضب كازيرتا في شيخوخته. أو ربَّما

أرادت بكلِّ بساطة أن تبرهن لي بأنَّ تلك الكلمات يجوز التلفُّظُ بها أيضًا، وأنَّها ـ خلافًا لما ظننتُهُ طوال حياتي ـ قد لا تُسبِّبُ لي الضرر.

استندتُ إلى تلك الفرضيَّة الأخيرة. كنتُ هناك، منكمشةً على نفسي عند عتبة التخيُّلات المؤرِّقة، لأقابل كازيرتا وأخبره بأنِّي لم أشأ يومًا أن أُلحِقَ به الأذى. لم تعد قصَّته وأمِّي تهمُّني: لا أرغب إلَّا بالاعتراف بأعلى صوت بأنَّني سواء في ذلك الحين أم فيما تلاه، لم أكرهه هو، وربَّما لم أكره حتى أبي: بل كنتُ أكره أماليا حصرًا. كنتُ أريد إلحاق الأذى بها. لأنَّها تركتني في هذا العالم لألعب بمفردي بكلمات الكذب، بلا حدود، بلا حقيقة.

XXV

غير أنَّ كازيرتا لم يُسجِّل حضوره. لا شيء في القبو سوى العلب الكرتونيَّة الفارغة والقوارير القديمة للمشروبات الغازيَّة أو البيرة. زحفتُ إلى الخارج، يكسوني الغبار، منزعجةً من ملمس شباك العناكب، وعدتُ إلى السرير. رأيتُ على الأرض سروالي الملطَّخ بالدم فركلتُهُ بحدّ قدمي إلى تحت السرير. بات يزعجني أن أجده في ذلك المكان باعتباره جزءًا مسروقًا منِّي، أكثر ممَّا يزعجني أن أتخيَّلَ استخدامَ كازيرتا له.

عدتُ إلى الجدار حيث عُلِّقَ طقم أماليا. انتزعتُ العكَّازة، مددتُ الثوب على السرير برفق، وسحبتُ السترة: كان فيها بطانةٌ منزلقة؛ والجيوب فارغة. وضعتُهُا على كتفيَّ كأنِّي أريد أن أرى إن كانت تليق بي. ثم اتَّخذتُ قراري: تركتُ المشعل على السرير، نزعتُ فستاني وتركتُهُ على الأرض؛ ثم لبستُ بعناية، بلا عجالة. أخذتُ الدبُّوس المشبك الذي ثبَّتَ به كازيرتا حمَّالة

الصدر على القميص، واستخدمتُهُ لشدّ التنُّورة على خصري: كانت فضفاضة. والسترة كذلك، لكنِّي عدَّلتُها عليَّ بما يبعث على الارتياح. أحسستُ بأنَّ هذا الطقمَ القديمَ حكايةٌ قصوى أورثتْني إيَّاها أمِّي، وأنَّه الآن بعد كلّ الحيل اللازمة بات يليق بي تمامًا.

قد تكون الحكاية أضعفَ أو أشدَّ إثارةً من تلك التي رويتُها على نفسي. يكفي أن أسحب خيطًا وأن أتبع خطَّه المبسَّط. فعلى سبيل المثال: سافرت أماليا بصحبة عشيقها العجوز وأمضت معه إجازتها السرِّيَّة الأخيرة، تقهقه وتأكل وتشرب، وتتعرَّى على الشاطئ، وترتدي وتنزع عنها الثياب التي خطَّطَت لإهدائها لي. لعبةٌ تلعبها عجوزٌ تتظاهر بأنَّها شابَّة، لتنال إعجاب عجوزٍ آخر. وقرَّرَت في النهاية أن تسبح عاريةً. لكنَّها، وبسبب الثمالة، ابتعدت عن الشاطئ كثيرًا فغرقت. خاف كازيرتا، جمع كلَّ الأغراض ولاذ بالفرار. أو أنَّها تركض عاريةً على الشطِّ والرجل يتبعها، وكلاهما لاهثان، كلاهما مذعوران، هي بسبب اكتشافها شهواته، وهو بسبب اكتشافه نفورها. إلى أن ظنَّت أماليا أنَّها تستطيع الهرب منه عبر الماء.

نعم، يكفي أن أسحب خيطًا لأواصل اللعب بشخصيَّة أمِّي الغامضة، بإثرائها تارةً، وبإذلالها تارةً أخرى. لكنِّي انتبهتُ أنَّني لم أعد في حاجةٍ إلى ذلك فتحرَّكتُ في شعاع الضوء مثلما بدا لي أنَّها تحرَّكت تمامًا. وبعد أن أطفأتُ المشعل، انحنيتُ نحو المثلَّث الأزرق في المغلاق وأخرجتُ رأسي إلى الهواء الطلق. كانت أعمدة الإنارة مضاءةً، ولكن ما من نور. لم يعد الأولاد يركضون ولا يصرخون. كانوا يتحلَّقون حول رجلٍ يجلس

القرفصاء، ووجهه على مستوى وجوههم، ويداه على ركبتيْه. إنَّه كازيرتا. رأسه المكلَّلة بشعره الأبيض، وملامحه بتعابيرٍ حادَّة. كان الجميع هناك، الصغار والرجل البالغ، واقفين وأحذيتهم في بِركةٍ لامعة. بدأ الأطفال يزيلون أغلفة السكاكر التي وزَّعَها عليهم توًّا.

نظرتُ إلى ذلك العجوز النحيل، الحليق، المتأنِّق، ووجهه الشاحب والمشدود، ولم أعد أشعر بأيِّ ضرورةٍ إلى التحدُّث إليه، أو الاستفسار منه، أو إحاطته بما لا يعلم. قرَّرتُ أن أهرب على الرصيف، ما بعد المنعطف، لكنَّه التفت ورآني. كانت دهشته كبيرةً حتى إنَّه لم ينتبه إلى ما يحدث خلفه. أسند الرجل ذو القميص الداخليّ القضيبَ الحديديّ على الجدار، ورمى سيجاره وراح يدنو منه وهو ينظر إلى الأمام، منتصب القامة، وساقاه القصيرتان تتحرَّكان بخطواتٍ مطمئنّة إلى حدٍّ معقول. تراجع الأولاد مبتعدين عن البركة. وظلَّ كازيرتا وحيدًا في مرآة الماء البنفسجيَّة، فمه مفتوح، وعيناه بلا قلقٍ تُحدِّقان إليَّ. فساعدني هدوؤه على التنفُّس. عدتُ إلى محلِّ «منتجات المستعمرات» الذي كان قبل أربعين عامًا، وحرصتُ على ألَّا أصطدم بالمصطبة المرسومة بالنخيل والجِمال، وصعدتُ الدوَّاسة الخشبيَّة، اجتزتُ المخبز وتجنَّبتُ الفرن والآلات والمصاطب والقدور بمهارة، وخرجتُ من الباب المؤدِّي إلى الفِناء. وما إنْ أصبحتُ في الهواء الطلق حاولتُ أن أمشي بخطواتٍ مُتَّزنة تليق بشخصٍ راشدٍ ليس في عجلةٍ من أمره.

XXVI

كان الغاز يحترق في أعلى أبراج مصافي النفط في الليل. سافرتُ على متن قطارٍ بطيءٍ كالاحتضار، بعد أن بحثتُ عن مقصورةٍ منيرة ووجدتُها، ليس فيها مسافرون غارقون في النوم. أردتُ أن يكون مقعدي على الأقلّ، إن لم يكن القطار كلُّه، محافظًا على تماسكه. وجدتُ مكانًا بجانب مجموعة من الشبَّان في العشرين من أعمارهم، مُجنَّدون أغرار عائدون من إجازةٍ قصيرة. كانوا يستعرضون عدوانيَّةً فَزِعَة عند كلّ جملة، بعامِّيَّةٍ غير مفهومة تقريبًا. فاتهم القطار الذي كان سيوصلهم إلى الثكنة على الموعد المحدَّد. وكانوا يعلمون أنَّهم سيُعاقَبون على تأخُّرهم فأبدوا تخوُّفَهم. لكنَّهم لم يعترفوا بذلك. بل كانوا يُخطِّطون، بين زعيقٍ وقهقهة، لإخضاع الضبَّاط الذين سيُعاقِبونهم لإهاناتٍ جنسيَّةٍ من كلِّ نوع. ويزعمون تنفيذ هذه الإهانات في مستقبلٍ غير مُحدَّد، ويصفونها بالتفصيل ريثما يحين وقتها. ويدَّعون أنَّهم،

بالتلميح إليَّ ضمنيًّا، لا يخافون من أحد. وكانوا يرمونني بنظراتٍ تزداد وقاحةً. بادر أحدهم بالكلام إليَّ مباشرةً وقدَّمَ لي البيرة من قنِّينته، فشربتُ منها. وضحك الآخرون بسفاهة ولم يتمكَّنوا من تمالك أنفسهم، فاتَّكأ أحدهم إلى الآخر بأجسادٍ مُتشنِّجة من الضحك المكبوت ثم تدافعوا بقوَّةٍ وقد تضرَّجت وجوههم.

تركتُهم في مينتورنو. وصلتُ إلى آبيا على الأقدام، من خلال طرقٍ مقفرة، ووسط ڤيلَّات متواضعة وخاوية. ما زال الظلام سائدًا حين استطعتُ العثور على البيت الذي كنَّا نصطاف فيه، بناية من طابقيْن بسطحٍ مائل، موصدة الأبواب وصامتة تحت الندى. ومع مطالع الضوء، سرتُ على دربٍ رمليّ. لا شيء سوى الخنافس والسحالي المتحجِّرة، في انتظار الدفء. وكانت أوراق القصب، التي كنتُ أصنع منها هياكل طائرات ورقيَّة لي ولشقيقتيَّ، تُبلِّلُ طقمي ما إنْ أمسَّها.

نزعتُ حذائي وغرستُ قدميَّ الموجوعتيْن في رملٍ ناعم، باردٍ ومتَّسخ، بين هشيم من كلِّ نوع. ذهبتُ لأجلس على جذع شجرة بقرب الشاطئ، في انتظار أن تُدفِئني الشمس، ولكي أربط حضوري بحطام مُتجذِّرٍ في الرمل. البحر هادئٌ الآن وأزرق تحت الشمس، لكنَّ أشعَّتها تصل بالكاد إلى الشطّ فتترك الرمل تحت ظلٍّ رماديّ. ثمَّة ضبابٌ خفيفٌ سينقشع عمَّا قريب، وما يزال قادرًا على محو الأجمات، والتلال، والجبال. كنتُ قد عدتُ إلى هذا المكان، بعد وفاة أمِّي. لم أر البحر ولا الشاطئ. إنَّما رأيتُ تفاصيل: صمَّام قوقعة أبيض، مُحزَّزٌ بدقَّةٍ شديدة؛ سرطان البحر وفلقات حوضه موجَّهةٌ إلى الشمس، وحاوية مسحوق غسيل من

البلاستيك الأخضر؛ وهذا الجذع الذي أجلس عليه. تساءلتُ لماذا قرَّرت أُمِّي أن تموت في هذا المكان. لم أكن لأتوصَّلَ إلى ذلك. فأنا مصدر الحكاية الوحيد، لا يمكنني ولا أريد أن أبحث في خارجي.

وعندما بدأت الشمس تلمسني، سمعتُ أماليا وهي شابَّةٌ، مأخوذةً بالعجب من ظهور أوَّل طرازٍ للبيكيني. كانت تقول: «كلتا القطعتيْن تُمسَكان بيدٍ واحدة». لكنَّها كانت ترتدي لباسًا أخضر خيَّطتْهُ بنفسها، من قطعةٍ واحدة، ثخينًا، صُمِّمَ ليطمس معالم الجسد، وما انفكَّت ترتديه على مرِّ الأعوام. وكانت، من باب الحشمة، تراقب القماشة إذا ما علت فوق مستوى فخذيْها أو ردفيْها. وفي أيَّام الأحد تلتفُّ بمنشفة، بملء إرادتها على ما يبدو، كما لو أنَّها تشعر بالبرد، على مقعد الاستلقاء تحت المظلَّة، بجانب والدي. لكنَّها لم تكن تشعر بالبرد. ففي أيَّام العُطَل يمتلئ الشاطئ بمجموعاتٍ من الشبَّان، قادمين من المناطق الداخليَّة، بملابس بحر غير لائقة، وقد أحرقتِ الشمسُ وجوههم وأعناقهم وأذرعهم، وظلَّ ما تبقَّى من أجسادهم أبيض، مشاكسين وصاخبين، لا همَّ لهم سوى الاشتباكات العنيفة مزاحًا أو جدِّيًّا، على الرمل أو في المياه. وكان أبي، الذي يمضي وقته على الشطِّ يتناول الصدَفَ الذي يعثر عليه في الرمل، ينقلب مزاجه ويتبدَّل سلوكه عند رؤيتهم. فيأمر أُمِّي بعدم الابتعاد عن المظلَّة. يتجسَّس عليها ليرى إنْ كانت تنظر إليهم بطرف عيْنها. وحين يقتربون إلى المظلَّة أكثر ممَّا ينبغي، وهم يخوضون استعراضاتهم متَّسخين بالرمل حتى شعرهم، ويضحكون، يأتي إلينا أبي مستعجلًا ويجبرنا

نحن الأربعة جميعًا على البقاء بجانبه. وفي الأثناء يعلن الحرب على الشبَّان بنظراتٍ شرسة. وكنَّا نحن، كالعادة، نخاف.

لكنَّ أكثر ما أذكره من تلك الإجازات باستياء كبير هو السينما في الهواء الطلق، حيث كنَّا نذهب غالبًا. كان أبي يدأب على حمايتنا من مُتحرِّشين مُفترَضين، فيُجلِسُ شقيقتي الصغرى على أوَّل مقعدٍ من ناحية الممرّ المركزيّ. ثم يأمر الأخرى بالجلوس بجانبها. ثم أنا، فأُمِّي، وهو في النهاية. فتبدو على أماليا علامات التسلية والانبهار. أمَّا أنا، فكنتُ أرى في ترتيب الجلسة بهذا الشكل إيذانًا بخطرٍ مُحدِق فأزداد قلقًا. وعندما يجلس أبي على مقعده ويضع ذراعه على كتف زوجته، تبدو لي تلك الحركة بمثابة الحصن الأخير ضدَّ أيّ تهديدٍ غامضٍ سيتَّضح في القريب العاجل.

ويبدأ الفيلم، لكنِّي أشعر بأنَّه غير مطمئنّ. يتفرَّجُ بعصابيَّة. فإن التفتت أماليا إلى الخلف عَرَضيًّا، يفعل مثلها على الفور. ويسألها على فتراتٍ ثابتة: «ماذا هناك؟». فتطمئنه لكنَّه لا يثق بها. كنتُ أرتاب من قلقه. وأفكِّرُ أنَّه لو وقع لي مكروه ـ أفظع شيء على الإطلاق، لم أكن أعرف ما هو ـ سأكتمه عنه. وأستنتج، بلا أيّ سببٍ وجيه، أنَّ أماليا كانت ستتصرَّف على النحو ذاته. لكنَّ هذه الفكرة كانت تزيدني خوفًا. فلو أنَّ أبي اكتشف أنَّها أخفت عنه محاولة أحد الرجال التقرُّب منها، كان سيحصل على الأدلَّة عن مكائد أماليا الأخرى التي لا تُعدُّ ولا تُحصى.

وكانت لديَّ تلك الأدلَّة أساسًا. فعندما كنَّا نذهب إلى

السينما من دونه، كانت أمّي لا تحترم أيًّا من القواعد الصارمة التي فرضها عليها: تنظر حولها بحرِّيَّة، تضحك مثلما لا يجدر بها، وتثرثر مع غرباء، مع بائع السكاكر مثلًا، الذي حالما تُطفأ الأضواء وتبرز السماء ذات النجوم يجلس بجانبها. لذا لم أكن أستطيع متابعة قصَّة الفيلم في حضور والدي. فأرمي نظراتٍ خفيَّة في الظلام لأراقب أماليا بدوري، وأُسبِّقُ انكشاف أسرارها، وأمنعه من اكتشاف ذنوبها. وما بين دخان السجائر وإشعاع حزمة الضوء النابعة من المسلاط، كنتُ أبني خيالاتي برهبةٍ شديدة عن أجساد رجال على هيئة ضفادع تقفز برشاقة تحت صفِّ المقاعد، وتمدُّ لا أرجلَها بل أيديها وألسنتها اللزجة. وهكذا أتصبَّبُ عرقًا باردًا رغم ارتفاع الحرارة.

ولكن بحضور زوجها، كانت أماليا تختلس نظرةً جانبيَّة، فضوليَّةً وجزعة معًا، ثم تسند رأسها على كتفه وتبدو سعيدة. كانت تلك الحركة المزدوجة تُمزِّقني. لا أدري أين ألحق أمِّي الهاربة، إن كان على محور تلك النظرة أم على القطع المخروطيّ الذي ترسمه تسريحتها نحو كتف زوجها. كنتُ هناك بجوارها وأرتجف. بل حتى النجوم، الكثيرة في الصيف، تبدو لي وميضًا لاضطرابي. كنتُ حاسمةً أمري لأختلف عنها، حتى إنِّي فقدتُ أسبابي للتشبُّه بها سببًا تلو سبب.

بدأت الشمس تُدفِّئني. فتَّشتُ في حقيبة اليد وأخرجتُ هويَّتي. أطلتُ النظر إلى الصورة، والتدقيق فيها لأحدِّدَ ملامح أماليا. هي صورةٌ حديثة، التُقِطَتْ لتجديد الوثيقة المنتهية الصلاحيَّة خاصَّةً. وبينما كانت الشمس تسفع عنقي، رسمتُ

تسريحةَ أمِّي بقلم التخطيط حول وجهي. أطلتُ شعري القصير انطلاقًا من الأذنيْن ونفختُ جديلتيْن عريضتيْن تنغلقان في موجةٍ فحيمة السواد، مرفوعةً على الجبين. ورسمتُ خصلةً مُجعَّدة ومُتمرِّدة على العين اليمنى، قائمةً بالكاد بين جذر الشعر والحاجب. نظرتُ إلى نفسي، وابتسمتُ لنفسي. كانت تلك التسريحة القديمة، الرائجة في الأربعينيَّات لكنَّها ندرت في أواخر الخمسينيَّات، تليق بي. أماليا كانت. ثم كنتُ أنا أماليا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

غرقت أمّي في ليلة الثالث والعشرين من شهر مايو، يوم عيد ميلادي...».

تستهلّ إيلينا فيرّانتي سردَها بهذه العبارة القاسية ذات الوقع الصادم، التي تُذكّرنا بافتتاحيّة «مسخ» كافكا و«غريب» كامو. ومن ثَمَّ تغوص البطلةُ ببحثٍ استقصائيٍّ لمعرفة أسباب تلك الوفاة.

غير أنّنا لا نتوه عن الفكرة الأساسيّة: علاقة الأمّ-الابنة، وتَمُلُّكُ الابنة لأمّها، وتمدُّد الأمّ في جسد ابنتها. «الحبُّ المقلق» هو حبُّ المرأة تجاه أمّها، الذي تصفه المؤلّفةُ في كتابها «فرانتوماليا» بأنّه «حبٌّ حميم، لحميٍّ، ممزوجٌ بنفورٍ لحميّ». يتجسَّدُ أحيانًا في اختيار الملابس لأنّها الوعاءُ الذي سيحتوي على تلك الكينونة المزدوجة. ويصطدم أحيانًا بعلاقة الابنة بأبيها، الذي ينافسها على حبّ الأمّ، وهو «الخصم المقلق» بالتعريف الفرويديّ.

هذه الروايةُ هي قصّةُ اختفاءِ امرأة، وبحثِ امرأةٍ عن أثر امرأة. فلا بدَّ لمن قرأ «صديقتي المذهلة» بشغفٍ كبير أن يجدَ جذورَ الرباعيّةَ هنا، وأن يستشعرَ بوادرَ «انحلال الهوامش» أيضًا.

«الحبُّ المقلق» هي الرواية الأولى التي أصدرتْها أديبةُ الاسم المستعار.

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار الآداب